الأعمالُ الكاملة

١٩٨٩ - ٢٠٢١ م

منفستو الديك النوبي

الأعمال الكاملة

١٩٨٩ - ٢٠٢١ م

عبد العزيز بركة ساكن

منفستـــو الديــك النوبـي

ISBN 9789776597183

© Willows House 2021

الطبعــة الأولـــى: 2021 منشورات ويلوز - جوبا

جميـع حقـوق النشـر محفوظـة للناشـر، ولا يحـق لأي شـخص أو مؤسسـة أو جهـة، إعـادة إصـدار هـذا الكتـاب، أو جـزء منـه، أو نقلـه، بـأي شـكل أو واسـطة مـن وسـائط نقـل المعلومـات، سـواء أكانـت إلكترونيـة أو ميكانيكـة، بمـا في ذلـك النسـخ أو التسـجيل أو التخزيـن أو الاسـترجاع، دون إذن خطّـيّ مـن الناشر.

All copyrights are reserved to the publisher, and no person, institution or entity has the right to reissue this book, or part of it, or transfer it, in any form or medium of information transmission, whether electronic or mechanical, including copying, recording or storing Or, without written permission from the publisher

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها ولا تعبر بالضرورة عن رأي النَّاشر

Willows House
منشـــورات
ويلوز هاوس

جنوب السودان، جوبا، كاتور، مربع ٨ جوار مركز جيران

www.willowshouse.net
www.jubabok.com
gatawillow@gmail.com
willowshouse3@gmail.com
+211927302302

B A R A K A S A K I N

عبد العزيز بركة ساكن

الأعمالُ الكامِلة

١٩٨٩ - ٢٠٢١ م

منفستو الديك النوبي

Willows House
منشـــــورات
ويلوز هاوس

إهداء

إلى أمي مريم بت أبو جبرين

إلى الصديقـات والأصدقـاء: صـلاح الأمـين الصبـير، نعـمات خـيري، عبـد اللـه الدنقـلاوي، ابتسـام القشـورى، ذو النـون آدم، تهـاني رُمبـة، حافـظ حسـين، عبداللـه ديـدان، اسـماء عثـمان الشـيخ. والي حبيتـي الملكـة أمـاني تـور.

«يمكنني أن أقول للَحْظَةٍ:

تريَّثي قليلًا، ما أجملك!

إن أثرَ أيامي الأرضية

لا يمكن أن يسقط في الآباد.»

فاوست.

عبد العزيز بركة ساكن البداية في 2012/5/15 الدمازين

«يَـا أرْضَ حَفِيـفِ الأجْنِحَـةِ الَّتِـي فِي عَـبْرِ أنْهَـارِ كُـوشَ، الْمُرْسِـلَةَ رُسُـلًا فِي الْبَحْـرِ وَفِي قَـوَارِبَ مِـنَ الْـبَرْدِيِّ عَـلَى وَجْـهِ الْمِيَـاهِ. اذْهَبُـوا أيُّهَـا الرُّسُـلُ السَّرِيعُـونَ إلى أُمَّـةٍ طَوِيلَـةٍ وَجَـرْدَاءَ، إلى شَـعْبٍ مَخُـوفٍ مُنْـذُ كَانَ فَصَاعِـدًا، أُمَّـةِ قُـوَّةٍ وَشِـدَّةٍ وَدَوْسٍ، قَـدْ خَرَقَـتِ الأنْهَـارُ أرْضَهَـا. يَـا جَمِيـعَ سُـكَّانِ الْمَسْـكُونَةِ وَقَاطِنِـي الأرْضِ، عِنْدَمَـا تَرْتَفِـعُ الرَّايَـةُ عَـلَى الْجِبَـالِ تَنْظُـرُونَ، وَعِنْدَمَـا يُـضْرَبُ بِالْبُـوقِ تَسْـمَعُونَ. لأنَّـهُ هكَـذَا قَـالَ لِيَ الـرَّبُّ: «إنِّي أهْـدَأُ وَأنْظُـرُ فِي مَسْـكَنِي كَالْحَـرِّ الصَّـافِي عَـلَى الْبَقْـلِ، كَغَيْـمِ النَّـدَى فِي حَـرِّ الْحَصَـادِ.» فَإنَّـهُ قَبْـلَ الْحَصَـادِ، عِنْـدَ تَمَـامِ الزَّهْـرِ، وَعِنْدَمَـا يَصِـيرُ الزَّهْـرُ حِصْرِمًـا نَضِيجًـا، يَقْطَـعُ الْقُضْبَـانَ بِالْمَنَاجِـلِ، وَيَنْـزِعُ الأفْنَـانَ وَيَطْرَحُهَـا. تُـتْرَكُ مَعًـا لِجَـوَارِحِ الْجِبَـالِ وَلِوُحُـوشِ الأرْضِ، فَتُصَيِّـفُ عَلَيْهَـا الْجَـوَارِحُ، وَتُشَـتِّي عَلَيْهَـا جَمِيـعُ وُحُـوشِ الأرْضِ. فِي ذلِـكَ الْيَـوْمِ تُقَـدَّمُ هَدِيَّـةٌ لِـرَبِّ الْجُنُـودِ مِـنْ شَـعْبٍ طَوِيـلٍ وَأجْـرَدَ، وَمِـنْ شَـعْبٍ مَخُـوفٍ مُنْـذُ كَانَ فَصَاعِدًا، مِـنْ أُمَّـةٍ ذَاتِ قُـوَّةٍ وَشِـدَّةٍ وَدَوْسٍ، قَـدْ خَرَقَـتِ الأنْهَـارُ أرْضَهَـا، إلى مَوْضِعِ اسْـمِ رَبِّ الْجُنُـودِ؛ جَبَـلِ صِهْيَـوْنَ.»

سفر إشعياء 18.

سِفْرُ المُلُوك

كان يحلِّق حول المكان لوقتٍ طويلٍ أو قصيرٍ أو عدمٍ لا يمكن قياسه بحسابات الموتى، قد يكون في سرعة البرق أو في بطء الحَزَن. كان الديك يمضي به شَمالًا مع مجرى النيل، فوق هامات النخيل، وأشجار السنط، ومراكب الصيد، والحيوانات التي تشرب على شاطئيه، والبشر المتسكِّعين، والبنايات على جنبيه، السحابات فوقه، ويستطيع أن يرى الأسماك تسبح، والريح تمر، والرمال تتحرك، يستطيع أن يرى ما كان محجوبًا عنه في حياته الأولى، ويسمع همس النخلة للنخلة، وحديث الماء للشط، ومقالة الطائر للوردة، ونحيب الوقت وضحكته، وكان يمضي كالريح، أو مثل حركة مكونات الصخرة، كان خفيفًا وثقيلًا وباردًا جدًّا ومشتعلًا كالجحيم.

الجثـةُ ترقـد عـلى السريـر، ويلتـفُّ حولهـا أفـراد الأسرة المحزونـون، وقِلَـةٌ مـن الأصدقـاء، وأقربـاء زوجتـه «نـصرة». في حقيقـة الأمـر لم يكـن «فتـح اللـه فـراج» هنالـك، لم تكـن تلـكَ الجثـة المسـجاة الآن عـلى فـراش المـوت، الملفوفـة بالكتـان الأبيـض، التـي تفـوح منهـا رائحـة عطـر السـيد «عـلي الميرغنـي»، هـي جثتـه. طالمـا لم يجـرؤ أحـد أفـراد الأسرة أو المعزّيـن عـلى معرفـة مـا تحـت القنـاع الشـبيه بـ«فتـح اللـه فـراج»؛ فكانـوا في عجلـة مـن أمرهـم لمواراتـه الـثرى، وهـي أيضًـا ليسـت مـن عاداتهـم أن يتأكـدوا مـن أن مـا تحـت القنـاع ليـس سـوى مـادةٍ ثقيلـة، لا اسـم ولا معنـى ولا توصيـف لهـا.

لقـد أُرهـق وتألّـم «فتـح اللـه» كثـيرًا في حياتـه منـذ أن حصـل عـلى الـثروة الفجائيـة الكبـيرة، مـمَّا جعـل الجميـع وعـلى رأسـهم أفـراد أسرتـه المقربـون يتمنُّـون لـه المـوت مـن أجـل راحتـه؛ أيْ رحمـة بـه، فـما فائـدة الحيـاة في معانـاة مثـل معاناتـه، مـا لذَّتهـا وهـي ألمٌ محـضٌ وعـذابٌ ثقيـلٌ وجحيـمٌ لا يُطـاق؟ أمَّـا «فتـح اللـه فـراج» في هـذه اللحظـة، فقـد كان يمـضي بعيـدًا عـن المدينـة محمـولًا عـلى ظهـر الديـك، ليَفِـي بعهـده ويدفـع ثمـن الـثروة التـي وهبهـا لـه الديـك في حياتـه، وفقًـا للعقـد الـذي أُبـرِم بينهـما، العقـد الـذي لم يقـرأه، فهـو أمِّـيٌّ، كـما أن العقـد غـير مكتـوب، ولم يسـمع بـه أو يـرَه، ولكنـه وقَّـع عليـه بمجـرَّد أن دخـل القـبر النُّـوبيَّ هـو وصديقـه «جبريـل كـيري»، واسـتوليا عـلى منقـولات الموميـاء النوبيـة: يقـول العقـد دون أيـة لغـةٍ: «أن يفعـل بي الديـكُ مـا يشـاء في الحيـاة الدنيـا، وأن يتـصرَّف فيَّ حسـب مشـيئته أيضًـا بعـد مـوتي.»

وعندمـا علـم بتفاصيـل العقـد مـن الديـك فيـما بعـد عنـد الرجـل الميـت في مغـارة جبـل «عُضْـو الكلـب»، وأعطـاه الفرصـة في أن يتخـلى عـن المـال ويعـود فقـيرًا كـما كان، أو يقبـل بالديـك، فـإن «فتـح اللـه فـراج»، لسـوء حظـه قَبِـل بالديـك؛ فلقـد كان خوفـه مـن الفقـر كبـيرًا، بعـد أن

ذاق طعم المال، ولذة الثراء، والحياة المنعَّمة السهلة الهانئة، حياة بلا أزمات أو حاجة أو ضنك، وقد خبر تلكَ الحياة التعسة المذلة من قبل.

أصبح «فتح الله» الآن مملوكًا للديك وحده وتحت رحمته، كما حدث لصديقه المرحوم «جبريل كيري» ولمئاتٍ آخرين قبلوا بالعقد بقيامهم بدخول القبور النوبية. ومَنْ كان مملوكًا للديك، وتحت رحمته فهو مملوكٌ للجدِّ الأعظم للأمكنة والأزمنة، والجدَّة العُظمى التي جاءت قبل النيل بل قبل اليابسة وقبل الجدِّ نفسه. عندما كانت بُحيرة «تيزيز» تغرق الكون الخاصَّ بالإنسان. وهو أيضًا الثروة التي سوف تقوم عليها مملكة الإنسان القادمة: سيحكمها المُلوك الأوائل الذي جلبوا الحضارة إلى الإنسانية وأخرجوا البشر من ظلام الكهف إلى رحابة قلب الشمس. سيعودون مرةً أخرى أقوى وأجمل وأرحم وأكثر قسوة، وهم الآن يسيطرون على الوجود من مرقدهم الكبير بجزيرة «ناوا» مركز الكون.

كان «فتح الله فراج» لا يدرى — أو يدري — أنه محمولٌ على ظهر الديك، ولكنه يحسُّ بسرعة عبوره في الأمكنة والأزمنة. يعرف أنه يمضي بعيدًا جدًّا لنهايةٍ ما، في غيبوبة شبه تامَّة، وببعض الوعي، أو ربما بكامل الوعي والإدراك، لا يدري — ويدري أيضًا — بتلك الحالة. الوضع أقرب للحلم، والحقيقة مواراةٌ خلف ظلامات الظنون. ويعرف أيضًا أنه مات قبل لحظات، وأن المحمول الآن ليس سوى «فراج» افتراضيٍّ يوفِّي بعقدٍ وقَّعه مع ديكٍ غريب، قد يكون الشيطان نفسه أو الملاك أو الروح الحارسة للذهب والكنوز، أو قد لا يكون الديك شيئًا سوى ضميره هو، قد تكون نهايته الجحيم، ولا يظنُّ أن مصيرًا آخر سينتهي إليه، فما فعله به الديك في حياته لم يجعله يرجو خيرًا، بل ينتظر الأسوأ. إنه لم يقم بشرور كثيرة في حياته، سوى سرقة

الذهب، وربما خيانة صغيرة قام بها في حقِّ صديقه «جبريل كيري»، بقية ذنوبه كانت صغيرة وعادية ويمكن أن تُغتفر، فهو مؤمن بالله وبرسوله، ولو أنه لا يعرف شيئًا في الدين، ولكنه كان يصلِّي معظم الأوقات ويذهب لصلاة الجمعة، ولم يطلب منه الديك أن يدنِّس المقدسات أو يترك الصلاة أو يكفر بالله، كما إن الديك لم يكن مثل بعض الجنِّ الذي يمارس اللواط مع مخدوميه.

يستطيع «فتح الله فراج» وهو في هذه الحالة أن يرى ما حوله، ولو أن كلَّ شيء كان يمضي مثل الفيلم أمامه. منذ اللحظة التي مات فيها، ويمكنه أن يصف كيف توقَّفت حياته الأرضية عندما توقَّف قلبه عن النبض، ثمَّ توقَّف عقله، ثمَّ غرق في ظلامٍ فجائيٍّ لثوانٍ معدودات، أو خُيِّل له ذلك، ثمَّ عبر تلكَ اللحظات السرمدية المظلمة. ولكنه كان يحلِّق حول جثته، ويرى كيف إن ولده كان يلقِّن الشهادتين تلكَ الجثة التي لم تعد هو أو تخصُّه، يهمس في أذنيها اللتين لم تكونا سوى آذانٍ صماء ربما قُدَّتا من الوهم، ويرى كيف إن ابنته و«نصرة» وغيرهما من الأشخاص تبدو على وجوههم الراحة ممزوجةً بالألم على فقده. كان يحلِّق حول المكان لوقتٍ طويلٍ أو قصيرٍ أو عدمٍ لا يمكن قياسه بحسابات الموتى، قد يكون في سرعة البرق أو في بطء الحَزَن. كان الديك يمضي به شَمالًا مع مجرى النيل، فوق هامات النخيل، وأشجار السنط، ومراكب الصيد، والحيوانات التي تشرب على شاطئيه، والبشر المتسكِّعين، والبنايات على جنبيه، السحابات فوقه، ويستطيع أن يرى الأسماك تسبح، والريح تمر، والرمال تتحرك، يستطيع أن يرى ما كان محجوبًا عنه في حياته الأولى، ويسمع همس النخلة للنخلة، وحديث الماء للشط، ومقالة الطائر للوردة، ونحيب الوقت وضحكته، وكان يمضي كالريح، أو مثل حركة مكونات الصخرة، كان خفيفًا وثقيلًا وباردًا جدًّا ومشتعلًا كالجحيم.

عند مكانٍ يعرفه جيِّدًا في حياته السابقة، عند جزيرة «ناوا» وهي ما يُطلق عليها «جزيرة الروح» أو «واحة الروح»، ويعرف عنها حكاياتٍ كثيرةً وأساطير يشيب لها الولدان. هبط به الديك، انبثق في وسط الجزيرة جبل شامخ، وفي جانبٍ منه بوابةٌ بدت كما لو كانت بوابة قصرٍ عظيم، انفتحت البوابة مصدرةً صوتًا مثل هزيم الرعد، وعبرها دخلا، كان يمشي على رجليه، وهو عارٍ تمامًا، يتقدَّمه الديكُ، الذي يمشي في زهوٍ وخيلاء مثل طاووسٍ مغرور، كانت رياشه تلمع وتتلوَّن وتبدو بأشكال غريبة، وفي مرحلةٍ قادمةٍ انتصب الديكُ، وصاح صيحته تلكَ المُرعبة، التي يعرفها «فتح الله» تمامًا، وكانت تفجِّر مكامن الرعب فيه في حياته السابقة، الآن لا تعني له شيئًا، ولم تحرِّك فيه أية مشاعر، كانت كأن لم تكن. ربما لأن الموتى لا يخافون. ودار الديكُ مثل مروحةٍ عملاقةٍ من الريش، فتبعثرت رياشه في شكل عاصفةٍ ملوَّنةٍ لتغطِّي المكان كله، وتحجب الرؤية تمامًا، وبعد وقتٍ ما، تلاشى كلُّ شيء، وظهر الديك، وهو يتحوَّل تدريجيًّا إلى سيدةٍ جميلةٍ تلبس مثل المُلوك، إلى أن اكتملت هيئتها تمامًا، وتحوَّل المكان مع تحوُّلها التدريجيِّ إلى قاعةٍ ملكيةٍ عملاقةٍ شاسعة. في شكل دائرة، يجلس كلُّ ملوك الدولة النوبية على عروشهم. ملوكٌ وملكاتٌ لم يسمع بأكثرهم في حياته السابقة، ولكن الآن يعرفهم بالاسم والأعمال والخوازيق والهزائم والنصر والضعف والقوة. ويستطيع أن يهتف بأسمائهم وأسمائهن — إذا أُتيح له الكلام — ملكًا وملكًا وملكةً ملكةً دون أية أخطاءٍ في الشخصية أو النطق:

الملك أواوا،

الملك ألارا،

الملك كاشتا،

الملك بيَّا،

الملكة أماني ريداس،

الملك شـباكا،

الملك شـبتاكا،

الملك تهارقا،

الملك تانوت أماني،

الملك أتلانيرسـا،

الملك سـنكامنسـكن،

الملك أنلاماني،

الملك أسبالتا،

الملك يريكي أمانوتي،

الملك هارسـيوتف،

الملك نسـتاسـن،

الملك أركاماني-كو،

الملك أمانيسـلو،

الملك أرنخاماني،

الملكة شـناكداخيتي،

الملك تانيدأماني،

الملكة أماني ريناس،

الملكة أماني شـاخيتي،

الملك نتكاماني،

والملك شيراكارير،

والملكة نَسرة.

وتصير السيدة — التي كانت الديك — الملكة «أماني تاري»، التي عرف عنها في هذه اللحظة أنها الملكة التي أوقفت عادة عروس النيل، تجلس على عرشٍ ملكيٍّ وثيرٍ وسط الملوك المحاطين بالوصيفات والمساعدين والخدَّام، المشغولين بشئونهم وترتيب ملكهم. موقع عرشها قرب زوجها الملك «نتكاماني». أمام كلِّ ملكٍ عددٌ كبيرٌ من التماثيل الذهبية الكبيرة في شكل بشر، يسجدون أمام الملك. كان «فتح الله فراج» يرى نفسه عاريًا. وأشارت إليه الملكة «أماني تاري» أن يسجد، فسجد أمامها. لم ينظر «فتح الله فراج» إلى ما ورائه، وإلا لتعرَّف على التمثال الذي خلفه مباشرة، وربما عشرات التماثيل الساجدة أمام المُلوك، فلقد قابل كثيرًا منهم في رحلته في البحث عن الذهب والثراء، لقد كانوا إمَّا تجارا وإمَّا عُمالًا ممن وقَّعوا عقوًدا مع الديك بدخولهم لقبور النُّوبة، وكان خلفه مباشرة صديقه المرحوم «جبريل كيري». ركع «فتح الله فراج» في صمت أمام الملكة «أماني تاري» حيث إنه لم يستطع الكلام منذ أن مات، ولو أنه يحسُّ ويسمع ويشمُّ ويرى ويدرك ويستجيب ويسجد في خشوع.

أحسَّ بالخدر يسري في جسده وهو يسجد، ثمَّ أخذت أطرافه تتجمَّد تدريجيًّا، ومن ثمَّ تتحوَّل إلى جثةٍ لامعة، ثمَّ صار كُتلةً من الذهب الخالص، كان لسانه (الذي يتحرَّك في قلقٍ كأنما يريد أن يقول شيئًا أو يصرخ) هو آخر ما تجمَّد وصار قطعة ذهبٍ مستطيلةٍ لامعةٍ وباردةٍ في فمٍ بائس. عرف أخيرًا أنه أصبح ثروةً في مستقبل الكون الذين سيحكمه الملوك قريبًا جدًّا.

سِفْرُ الفُرْسَان

الفرسـان السـبعون مـن شـعوبٍ تحتفـي بالرجـل حـين يكـون نحيفًـا، ناشـفًا كالعـود، قويًّـا وشـجاعًا، ومحبًّـا للنسـاء، ومُقَـدِّرًا ومـدركًا لقوَّتهـن السـاحرة في تحريـك عظائـم الأحـداث في المجتمـع، والرجـل الـذي لا يخشى النسـاء ليـس باسـتطاعته أن يصنـع مجـدًا محترمًـا يخصُّـه، النسـاء هـنَّ الـلاتي يقفـن عنـد بوابـة المجـد، يُدخلـن مـن شـئن، ويحرمـن مـن شـئن، وليـس ذلـكَ بقوَّتهـن، ولكـن بكامـل ضعفهـن، إنهـن يسـتثمرن الضعـف لا أكـثر، ومـا المخاطـر التـي يسـير إليهـا الرجـال السُّـمر النحـاف ذوو القامـات الناشـفة السـبعون، إلَّا بإيحـاءٍ مـن النسـاء.

عندما عبر الفرسان السبعون «نهر العرب»، كان الليل قد قضى ثلثيه، والقمر يطلُّ بوجهه الأسمر بين فروع أوراق أشجار «المهوقني» العملاقة، كرغيفٍ ضخمٍ طازجٍ مأكول نصفه. كانوا جميعًا على ظهور الخيل، يمتشقون أسلحةً ناريةً خفيفة، وهي رشاشاتٌ آليةٌ من طراز «كلاشنكوف»، ما عدا «جبريل»، فكان يحمل بندقيةً يسمِّيها الأهالي «بَاندُقُل»، وهي نصفُ صناعةٍ محلية، وكان يُظَنُّ أنها الأفضل والأضمن، على الرغم من أنها لا تُشحن إلَّا بطلقةٍ واحدةٍ فقط ثمَّ يُعاد تعبئتها مرةً أخرى بعد كلِّ استعمال، ولكن طلقتها الواحدة هذه لا تخطئ الهدف مُطلقًا، وإنها تدمِّره تدميرًا تامًّا، بل يُمكنها قتل فيلٍ كبيرٍ إذا أصابته تحت إحدى أذنيه. عيبها الوحيد هو أن مدى الإصابة المؤثِّرة لديها لا يتعدَّى الأربعين مترًا، ورثها عن جده «العمدة أحمد» المنشئ الأول لقرية «أولاد أحمد»، وهو قد أعطى نفسه لقب العمودية دون تعيين أو تزكية من سُلطات الإنجليز أو النظارة الشعبية. اكتسبها بفرسانه وقوة شكيمته وبنادق البَاندُقُل الشرسة، لذلك انتهت عُموديته بموته، ولم يكن أحدٌ من أحفاده بالجرأة والقوة الكافية التي تمكِّنه من الاستمرار في تلكَ العمودية المُدَّعاة. كان فارسًا مشهورًا في كلِّ أنحاء «جنوب كردفان»، بل إن النساء غنين لفروسيته وشجاعته فيما وراء «بابنوسة» و«جنوب دارفور»، وقد تردَّد اسمه في أغنيات التُّمْتُم بمدينة «كوستي» في أوائل القرن العشرين.

كان الفرسان ينشِدون مرعى أبقار قبيلة «الدينكا»، هم لا يحبِّذون أية معركةٍ ولا يرغبون في الحرب أو الدخول في مواجهةٍ مع مسلحين، لأنهم يريدون أن يعودوا في ذات عددهم، لأن كلَّ معركة بها خسائر بشرية، حتى تلكَ التي ينتصرون فيها، إنهم لا يرغبون في أن يعودوا ليقيموا مأتمًا أو مآتمَ، ولا يدري كلُّ واحد فيهم هل سيكون ذلكَ مأتمه هو أمْ مأتم غيره؟ كانوا يتصرَّفون كلصوصٍ جُبناء، أكثر من

كونهـم فرسـانًا مقاتلين، ومـا دفعهـم لغزوتهـم هـذه سـوى الفقـر الشـديد الـذي أعقـب نفـوق أبقارهـم وانقطـاع سُـبُل العـودة عـلى تلـكَ التـي عـلى قيـد الحيـاة منهـا إلى «جنـوب كردفـان» في رحلـة الصيـف جنوبـًا، إثـر المعـارك الدائـرة هنالـكَ بـين قـوات الحركـة الشـعبية والحكومـة المركزيـة، وفقدانهـم الأمـل تمامًـا في اسـتردادها، فمـن أجـل حـقِّ الحيـاة وحـده سـيُغِيرون عـلى جيرانهـم ويأخـذون بعضًـا مـن ماشـيتهم، سيسـتخدمون ألبانهـا ولحومهـا وجلودهـا وعظامهـا، وثمـن مـا يُؤخـذ إلى سُـوق «المُجْلَـد» منهـا، في مقاومـة المـوت والجـوع، إنهـا سُـلفة غـير مُسـتردة، ودونهـا المُهـج.

الفرسـان السـبعون مـن شـعوبٍ تحتفـي بالرجـل حـين يكـون نحيفًـا، ناشـفًا كالعـود، قويـًا وشـجاعًا، ومحبـًا للنسـاء، ومُقَـدِّرًا ومـدركًا لقوَّتهـن السـاحرة في تحريـك عظائـم الأحـداث في المجتمـع، والرجـل الـذي لا يخشى النسـاء ليـس باسـتطاعته أن يصنـع مجـدًا محترمًـا يخصُّـه، النسـاء هـنَّ الـلاتي يقفـن عنـد بوابـة المجـد، يُدخلـن مـن شـئن، ويحرمـن مـن شـئن، وليـس ذلـكَ بقوَّتهـن ولكـن بكامـل ضعفهـن، إنهـن يسـتثمرن الضعـف لا أكـثر، ومـا المخاطـر التـي يسـير إليهـا الرجـال السُّـمر النحـاف ذوو القامـات الناشـفة السـبعون، إلَّا بإيحـاءٍ مـن النسـاء.

فأغنيـةٌ غنَّتهـا الحَكَّامَـةُ «سـعدية بـت أبشـوك»، قالـت فيهـا ضمـن مـا قالـت، بلغـةٍ عربيـةٍ محليـةٍ تعنـي أن «الرجـال في القريـة أصبحـوا بدنـاء» وأنهـا «سـتخضِّب أرجلهـم بالحنـاء الجيـدة.» يفهـم الجميـع مـا لم تقلـه في الأغنيـة ولا تقصِـد غـيره: إن الرجـال لم يذهبـوا في طلـب أبقارهـم المُسـتبية، وتلـكَ التـي تقطَّعـت بهـا السُّـبُل في «جنـوب كردفـان»، وإنهـم أيضًـا لم يسـتعيضوا عنهـا بأبقـار جيرانهـم «الدينـكا»؛ الأبقـار ذوات القـرون الطويلـة، التـي يحرسـها فتيـان القبيلـة الشـجعان بحرابهـم السـامَّة وفؤوسـهم الحـادة، وتركـوا أطفالهـم ونسـاءهم ضحايـا الجـوع والفاقـة.

غنَّتهـا في زواج ابنتهـا «أمُّونَة»، بإيقاعٍ محليٍّ لذيذٍ يسـمونه «الشاشـاي»،

وكاد أن يرقص عليه الفتيان ويَحُكُّوا بكلماته حناجرهم وكأنهم ثيران هائجة، لكنهم عندما أدركوا معانيه القاسية المُرَّة، تلكَ المعاني الدامية، كفُّوا عن الرقص، عضُّوا أصابعهم غضبًا، وفي الصباح ركبوا الأفراس واتجهوا نحو «نهر العرب»، ليصنعوا أمجادهم ويحتفظوا بسيرةٍ عطرة. هذا هو الخيار السهل والأهداف التي يعرفون كيف يتعاملون معها مُنذ قرنٍ مضى، وكان بإمكانهم أن يتجهوا شمالًا حيث عطبت الطرق بأبقارهم بين جيش الحكومة المركزية وجنود وميليشيات النُّوبة والبَقَّارَة بقيادة رجالات الحركة الشعبية. وتلكَ كانت سبيلًا يعشعش الموت في عرصاتها. وهم على كلِّ حالٍ مدنيون، والصراع الذي بينهم وبين القبائل المجاورة هو صراعٌ مدنيٌّ بحتٌ من أجل الحياة والسلام، ولو أنه في كثيرٍ من الأحيان يكون صراعًا مسلحًا ودمويًّا. وليسوا دعاة حربٍ وليسوا محترفي قتال، ولا خبرة عسكرية لهم أو حاجة في خوض حربٍ خاسرةٍ مع أحد الجيشين، بينما هم يَشُكُّون في أن أبقارهم ما زالت حيةً إلى تلكَ اللحظة، فالجيوش المحاربة مغرمةٌ بأكل اللحوم، وخاصَّةً تلكَ السائبة مثل أبقارهم التائهة الحزينة.

كانت الأبقار ما زالت في زرائبها الكبيرة «اللواك»، وحولها العشب مشتعلًا ويصدر دخانًا كثيفًا، ليطرد الذباب المضرَّ بصحتها والمؤذي أيضًا للرعاة. كان الرعاةُ عراةً تمامًا، تلتفُّ حول خصورهم النحيفة تمائم من الخرز الملون، وعلى معاصمهم حِلَقٌ من النحاس الأصفر، ولدى بعضهم مصنوعة من شعر ذيل الزرافى. كانت أجسادهم النحيلة الطويلة المصقولة الرشيقة مغطاةً بطبقةٍ من الرماد، وهو كساءٌ يقيهم لسعات الحشرات الصغيرة وذباب البقر اللئيم، وجوههم لا يظهر منها سوى العيون والأفواه وفتحات الأنوف الكبيرة، فهي مخفيةٌ أيضًا تحت قناع الرماد السميك، يمتشقون حرابًا مطلية صفائحها بسمِّ الثعبان، ولديهم رشاشٌ آليٌّ واحدٌ ماركة «كلاشنكوف»، ولكن ليس به

مـن الذخـيرة سـوى طلقتـين، ينتظـرون لحـين مـرور مليشـيات الجيـش الشـعبيِّ بأراضيهـم، وقـد يتكرَّمـون عليهـم ببعـض الذخـيرة مقابـل عجـلٍ أو بعـض اللـبن الطـازج، وأحيانـًا دون مقابـل، إذا وجـدوا مـن لهـم بـه صلة قرابـة، أو كان مـن قريتهـم، أو تربطهـم بـه صلـة نسـبٍ ولـو بعيـد.

قضـوا ليلـة البارحـة سـاهرين في صراعٍ مريـرٍ مـع أسـد الأبقـار الأحمـر الـذي كان يـصرُّ عـلى أن ينـال وجبـة عشـائه مـن موائدهـم بالـذات. كان جائعًـا. ليـس مـن عادتهـم إطـلاق الرصـاص عـلى الحيوانـات المفترسـة، إنهـم يتشـاءمون مـن ذلـك، لـذا اسـتخدموا الذخـيرة في تخويفـه وإبعـاده عـن مواقـع حيواناتهـم، ولكـن الحيـوان المفـترس لم يرتعـب لذلـك، فقـد كان يخـشى الحربـة أكـثر؛ لـذا دخـل الشـبان معـه في معركـةٍ صغـيرةٍ أصابـت أسـد الأبقـار بجـراحٍ بالغـةٍ جعلتـه يرغـب عـن أبقارهـم ويبحـث عـن موائـدَ أسـهل منـالًا.

لم تكـن المنـازل بعيـدةً عـن «اللـواك»، ففـي الصيـف دائمًـا مـا تكـون الأبقـار قريبـةً مـن المنـازل التـي هـي قريبـةٌ مـن مصـادر الميـاه، أمَّـا في الخريـف فيهربـون بهـا إلى المناطـق العاليـة الأكـثر جفافًـا، تجنبًـا للحـشرات الطائـرة والزاحفـة، حيـث تتكاثـر في العُشـب ومسـتنقعات الميـاه الراكـدة.

الرعـاة هـم خمسـة مـن الشـبان، تقريبًـا جميعهـم في عمـر واحـد، الوشـم الـذي عـلى معاصمهـم يـدلُّ عـلى أنهـم في هـذا الصيـف يبلغـون العشريـن، وهـم أيضًـا مـن أسرةٍ واحـدةٍ كبـيرةٍ ثريـة، وأبٍ واحـدٍ ولكـن أمهـاتٍ مختلفـاتٍ ينتمـين لأسرٍ كبـيرةٍ أخـرى، لا تربطهـا صلـة قرابـةٍ مباشرةٍ مـع الأب. عندمـا نبحـت كلابهـم الشرسـة، حيـث يشـاع أن أمهاتهـا مـن الذئـاب، عـرف الشـبان أن هنالـكَ أمـرًا جلـلًا في طريقـه إليهـم، وبحسِّـهم البـدويِّ وأجهـزة إنذارهـم المبكـر التـي وهبتهـم إيَّاهـا الطبيعـة، أرسـلوا أحدهـم ليبلـغ القريـة القريبـة بـأن هنالـكَ خطـرًا في الطريـق إليهـم، وليدعموهـم بالرجـال، واسـتعدَّ البقيـة للـذود عـن المـال. وعندمـا اشـتدَّ

نُبـاح الـكلاب، صعـد الشـبان عـلى هامـات الأشـجار يسـتطلعون الأمـر، واسـتطاع كلٌّ واحـدٍ منهـم أن يـرى الفرسـان السـبعين يمتطـون خيولهـم ويحملـون بنادقهـم في هيئـة اسـتعدادٍ تـامٍّ لإطـلاق الرصـاص، فـما كان منهـم إلا أن أطلقـوا سـوقهم الخفيفـة للريـح في اتجـاه القريـة، تاركـين الأبقـار تحيـط بهـا الـكلاب. كانـوا موقنـين بـأن العـرب لا يـتردَّدون في إطـلاق النـار عليهـم وإردائهـم قتـلى، فعلوا ذلـكَ مـرارًا وتكـرارًا، والذكريات المؤلمـة أشجارٌ تنمـو وتُـورق مـع الزمـن، وهـي كالأبقـار تتوارثهـا الأجيـال القادمـة، وهـي كالأغنيـات مهـما أوغلـت في القـدم لا بـدَّ أن يـأتي مـن يردِّدهـا ويعيدهـا لمجدهـا، والذيـن يُقْتَلـون يبقـون للأبـد في جُـرح القبيلـة والمـكان جبالًا شـامخةً مـن الذكـرى المُدمـاة بشـهية ثـاراتٍ كامنـةٍ في طـيِّ الوقـت الـذي قـد يحـين.

كانـت الـكلاب الشرسـة شرسـةً جـدًّا، تنبـح مذعـورة، أمَّـا الأبقـار التـي أحسَّـت بالخطـر الـذي يحيـق بهـا، وفوجئـت بأفـواج الغربـاء عـلى الأفـراس، وهـي أيضًـا مخلوقـات أخـرى غريبـةٌ عليهـا، ففزعـت وتبعـثرت في المـكان، كـما هـرول غالبيتهـا نحـو القريـة.

مـا نسـميه بالقريـة هـو مبـانٍ صغـيرةٌ منتـشرةٌ في مسـاحة واسـعة مبنيـة مـن التربـة الحمـراء الطينيـة الصمغيـة المتماسـكة، البامبـو السـميك والرفيـع، الأعشـاب الموسـمية، وبعـض أخشـاب المهوقنـي والتـكِّ القويـة. الغـرف ذات سـقوف مخروطيـة لتسـهِّل سـقوط الميـاه عن السـقوف. ولكن في وسـط القريـة توجـد مدرسـةٌ صغـيرةٌ مبنيـةٌ من الزنـك والطـوب الأحمر، غارقـةٌ وسـط أشـجار المانجـو العملاقـة، وتوجـد كنيسـةٌ صغـيرةٌ مبنيـةٌ مـن البامبـو والخشـب، مُلحـق بهـا وحـدة صحيـة صغـيرة، وحجرتـان صغيرتـان منعزلتـان أمامهـما مسـاحة صغـيرة نظيفـة، كُتـب في بـاب كلٍّ منهـا حرفـان إنجليزيـان (WC) وهـما مـا يجـب أن يكونـا مرحاضـين عامَّـين. في حقيقـة الأمـر لا يسـتخدمهما سـوى الـزوار الغربـاء عـن القريـة، القادمـين مـن

العاصمـة، أو الأجانـب الذيـن قـد يحـضرون مـن وقـتٍ لآخـر مـن أجـل الكنيسـة أو البحـوث الطبيـة السريعـة. سـكان القريـة يفضِّلـون التـداوي المحـلي عـلى الذهـاب للوحـدة الصحِّيَّـة، ويتـبرَّزون في الهـواء الطلـق. عـلى كلٍّ، الوحـدةُ الصحِّيَّـةُ الصغـيرةُ النظيفـةُ مغلقـةٌ منـذ أكـثر مـن عـام، بعـد أن غادرهـا الممـرِّض (وهـو الـكادر الطبـي الوحيـد) إلى «جوبـا» لدراسـة شيءٍ مـن الطـبِّ ونيـل شـهادة التمريـض العُليـا. يسـتغلُّ الشرطـيُّ الوحيـد بالقريـة وهـو «العـمُّ ماجـوك» المـكان كلَّـه كنقطـة شرطـة، ولم يعـترض النـاس طالمـا كان يحـرس منقـولات الكنيسـة القليلـة ومحتويـات الوحـدة الصحِّيَّـة، وهـو أيضًـا ماهـرٌ في النفـخ عـلى قـرن الغـزال لتنبيـه النـاس إلى المخاطـر التـي قـد ينتبـه إليهـا صدفـةً أو ينبهـه إليهـا أحـد سـكان القريـة، أو تلـكَ التـي تصلـه محمولـةً عـلى جُنـح الريـح مـن قـرًى أخـرى.

هـو يقـضي معظـم وقتـه في شـفط الدخـان مـن غليونـه البلـديِّ الكبـير المصنـوع مـن البامبـو وخشـب التـكِّ، المحشـوِّ بالتمبـاك الجـاف، ونفخـه في الهـواء وتكـرار العمليـة في متعـةٍ جيـدة، إلى أن يحـسَّ بالخـدر يـسري في أوصالـه فيحتـسي كأسًـا كبـيرةً مـن المريسـة وينـام.

الصـوت الـذي سـمعه الفرسـان السـبعون، يميِّزونـه جيِّـدًا، هـو صفـير قـرن الغـزال الـذي أطلقـه «العـمُّ ماجـوك»، ويعلمـون أنـه ليـس سـوى رسـالةٍ عاجلـةٍ حالمـا يكرِّرهـا صافـر القريـة المجـاورة، ليُسـمع قريـة أخـرى تنـام في الدغـل، وهكـذا تـصرخ الصافـرات، وفي أقـلَّ مـن دقيقـة يعـرف سـكان القـرى المجـاورة أن بعـض الفرسـان العـرب قد عـبروا النهـر إلى قريـة «تومـي» يرومـون أبقارهـا، وهـم مسـلحون كعادتهـم، و«الرجـاء النجـدة».

كانـوا يعملـون بسرعـةٍ وبراعـة، بخـبرةٍ طويلـةٍ في التعامـل مـع أبقـار «الدينـكا» وأصحابهـا، اسـتطاعوا أن يسـيطروا عـلى عشريـن مـن عجـول البقـر التـي كانـت محجـوزةً في سـورٍ مـن فـروع الأشـجار، أمَّـا الأمهـات جميعًـا والثـيران الكبـيرة فقـد هربـت تتبعهـا الـكلاب الشرسـة.

لـن يعـودوا مـن الطريـق التـي سـلكوها نحـو المـكان، قـد ينتظرهـم شـبان «الدينـكا» هنالـك، ولكنهـم سـيعبرون الدغـل الشـائك إلى «نهـر العـرب»، هـي طريـق وعـرة ولكنهـم يعرفـون شـعابها جيِّـدًا. مضـوا جنوبًـا قليـلًا، ثـمَّ اتجهـوا نحـو الغـرب وهـم يحيطـون بالعجـول المذعـورة التـي تخـور خائفـةً أو مندهشـةً، وبعضهـا تـمَّ ربطـه جيِّـدًا وقيادتـه خلـف الأفـراس، يسـمعون بـين وقـتٍ وآخـر صفـير قـرن الغـزال، يقـترب حينًـا ويبتعـد حينًـا آخـر.

لم يكـن مـن السـهل السـير بالسرعـة المطلوبـة للهـرب بالحيوانـات وهـي نزقـة ومعاكسـة وتتعـثر عـلى العشـب والأشـجار الكثيفـة، ولكـن إصرار الفرسـان كان كبـيرًا، وأملهـم في الهـرب وهــي في صحبتهـم أكـبر.

للجميـع خـبرات طاعنـات في الزمـان والمـكان، ولكـن القيـادة كانـت للشـيخ «أدومـة»، وهـو أكبرهـم سـنًّا، ولا نسـتطيع أن نقـول أكثرهـم خـبرة بالمـكان والنـاس وخطـف الأبقـار، ولكنهـم كانـوا يرجِّحـون رأيـه، لـذا عندما طلـب منهـم أن يتركـوا العجـول ويجِـدُّوا في الهَـرب للنجـاة بأنفسـهم، فعلـوا دون تـردُّد، ولكـن يبـدو أن الوقـت قـد فـات عـلى ذلـك، لأنهـم الآن سـمعوا صـوت الرصـاص يـأتي مـن عمـق الدغـل، يتخلَّـل العشـب وأوراق الأشـجار، وأيقـن الجميـع أنهـم لا محالـة سـيواجهون معركـة عنيفـة طالما تجنَّبوهـا ولم يرغبـوا فيهـا أصـلًا: فـلا أحـد يحـبُّ المـوت، فالحيـاة أجمـل.

هربـوا في اتجـاه النهـر مبـاشرة؛ أيْ جنـوبَ غـرب. في فصـل الصيـف غالبًـا مـا يصبـح النهـر في معظـم حوضـه ضحـلًا، ويمكـن عبـوره بالأرجـل، ولكـن المسـتنقعات التـي أصبحـت طينًـا لزجًـا في هـذه الأيـام مـن السـنة تعُـوق المـشي، وعليهـم أن يتجنَّبـوا مواقعهـا. ويعـرف الجميـع أن فتيـان «الدينـكا» سـوف ينتظرونهـم في المعـبر الجـافِّ الـذي يقـع بعـد غابـةٍ صغـيرةٍ يسـمونها «غابـة الشـيطان»، وهـو المعـبر الأقـرب لقريـة «أولاد أحمـد»، لذلـك سـوف يعـبرون شرقًـا عـلى مسـتنقع صغـير، إذا كانـوا

محظوظين فسيجدونه جافًّا بعض الشيء، أو جافًّا جدًّا، ولا تستطيع ثعابين الأصلة العملاقة الاعتداء عليهم وهم في جماعة مسلحة، بالأحرى ستتجنَّب الاحتكاك بهم.

نزلوا النهر، وعند المستنقع تفاجأ بهم أطفال يصطادون الأسماك بالحراب، كانوا مثل رهط من الغزلان السوداء، هربوا في كلِّ اتجاه، وهم يصيحون في رعب. كانت هذه فرصةً جديدةً وجيِّدةً للفرسان لأن يحصلوا على بعض الصبية، حيث يستخدمونهم في الرعي والزراعة، وقد يقايضون بهم أقرباء لهم قد يسبيهم «الدينكا» في يومٍ ما، فالحال بينهم كرٌّ وفرٌّ، ويومٌ عليهم وآخرُ لهم، وتحدِّد ذلكَ ظروفٌ كثيرةٌ لا يد لهم فيها. ولم يكن ذلكَ بالأمر اليسير، حيث كان الأطفال يجرون في المستنقع خفافًا وكأنهم الريح، يقفزون فوق أعشابه الطرية الندية الغزيرة، ثمَّ اختفوا نهائيًّا عن الأنظار، وكأنهم لم يكونوا هنالكَ في الأصل، مثل طيفٍ بخيالِ مجنون. كان الطفل، والذي سيسمُّونه في المستقبل «غزال»، يرقد وسط العشب، وقد حفر لنفسه خندقًا صغيرًا بأصابعه، لولا الصدفة البحتة لما عثر عليه «جبريل»، الذي كاد أن يدهسَه بحافرة حصانه عندما رأى شيئًا أسودَ يتحرَّك تحته، ولكن الفرس هو الذي توقف عن المسير، رفع أذنيه لأعلى وأطلق صهيلًا مرعبًا. كانت رِجل الطفل تنزف دمًا، وهو يتأوَّه ويغطِّي الجُرح بكفِّه من الذباب، لم يقاوم كثيرًا. كلُّ ما فعله: زحف مرتين أو ثلاثًا بعيدًا عن كفَّتي «جبريل» اللتين تحاولان أن تمسكا به. كان في شبه إغماء، ربط «جبريل» الساق بمنديله، ووضعه خلفه على الفرس بعد أن ربط يدي الطفل جيِّدًا في السرج الخشبي. قدَّروا عمر الطفل بثلاثة عشر عامًا، نسبةً للوشم الذي في ذراعه وبطنه، وعرفوا أيضًا نوع الجُرح: «عضة أبندربان».

سِفْرُ الدِّيك

«جبريـل» يختـار ماشـيته وحـده، ويربِّيهـا في بيتـه تحـت رعايتـه الخاصَّـة، ويذبحهـا موجِّهًـا إيَّاهـا إلى القبلـة وهـو يهتـف: «بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم»، ثـمَّ يخاطـب الحيـوان قبـل أن يضـع السـكينة في نحـره: «اعفـي عنـي يـا أخـي، دي (هـذه) سُـنة الحيـاة، كلنـا لهـا.» ثـمَّ يتلـو مـا لا يـدري ماهيتـه أو مـن أيـن حفظـه ولا ممَّـن سـمعه: «الذابـحُ مذبـوحٌ، والآكلُ مأكـولٌ، وكلُّنـا مـن الـتراب وإلى الـتراب. يـومٌ ليـك ويـومٌ عليـك. لطفـكَ يـا ربي. اللـه أكـبر، اللـه أكـبر، اللـه أكـبر.»

لم يفكِّر «فتح الله فراج» كثيرًا في الأمر، لأن الموضوع لا يحتاج لتفكير، أقصد أن البدائل المتاحة أمامه محدودة جدًّا. في الواقع لا تُوجد بدائل، كما يوحي جمع كلمة «بديل»، بل إنه خيار واحد فقط، أن يستلف ديك صديقه المرحوم «جبريل كيري»؛ الديك الذي انضم للأسرة من تلقاء نفسه في يوم وفاة «جبريل»، لا أحد يعلم من أين أتى، واعتُبر هبةً من السماء أو رزقًا ساقه الله لهم، وكانوا يدعونه في الأيام الأولى: «ديك السماء». وكان «فتح الله فراج» على يقين بأن أرملة صديقه لن ترفض ذلك، في الحقيقة إن العلاقة التي تربطه بأسرة «جبريل» المرحوم أكبر من كلِّ شيء، لقد كان المرحوم صديق عمره ورفيق دربه، منذ أن تقابلا في هذا المكان قبل أكثر من عشرين عامًا، إلى لحظة انتقاله إلى الرفيق الأعلى بتلك الطريقة الفجائية الحزينة، بعد عودتهما من تنقيب الذهب العشوائيِّ بالصحراء. كما أن «فتح الله» لا يرغب في أن يُبقِيَ الديك لفترةٍ طويلةٍ في بيته، ربما يكفيه أقلُّ من أسبوع، فبإمكانه أن يتدبَّر شراء ديك بديل عن ديكه الذي ينفق الآن، عندما يبيع إنتاجه من البيض في الأسبوع القادم.

لكي لا يضيع الوقت كثيرًا، قام بذبح الديك المُحتضر، وطلب من ابنته الصغيرة أن تقوم بتنظيفه وإعداده لوجبة الغداء. لقد كان ديكهم ضحية هجوم ديكٍ غريبٍ شرس، أوسع ديكَهم عضًّا وركلًا إلى أن بلغ به الحال ما بلغ، وعندما انتبه لذلك هو وابنته، كان الديك المعتدي قد أنجز مهمَّته وقفز عبر الحائط وفرَّ بجلده.

تعرف البنت التي تكاد أن تطير من الفرح أن اليوم سيشهد رفاهيةً إجبارية، فكم مرة يتدخَّل القدر في مدِّهم بطعامٍ فاخر، بدلًا من العدس الذي ملَّت أكله، فقبل أسبوعٍ واحدٍ فقط شهدت قدور المنزل طبخ دجاجةٍ سمينةٍ بالصلصة، كانت قد أصيبت خطأً بحجرٍ قذفه طفلٌ من الطريق العام خلف حَدأة مراوغة، ولكن القدر

الرحيم جعله يقفز فوق حائط بيتهم القصير ويسقط على رأس الدجاجة التي كانت تسرح وتمرح في الحَوْش خارج القفص، ولحسن الحظِّ كان «فتح الله» بالمنزل وسارع بتحليلها؛ أيْ ذبحها قبل أن تنفق وتصبح محرمةً ولا يجوز أكلها، وهو وأسرته مسلمون ملتزمون بتعاليم الدين، فلا يأكلون الميتة؛ فهي في حكم الخنزير.

لم تحزن «ميرم» من أجل الديك الذي كان يملأ البيت صياحًا وهو يضع البيض في أرحام الدجاجات البلديات الخجولات؛ البيضُ الرحيم مصدر رزق الأسرة الوحيد، ولم تحسَّ بأنها ستفتقد أرياشه الذهبية الجميلة اللامعة، ولا معاكساته للدجاجات، حيث إنها كانت تمثِّل لديها نوعًا من المتعة واللهو، ولم تهتمَّ أيضًا قيد شعرةٍ بأحاسيس أخيها الصغير «فراج فتح الله»، الذي ذهب في زيارةٍ قصيرةٍ إلى بيت جدَّته ولم يعلم بنفوق الديك صديقه الحميم، وتعلم أنه سيبكي كثيرًا جدًّا، ولو أنه سوف يستمتع كغيره من أفراد الأسرة بالوجبة الدسمة، ويمتصُّ عظام الديك المسكين المطهيَّة بالصلصة والبهار، في متعةٍ بالغةٍ كأنه لم يسمع به مُطلقًا. كان همُّها كلُّه ينصبُّ في الغداء.

لم يستشر «فتح الله» زوجته «نصرة» في أمر استلاف ديكٍ من أسرة صديقه المرحوم «جبريل» لحين يفرجها الله له في شراء ديكٍ لدجاجاته المترمِّلات الحزينات، لأنه يعلم أنها لن تمانع، بل إذا تركها تتصرف بسجيَّتها لحل إشكالية الديك، فإنها ستتصرف كتصرُّفه بالتمام والكمال، كما إنها غير موجودة حاليًّا بالمنزل، فهي في منزل أخيها الكبير، الذي يحمل رتبةً عسكريةً فارهة، هي تساعد زوجته في عمل المنزل. على الرغم من أنهما لم ينجبا أطفالًا، إلا إن الزوجة لا تستطيع القيام بواجب نظافة البيت الكبير وحدها وخدمة الضيوف الكثيرين، وهي تحمل أردافًا ثقيلةً وأحشاءً كأحشاء بقرة. وقد فكرتْ زوجة أخيها في استئجار عاملةٍ من فقراء الأرض لخدمتها، ولو أن في

ذلـكَ مخاطـرةً كبـيرة، فهـي خائفـةٌ عـلى منقولاتهـا النفيسـة مـن السرقـة مـن جانـب، ومـن جانـبٍ آخـر كان خوفهـا عـلى زوجهـا المسـكين مـن أن يُخْطَـفَ أو يُغْـوَى، ولـو أن الاحتـمال الأخـير ضعيـف، لعلَّـة تعرفهـا، إلا إن الحيطـة واجبـة، فزوجهـا يتبـوأ وظيفـةً كبـيرةً ولديـه مـالٌ يُحسـد عليـه، وعلاقتـه بالسـيد الرئيـس هـي ثـروةٌ لا تقـدَّر بثمـن، وهـذا كلُّـه يحبِّـب فيـه البُنيَّـات الصغـيرات الطائشـات، والكبـيرات أيضًـا. لذلـك كلِّـه، اقـترح عليهـا سـيادته أن يدعـو أختـه الفقـيرة ذات الأطفـال والـزوج المعـوز بائـع البيـض، لتسـاعدها مقابـل أجـرٍ غـير مسـمًّى ومسـاعداتٍ تقـدَّم إليهـا شـهريًّا وفي مناسـبات، فتشـاور مـع أختـه «نـصرة» في الأمـر، وقبلـت. طالمـا كانـت «نـصرة» باقيـة في بيتهـا دون عمـل أو وظيفـة تـدرُّ دخـلًا، بينـما هـي في حاجـة لعمـلٍ مـا يسـاعد الأسرة في الكسـب وتخفيـف ضغوطـات الحيـاة، ودعـم زوجهـا المكافـح في مقارعـة خطـوب المعيشـة، ولكنهـا رغـم ذلـك، رفضـت أن تعمـل ذلـكَ بأجـرٍ مسـمًّى، بـل رفضـت الأجـر رفضًـا باتًّـا، لفكرتهـا عـن عـدم أخلاقيـة العمـل في بيـت أخيهـا مقابـل أجـر.

«أنـا أسـاعدك، أنـت أخـوي وهـي زوجتـك، وأنـا مـا عنـدي عمـل في المنـزل كتـير، وربنـا يخـلي البنـت تقـوم بـكلِّ شيء.» وأضافـت لنفسـها بأنفـة: «أنـا مـا خدَّامـة عشـان أشـيل قـروش.»

في منـزل «فتـح اللـه فـراج» أيضًـا، البنـت الصغـيرة المُراهقـة واسـمها «مـيرم فتـح اللـه»، وهـي البنـت الوحيـدة بـالأسرة، ويصغرهـا الطفـل «فـراج فتـح اللـه» بسـنواتٍ كثـيرة، أخوهـا الأكـبر يُسـمَّى «الـسر فتـح اللـه فـراج» يعمـل جنديًّـا بالقـوات المسـلحة، ثـمَّ تـمَّ اسـتيعابه في صفـوف الأمـن العـام بتدخُّـلٍ كريـمٍ مـن خالـه المقـرَّب جـدًّا مـن الرئاسـة، وهـو لا يقيـم بالمنـزل، بـل يعمـل خـارج «الخرطـوم» متنقـلًا مـن مدينـة لأخـرى في شـكلٍ مـدنيٍّ، يعمـل في تجـارة خاصَّـة، أو مهنـة عامَّـة، تتغـير المهنـة بشـكلٍ دوري، فمـرةً يعمـل خضريًّـا، وأحيانًـا سـائقًا في المواصلات العامَّـة،

ومـرةً طالبًـا جامعيًّـا، ووظائـف أخـرى كثـيرة، وفقًـا للمدينـة التـي يعمـل بهـا والمعلومـة المـراد تصيُّدهـا ومواقـع الخونـة المطلـوب تتبعهـم. عمله أن يختلـط بالنـاس، ويكتـب عنهـم التقاريـر، قـد يحـضر فجـأة في أيِّ زمـان محمَّـلًا بالفاكهـة والهدايـا وبعـض المـال القليـل يسـلِّمه لأمِّـه. وقـد اكتفـى «الـسر» بالمرحلـة الثانويـة ونـال الشـهادة السـودانية، ثـمَّ انخـرط في العمـل لمسـاعدة والديـه وإخوتـه الصغـار في المعيشـة.

أهـمُّ مـا في المنـزل هـو قفـص الدجـاج، حيـث إنـه المصـدر الرئيـس لـلأرزاق في الأسرة، «بعـد الحمـد والشـكر للـه»، كـما تقـول «نـصرة» ربَّـة الأسرة. يقبـع في الركـن الشـماليِّ الشرقـيِّ مـن الحَـوْش الكبـير المسوَّر بحائطٍ قصـيرٍ مـن الطـين اللـبن. القفـص مصنـوعٌ مـن السـلك النمـليِّ المُسـمَّى بـ«عـين القـط»، وهـو شـبكةٌ معدنيـةٌ رخيصـةٌ ومتينـة، يسَـعُ أربعـين دجاجـةً بلديـةً وديـكًا واحـدًا، وينتـج في اليـوم مـا بـين 30 إلى 25 بيضـة. عندمـا يُبـاع البيـضُ، تتمكـن الأسرة مـن توفـير رزقهـا اليومـي، ومصروفـات المدرسـة للتـوأم، حيـث إن «مـيرم» قـد تركـت المدرسـة منـذ عامـين لعـدم مقـدرة الأسرة عـلى الـصرف المـدرسيِّ — مـن كتـبٍ ومعـداتٍ أخـرى — زائـدًا عـلى مـصروف المواصـلات وفطورهـا خـارج المنـزل، وهـذه الأشـياء الصغـيرة تمثـل مبلغًـا كبـيرًا لا طاقـة للدجاجـات بتوفـيره. كلُّ أمـل أمِّهـا وأبيهـا أن تجـد «مـيرم» زوجًـا مناسـبًا يقـوم برعايتهـا، فهـما يعرفـان أن ابنتهـما جميلـة، ليسـت شـديدة الجـمال ولكـن بهـا مـا يكفـي لجـذب زوجٍ ميسـور الحـال، وقـد يكـون متعلِّـمًا، واحتـمالٌ كبـيرٌ أن يكـون هـو «أحمـد زكي» ابـن خالتهـا الـذي يعمـل في منظمـة دوليـة. قـد لاحـظ الأبـوان أن في نظرتـه لابنتهـما المراهقـة، نوعًـا مـن الهُيـام الـذي لا تخطئـة عـين، وأن «مـيرم» تصبـح مثـل دجاجـةٍ مبتلـةٍ بمـاءٍ بـارد، عندمـا تـراه يتبختـر بـ«منطلـون الجينـز» في حَـوْش بيتهـم، وبـين أصابعـه الطويلـة الناعمـة سـيجارة ماركـة «برنجـي» تطلـق خيطًـا رقيقًـا مـن الدخـان في فنـاء المنـزل،

فهـو يحافـظ عـلى زيارتهـم مـرةً في كلِّ أسـبوع، يكبُرهـا بعشريـن عامًـا، »ولكـن البنـت مثـل نبـات العُـشَرْ«؛ تنمـو سريعًـا وتنضـج أسرع.

في باطـن الحَـوْش حجرتـان صغيرتـان مـن الطـين، ومظلـة كبـيرة مـن القـشِّ تتوسَّـط الحجرتـين. قـام بصنـع الطـوب والبنـاء، أفـرادُ الأسرة جميعُهـم بمـن فيهـم البنتـان التـوأم، مثلهـم مثـل بقيـة أهـل الحـيِّ الفقـير الـذي يسـكنون فيـه. يقـع الحـيُّ أقـصى جنـوب مدينـة «الخرطـوم»، بالقـرب مـن المـصرف الصحِّـيِّ المفتـوح، يُطلقـون عليـه اسـمًا شـائكًا وهـو «زقلونـا»، وهـي كلمـة عاميـة تعنـي فيـما تعنـي: رُمـيَ بنـا بعيـدًا في إهـمالٍ تـام، وتـمَّ نسـياننا بعـد ذلـكَ للأبـد، ونحـن نحتـجُّ عـلى تلـكَ المعاملـة في صمـت، وقـد نثـور في يـومٍ مـا.

كان الديـك الـذي تـمَّ ذبحـه قبـل قليـل، هـو الديـك الوحيـد بقفـص الدجاجـات، و«فتـح اللـه فـراج» دائمًـا مـا لا يحتفـظ بغـير ديـكٍ واحـدٍ فقـط لتلقيـح الدجاجـات، فوجـود أكـثر مـن ديـك في قفـصٍ واحـدٍ صغـيرٍ مثـل الـذي يمتلكونـه، قـد يقلِّـل مـن عـدد البيـض، حيـث إن الديـوك سـيتفرَّغون للشـجار والمصارعـة فيـما بينهـم، فينهكـون بعضهـم البعـض، ويلهـون عـن واجبهـم الإنجـابي، وهـو تلقيـح الدجاجـات البلديـات ليتمكنَّ مـن توريـد البيـض والأفـراخ الصغـيرة التـي سـتواصل مسـيرة إعالـة أسرة «فتـح اللـه»، بعـد أن تشـيخ أمهاتهـم وجدَّاتهـم ويخرجـن مـن خـط الإنتـاج إلى قـدور الطعـام.

الذكريـات التـي يحتفـظ بهـا «فتـح اللـه» عـن صديقـه «جبريـل»، بعضهـا مضحـكٌ وجميـل، عـلى الرغـم مـن الفقـر والعـوز الـذي يعيشـان فيـه. كان «جبريـل» يعمـل جـزارًا غـير شرعـي، يُعـرف فيـما بينهـم بـ«الكـيري»، حيـث إنـه يحمـل اللحمـة التـي يقـوم بذبحهـا في سـلة كبـيرة مـن السـعف؛ «قفَّـة»، ويطـوف بهـا البيـوت في الأحيـاء الفقـيرة جـدًّا، والـورش وتجمُّعـات العـمال، والمطاعـم الصغـيرة الرخيصـة التـي تُعتـبر

زبونًا دائمًا لـه، حيـث يبيعهـم أحشـاء الذبائـح وقوائمهـا ورؤوسـها، ومعـه «فتـح اللـه» في «عربـة كارو» يجرُّهـا حـمارٌ فتـي، يمتلكهـا «جبريـل»، ودائمًا مـا تُوضـع سـلة السـعف في مخبـأٍ مـا تحـت سـطح عربـة الـكارو، حتـى لا تتصيَّدهـا أعـين الشرطيـين الذيـن يعرفـون أنهـا بالـكارو وأنهـا هنالـكَ تحـت سـطحها، كـما أنهـم يشـترون منهـما حاجتهـم مـن بيـضٍ ولحـوم؛ فهـي أرخـص سـعرًا. نعـم هـي غـير مذبوحـة في السـلخانة، ولكنهـا طيبـةٌ وحقيقيـة، بـل أكـثر ضمانًـا مـن ناحيـة الجـودة والنـوع مـن تلـكَ المذبوحة بالطـرق الرسـمية، التـي قـد تمـرُّ عـبر الأختـام وهـي تحمـل أمراضًـا خطـيرةً يتـمُّ إهمالهـا وغـضُّ الطـرف عنهـا ببعـضٍ مـن المـال يسـير. «جبريـل» يختـار ماشـيته وحـده، ويربِّيهـا في بيتـه تحـت رعايتـه الخاصَّـة، ويذبحهـا موجِّهًـا إيَّاهـا إلى القبلـة وهـو يهتـف: «بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم»، ثـمَّ يخاطـب الحيـوان قبـل أن يضـع السـكينة في نحـره: «اعفـي عنـي يـا أخـي، دي (هـذه) سُـنة الحيـاة، كلنـا لهـا.» ثـمَّ يتلـو مـا لا يـدري ماهيتـه أو مـن أيـن حفظـه ولا ممَّـن سـمعه: «الذابـحُ مذبـوحٌ، والآكلُ مأكـولٌ، وكلُّنـا مـن الـتراب وإلى الـتراب. يـومٌ ليـك ويـومٌ عليـك. لطفـكَ يـا ربي. اللـه أكـبر، اللـه أكـبر، اللـه أكـبر.»

والغريـب في الأمـر أنـه يتلـو النـص ذاتـه في صلاتـه الوحيـدة التـي يؤدِّيهـا عنـد الفجـر بصـوتٍ جهـوري، ولم تنجـح ابنتـه «رشـا» — مهـما بذلـت مـن مجهـود — في إقناعـه بـأن ذلـكَ ليـس بقـرآن أو آيـة مـن أيِّ ديـنٍ كان، وخـير لـه أن يحفـظ سـورة الفاتحـة ومعهـا آيـة، ولكنـه لا يجادلهـا كثـيرًا أو قليـلًا، ويظـلُّ يقـرأ مـا يقـرأ مـن آياتـه الغريبـة، عنـد صلاتـه وعنـد ذبـح بهائمـه.

عندمـا يدخـل «فتـح اللـه فـراج» منـزل صديقـه المرحـوم «جبريـل»، وهـو كالعـادة لا يطـرق البـاب، إنمـا يدفعـه دفعًـا للإمـام، ثـمَّ يصيـح: «يـا نـاس البيـت كيـف حالكـم.» أول مـن ينتبـه إليـه الكلـب الـشرس المُسـمَّى

«كُولي» وهو الحارس الأمين للأسرة من اللصوص والمتطفلين، يجري «كُولي» نحوه محرِّكًا ذيله في ترحاب، وقد ينبح نبحتين مرحتين قبل أن يحكَّ جسده برجلي «فتح الله فراج» الذي يصيح فيه بأن يذهب بعيدًا عنه: «يا نجس ود النجس!»

عندما تسمعه زوجة المرحوم «ملكة الدار» تعتدل قليلًا في جلستها، وقد تضع ثوبًا على بعض رأسها، فهي لا تتكلَّف أن تبدو أمامه غير ما هي عليه، لأنها تعتبره أحد إخوانها، وتكنُّ له ذات الشعور الأخويَّ النبيل، وأيُّ تكلُّفٍ قد يشعره بأنه أجنبي، وهي لا تقصد ذلك.

أمَّا الصبيَّتان الصغيرتان، فإنهما تهرولان إليه تاركتين ما بأيديهما ممَّا يسمُّونه في الأسرة بـ«البيض الحجري»، وهي بيضات متحجِّرات تجدانها في قفص الدجاج وتلعبان بها طوال اليوم. ظهرت هذه البيضات الثلاث قبل سبعة أيام، لاحظتها الأمُّ بينما كانت تنظِّف قفص الدجاجات من الروث وتجمع البيض، فلم تثِر اهتمامها إلَّا قليلًا، ورمت بها للطفلتين للعب، وقد سُرَّتا بذلكَ كثيرًا.

تمسك كلُّ واحدةٍ منهما بكفٍّ من كفَّيه الغليظتين الخشنتين، وهو في هذه الأثناء يكون قد أخرج الحلوى من جيبه وأعطى كلَّ واحدةٍ نصيبها من جيب الجلباب المُواجِه لها. أمَّا البنت الكبرى «رشا جبريل»، فإنها تكتفي بأن تصيح من بعيدٍ محييةً إيَّاه بجملةٍ واحدة: «عمو، مشتاقين!»

«رشا» تدرس الهندسة المدنية في «جامعة الخرطوم»، وتقرأ كثيرًا في كتب الأدب، وتحبُّ الرواية بصفةٍ خاصَّة، وهي أيضًا تحبُّ وتجيدُ الغناء، وتُعتبر العمود الفقاري لكورال الجبهة الديمقراطية بالجامعة. «رشا» ليست الكُبرى، فلقد توفيت الكبرى واسمها «شوشايا» في حادث سير، دهستها عربة كارو أمام البيت وهي يافعةٌ تلعب عند

باب المنزل مع صبيتين صغيرتين نجتا من الحادث بجراحٍ طفيفة، أمَّا هي فقد أصابتها حافرة الحمار الهائج الأمامية في رأسها، وماتت لاحقًا بالتيتانوس، نتيجةً لبعض الإهمال والجهل بخطورة الجرح، أو كما تقول أمُّها: «يومها تمَّ.» فعوَّضها الله بتوأمٍ آخرَين، وهما طفلتان نحيفتان جميلتان وشقيتان ومتفوِّقتان في الدراسة، هما الآن في مرحلة الأساس، تشتركان في إحراز المرتبة الأولى دائمًا، ومنذ مرحلة الروضة.

كغير عادته عندما دخل البيت، وسلَّم على البنت وأمها، وقبَّل الطفلتين في رأسيهما، وهو طقس يحافظ عليه باستمرار، كان يتلفَّت يمنة ويسرة، كأنه يبحث عن شيءٍ ما، وهي حركة يفعلها عندما يدخل البيت ولا يجد في استقباله كلَّ أفراد الأسرة، فإنه يتلفَّت بحثًا عن العضو الغائب، ولكنه الآن — واليوم جمعة — يقبع وسطهم تحت ظلِّ «راكوبتهم» الواسعة النظيفة، يسألهم مباشرة: «وين الديك؟»

لا تمتلك أسرة المرحوم «جبريل» الجزار قفصًا كبيرًا للدجاج كالذي لديه، ولكنهم في الماضي عندما كان المرحوم حيًّا، كانوا يمتلكون زريبةً صغيرةً بها بعض الماشية، وهي تمثل مخزونًا للذبح يتجدَّد بصورةٍ مستمرة، كلما يبِع الذبيح، يأخذ الربح ويشترِ برأس المال خروفًا أو تيسًا جديدًا. كان الديك بالقفص الذي يقع خلف الحجرة الكبيرة، ويبدو أن الأسرة لا تمتلك مع الديك غير دجاجتين بلديتين بيَّاضتين. وبعد وفاة «جبريل»، أخذت الأسرة تنزلق لدائرة الفقر المدقع بصورة سريعة، فقد باعوا الحمار وعربته الكارو، وهما كانا وسيلتا رزق الأسرة عندما كان الأب حيًّا. لولا إخوة «جبريل» — وهم رُعاة يقيمون في قريتهم البعيدة بـ«جنوب كردفان» يدعونها قرية «أولاد أحمد»، يرسلون وسعهم حالما يجدون بعض القادمين إلى «الخرطوم» لأسرة أخيهم المرحوم — لَمَا توفَّر للأسرة قوت يومها، ولَمَا استطاعت أن تصرف على شئون المدرسة، والحق يُقال إن «فتح الله» كان يتذكَّرهم

ببعض البيض وقليلٍ من المال من وقتٍ لآخر، فهو أيضًا يعاني من سوء طالعٍ في الرزق.

عندما وضع كوب الماء البارد المقدَّم إليه من الزير الكبير، صاح: «مات ديكنا، هجم عليه ديك غريب وقتله.» قالها بحسرة. وهو لا يحتاج ليزيد على هذه الجملة، حتى الطفلتان تفهمان أنه يريد الديك ليومٍ أو يومين ليضع البيض في بطن الدجاجات، ثمَّ يعيده عندما يشتري ديكًا آخر.

إِرَادَةُ الْبَقَاء

لـولا أنـه خـاف مـن أن الجـيران والمُشـاة بالشـارع الذيـن سيسـمعون صُراخـه ويهبُّـون إليـه وينازعونـه في كنـزه الغريـب الثمـين، لصـاح بمـلء حلقومـه الضخـم، وبقـدر مـا يسـعُ فمـه العريـض، وتتحمـل شـفتاه الغليظتـان، وإمكانيـات حبالـه الصوتيـة في التمطيـط، ووسـع خياشـيم رئتيـه مـن هـواء طـازج جاهـز للنفـخ والتحـوُّل لكلـمات: بـأن ديـك صديقـه «جبريـل» قـد بـاض لـه ذهبًـا خالصًـا، وأنـه سـيودِّع الفقـر للأبـد.

أعاد «فتح الله فراج» الديك لأسرة صديقه «جبريل أدومة كيري»، في صبيحة اليوم الرابع، على الرغم من أنه يعلم أن لا حاجة ماسَّة لدجاجات أسرة المرحوم لديكٍ خاص، فهي ربما أربع أو خمس دجاجات مطلوقات في معظم الأوقات يعاشرن ديوك الجيران، أمَّا دجاجاته فلا يطلقهنَّ إلَّا للتمشِّي ثمَّ يعيدهن للأقفاص، وهذه هي الرعاية التجارية العلمية للدجاج، ولكن الواجب يحتِّم عليه إعادة الديك بأسرع ما يمكن، خوفًا من القيل والقال.

أدخل ذراعه الطويلة في القفص المصنوع من السلك النمليِّ ذي الفتحتين السداسيتين، وأخذ يحسب البيضَ عابثًا به بأصابعه، بينما تتفحصه عيناه من خارج القفص. لاحظ أن هنالكَ بيضةً صغيرة الحجم، قدَّر حجمها بثلثي حجم البيضة العادية، ولم يندهش كثيرًا، لأنه تعرَّف عليها منذ الوهلة الأولى، فهي بيضة الديك، ويُطلق عليها «بيضة هواء»، ولكنه عندما رفعها بأصابعه أحسَّ أنها كانت ثقيلة، بل ثقيلةً جدًّا كأنها قُدَّتْ من الحجر، وضعها جانبًا وقد أصابته دهشةٌ طارئة، أخذ حجرًا صغيرًا وطرقها به في حذر، لم تصدر صوتًا مألوفًا، ولكنه أقرب إلى صليل معدنٍ ما، طرقها بقوةٍ أكبر، فأخذت تتساقط عن سطحها القشرة البيضاء السميكة، ليطلَّ عنصرٌ صلدٌ لامعٌ وكأنه الذهب.

أخذ البيضة بعيدًا عن موقع القفص، ولأنه ليس بالمنزل أحدٌ غيره، فقد كان مطمئنًّا أن لا أحد سيُصاب بسوءٍ إذا تبيَّن أن بالبيضة مكروهًا؛ قنبلةً مثلًا أو لُغمًا بلعه الديك وباضه، أو أية مصيبة أخرى. وقف بعيدًا، وقذف بالبيضة تجاه الحائط، فسقطت على الأرض ولم تنفجر. حسنًا، أحضر سكينًا كبيرةً وأخذ ينحتها. كانت صلدةً شديدة الصلابة، وشديدة الشبه بالذهب، قَرَّبها من أنفه، لم يشمَّ لها رائحة مميِّزة، ولكنها أقرب قليلًا إلى رائحة النُّحاس الأصفر، تذوَّقها بلسانه،

لا طعـم لهـا، ولكنهـا كانـت بـاردةً بعـض الـشيء: «سـبحان اللـه، دهـب! دهـب حقيقـي؟»

لـولا أنـه خـاف مـن أن الجـيران والمُشـاة بالشـارع الذيـن سيسـمعون صُراخـه ويهبُّـون إليـه وينازعونـه في كنـزه الغريـب الثمـين، لصاح بملء حلقومـه الضخـم، وبقـدر مـا يسـعُ فمـه العريـض، وتتحمـل شـفتاه الغليظتـان، وإمكانيـات حبالـه الصوتيـة في التمطيـط، ووسـع خياشـيم رئتيـه مـن هـواء طـازج جاهـز للنفـخ والتحـوُّل لكلـمات: بـأن ديـك صديقـه «جبريـل» قـد بـاض لـه ذهبًـا خالصًـا، وأنـه سـيودِّع الفقـر للأبـد.

وفيـما بعـد، بينـه وبـين نفسـه، نـدم أشـد النـدم لإعـادة الديـك سريعًـا لأصحابـه، لا بـأس، سيسـتلفه مـرةً أخـرى. «فتـح اللـه فـراج»، يعـرف الذهـب، يعرفـه معرفـة جيـدة، بـل معرفـة مؤلمـة أيضًـا، فـكان هـذا الذهـب هـو السـبب الرئيـسي في مـوت صديقـه الوحيـد «جبريـل أدومـة كـيري» الجـزار، الـذي قـد تـبرَّز خاتمـين كبيريـن مـن الذهـب وسـط سـائلٍ أصفـرَ شـديدِ العفونـة، قبـل أن يمـوت في اليـوم التـالي.

في منتصـف 2003، وعـلى سـبيل الدقـة في اليـوم الرابـع مـن أبريـل، يوم الجمعـة، عندمـا تـولَّى الـوالي الجديـد مقاليـد حكـم ولايـة «الخرطـوم»، وكـما هـو مُلاحـظ كان اليـوم عطلـةً رسـمية، مـمَّا أثـار تشـاؤم البعـض، وكان فـأل نحـسٍ وشـؤمٍ عـلى الـوالي ورعيتـه معًـا، ظلَّ يلاحقهـما لسـنواتٍ كثـيرةٍ قادمـة. لا يحـبُّ النـاس الاسـتعجال، ويقولـون إنَّ العجلـة مـن الشـيطان، ووراء كلِّ عجـولٍ إبليـسٌ، وحكمتهـم المثـلى: «شِـدْ واتباطـا يـا خـيرًا آتـا ويـا شرًّا فاتـا.»

أصـدر هـذا الرجـل العجـول «المتشـعبط» في سـلالم المجـد، قـراراتٍ تصحيحيـةً شـاملةً وكبـيرة، ومؤثـرةً في كلِّ مناحـي الحيـاة، وكان لهـا الوقـع الكبـير المبـاشر عـلى الكثـير مـن أصحـاب المهـن الهامشـية، التـي يقـول عنهـا الـوالي إنهـا «تـضرُّ بالمواطـن والاقتصـاد الوطنـي ضررًا بالغًـا، ولـو

أنها — لغير العالمين ببواطن الأمور والذين لا يفهمون في الاقتصاد الحبَّة — تبدو في الظاهر مفيدة»، وقد شمل القرار كما هو مُتوقَّع: سائقي الدرداقات والركشات، وبائعات الشاي، والكيري، والأكشاك، والباعة الجائلين، والشحاذين، وطبليات الورنيش، والكتب المفروشة على جوانب الطرقات، وخدمات الشيشة والصعوط، وباعة الخمور البلدية وخاصَّةً العرق، غاسلي السيارات، الحمالين، المغنين دون تراخيص، ومن شابههم وشاكلهم. وكان الوالي يسعى بكلِّ قوة وجدية في تثبيت قدميه في الوظيفة، بأن يقنع كبار السياسيين في الحزب الحاكم بأنه الرجل المناسب في المكان المناسب، وأن اختياره لم يكن اعتباطيًّا، بل كان أحد المعجزات أو الكرامات التي قَلَّما تحدث في هذا البلد. يريد أن تنفتح في وجهه كنوز الأرض وخزائنها، فوظيفة والٍ في عاصمةٍ شاسعةٍ ومهملةٍ وسائبةٍ مثل «الخرطوم» فرصةٌ لا يجدها كلُّ من هبَّ ودب، إنها لذوي الهمم العالية والمتميزين، وفوق ذلكَ كلِّه للذين يستطيعون أن يحافظوا على الوظيفة ويستثمروها بتروٍّ وحنكة، والذين لا يفوِّتون الفرص ما أتتهم ويبحثون عنها أينما اندسَّت.

وبغير العادة التي درج عليها الولاة السابقون في إطلاق القرار وتركه ليعمل بقوة دفعه الذاتية ثمَّ يموت، فإن الوالي الجديد كان رجلًا عمليًّا وعلميًّا وجادًّا، فشكَّل آليةً محليةً للتنفيذ، تبدأ من اللجنة الشعبية بالحي، وتمر بالمحلية، ثمَّ الولاية، وتنتهي في مكتبه، عند يديه المباركتين رضوان الله عليها؛ بين أصابعه القابضات قبضًا.

فلا عجب أن يمرَّ أمام عينيه الطيبتين تقريرٌ عن بيع اللحمة الكيري بحيٍّ «زقلونا» الذي يسمع به لأوَّل مرةٍ في حياته، وليس غريبًا من جلالته أن يصدر قرارًا فوريًّا بالقضاء النهائيِّ على هذه المهنة بالذات، وقد وصفها في خضمِّ ثورة تقوى فجائية بـ«القذرة»، بل الأبعد من ذلكَ طالب اللجنة الشعبية عن طريق المحلية بتغيير

الاسـم القبيـح للحـيِّ الـذي يعـفُّ عـن نطقـه بلسـانه الطاهـر، إلى اسـمٍ مـشرِّف، واقـترح أن يُسـمَّى «الصفـا» أو «المـروة» أو «الرياض-جنـوب» أو أيَّ اسـمٍ رسـاليٍّ آخـر يعـبِّر عـن هُويـة الأمـة، و«الآن».

مـرَّت أيـامٌ مريـرةٌ عـلى «جبريـل كـيري»؛ أيـامٌ عصيبـة، لأنـه لم يكـن مسـتعدًّا لفقـد مهنتـه بـين ليلـة وضحاهـا، المهنـة التـي لا يعـرف غيرهـا، ولم تكـن أسرتـه قـد تهيَّـأت لبرنامـج التقشـف الـذي يحرمهـم مـن وجبـة اللحـم اليوميـة التـي تعـدُّ أرخـص مـا يتخيَّلونـه مـن طعـام، بـل لم يكـن بمخيلتهـم أن هنالـكَ طعامًـا بغـير لحـم. لـ«جبريـل» أسرة صغـيرة؛ بنتـان تـوأم بالإضافـة لابنتـه الكُبرى «رشـا»، ولكـن هـذه الأسرة الصغـيرة تحتـاج أيضًـا لمـصروفٍ يومـي.

عندمـا قُـضي عـلى ثمَـن آخـر خـروفٍ كان بمخزونـه المنـزلي، تشـاور «جبريـل» مـع صديقـه الوحيـد «فتـح اللـه فـراج»، ولكـن «فتـح اللـه» في فقـره ذلـكَ ليـس لديـه الوقـت ولا القـدرة للبحـث عـن حـل، مـا عـدا الهجـرة للذهـب، وهـو الـثراء السريـع الـذي يتحـدَّث عنـه النـاس اليـوم، في الصحـراء الشـمالية. قـصَّ أحدهـما للآخـر حكايـاتٍ كثـيرةً عـن الذيـن انتقلـوا مـن قيعـان الفقـر إلى قمـم الـثراء في طرفـة عـين، عندمـا حالفهـم الحـظُّ في العثـور عـلى بعـض الكيلوهـات مـن حجـارة التـبر الخالـص، أو عـلى تمثـالٍ نـوبيٍّ قديـمٍ مـن الذهـب قامـوا بصهـره بالنـار وبيعـه. كانـا دون أن يدريـا يشـجِّع أحدهـما الآخـر عـلى المغامـرة، ويحفِّـزان نفسـيهما لخوضهـا؛ فقـد بـدا لهـما واضحًـا وجليًّـا أن مسـتقبل أسرتيهـما يتوقَّـف عـلى العثـور عـلى الذهـب ولا شيء غـيره، وإذا صـدق معهـما الحـظ، فقـد لا يسـتغرق الأمـر زمنًـا طويـلًا.

كلُّ المعلومـات التـي يعرفانهـا عـن التعديـن العشـوائيِّ للذهـب مبشِّرةٌ بالخـير الكثـير، ولكـن «جبريـل» أصرَّ عـلى أن يذهبـا إلى «أونـور سـدنا»، وهـو شـخص كان يعمـل مـن قبـل في بيـع وصناعـة السـكاكين والسـيوف

تحت «النيمة»، وهي شجرةٌ كبيرةٌ تنمو على ضفة المجرى الكبير، بها حدَّادان وصانعة زلابية، وعم «عبد الرحيم» وهو فقيهٌ شعبيٌّ متخصِّصٌ في بيع الأدوية البلدية المصنوعة من الأعشاب، ويعمل أيضًا حلاقًا، ويقوم بإجراء العمليات الصغيرة للأطفال؛ من الختان وإزالة اللوز والأورام السطحية الحميدة، أو ما يُسمِّيه الأهالي محليًّا بـ«الخُرَّاجَات»، ويعالج قرصة العقرب أيضًا. «أونور سدنا» هو أوَّل من ترك المهنة وذهب للذهب، ولكنه عاد مرةً أخرى، ليعمل في صناعة السيوف والسكاكين ويقضي وقت فراغه في المؤانسة مع عم «عبد الرحيم» و«ماجدة فضل الله» بائعة الزلابية. ويُنسب إلى «أونور» معظم القصص التي تُحكى عن الذهب بالمنطقة الشمالية.

قال لهما «أونور» بلكنةٍ بجاويةٍ شرقيةٍ وهو يضحك: «دهب كتير وشواطين كتير وموت كتير، وفساد كتير، ورب الكَأْبَة (الكعبة).» ثم حكى لهما ما جعله يترك البحث عن الذهب ويعود لمهنته تحت الشجرة؛ فعلى الرغم من الكشَّات اليومية (مداهمات الشرطة) لهم، إلا إنه يفضل البقاء في «زقلونا» عند المصرف الصحِّيِّ العفن، الذي لم تعد له رائحةٌ مع طول الزمن واعتيادهم عليه، يشمُّ رائحته القادمون الجدد لا غير. قال وهو يضع سفَّة صعوط كبيرة في فمه وتحت لسانه مباشرة (وهي الطريقة المُفضلة لديه في تعاطي الصعوط) إنه رأى بأمِّ عينيه الشيطان وهو يحرس الذهب.

كان الوقت عصرًا، ولكنه يقصد قبيل المغرب بقليل. و«أونور» يعمل «نسَّابًا» مع تاجر كبير، وهو صاحب الجهاز والعربات وتنكر المياه والبلدوزر الضخم، وكانوا قد وجدوا عِرقًا طويلًا من صخور التبر، ولكنه فجأة انتهى بنفقٍ كبير، نفقٍ يمكنه أن يُدخِل الشخص ماشيًا على رجليه، ولكي لا يدع للعمال حرية الدخول بصورةٍ همجيةٍ تتيح لهم الحصول على كمياتٍ كبيرةٍ من الذهب قد يهربون بها،

أخرج التاجر كلاشنكوفه وأطلق طلقتين في الهواء وأكَّد للجميع أنه لا يتردَّد في قتلهم جميعًا، و«إذا كان هناك من يشكُّ في ذلكَ فعليه أن يمدَّ رجله خُطوةً واحدةً تجاه النفق.» ثمَّ أمر الجميع بالجلوس على الأرض بعيدًا عن النفق، واتصل بأهله وعشيرته بـ«جهاز الثريا»، الذين جاءوا في لمح البصر ومعهم ما يكفي من السلاح. كانوا لا يقلُّون عن ثلاثين رجلًا، وامرأتين يظنُّ «أونور» أنهما أمُّ الجلابي وزوجته. وكلمة «الجلابي» تطلق على كلِّ القابضين على تجارة الذهب وأصحاب رؤوس الأموال. قام «الجلابي» بإعطاء العمال نصيبهم المتبقي من أجرهم، وتمَّ صرفهم، وطلب منهم البقاء بعيدًا عند قمة جبلٍ صغير، إلى أن يفرغ لترحيلهم وإعادتهم إلى الخرطوم أو إلى أقرب معسكر عمال من موقع العمل الحالي، وألَّا يقتربوا من نفقه قيد أنملة، قال «أونور»: «طردونا بائييد (بعيد)، ورب الكَأْبَة.»

ولكن بعد أقل من نصف ساعة خرج شيءٌ كبيرٌ يلمع مثل الشمس من النفق، كان فرسًا ضخمًا من الذهب، له صهيلٌ وكأنه زئير الأسد، عندما رآه أهل التاجر يقفز في الهواء كالبهلوان، ويرفس ويصهل في جنونٍ بيِّن، فرُّوا هاربين، ولكنه كان يلاحق الفارِّين، وكلما أدرك واحدًا منهم رفسه بقائمتيه الخلفيتين رفسةً لها دوي، فيطير الشخص بعيدًا في الهواء ليسقط ميتًا، أو عضَّه في رأسه بأسنانه اللامعة الكبيرة إلى أن يتهشَّم رأس الشخص في فمه، وهكذا ... إلى أن قضى على غالبيتهم، ومن بينهم التاجر نفسه، والبقية هربوا بعيدًا واختفوا في الصحراء، ولم يعودوا قط، لأنهم لم يصلوا إلى أية مدينة أو قرية، لقد تناثروا في الصحراء كحبات الرمال التي عبث بها إعصارٌ مجنون. أمَّا نحن الذين كنا بعيدًا عن الموقع، على قمة جبلٍ قريب، كنا نشاهد ذلكَ وقد تملَّكنا الرعب.

في أقل من خمس دقائق، أصبح المكان فارغًا ولا يُوجد شخص في

الموقع أو حوله، ودخل الحصان الوحش الذهبيُّ النفق، بعد أن صرخ صرختين مرعبتين وتلفَّت إلى جميع الاتجاهات، وانغلق عليه النفق مصدرًا صريرًا عنيفًا، واستوت الأرض كما لو أنها لم تُمَسَّ منذ الأزل.

حكى هذه القصة لعشرات الأشخاص، وقصَّها لصحفيين، ومراسلي ومراسلات قنوات فضائية، ولإذاعة «إف إم 100» بحضور المذيعة الحسناء «لمياء متوكل» شخصيًّا، ولو أنه زادها قليلًا من التفاصيل التي ابتكرها في حينها حُبًّا في أن يطيل صُحبة الحسناء «لمياء»، ولكن لم يلاحظ الفرق أصحابهُ الذين سمعوا القصة من فمه واستمعوا إليها فيما بعد من إذاعة «إف إم 100»، ولكنهم اتفقوا على أنه كان مرتبكًا بعض الشيء، ومتلعثمًا. قصَّ الحكاية ذاتها لزبائن صديقته بائعة الزلابية الجميلة «ماجدة فضل الله»، ولمتحرِّين شرطيين يحاولون فضَّ غموض الحادث الغريب، قصَّها لزبائن دائمين وعرضيين لبضاعته من السكاكين والحجبات، قصَّها لزوجته التي لا يجب أن يُقال أو يُكتب أو يُشار إلى اسمها، قصَّها لولده الوحيد «سدنا أونور سدنا»، قصَّها لمن لا يتذكَّرهم الآن. وكلما يَحكِها، يحس بالرعب يتملكه، كما لو أنه يشاهد الحدث يحصل أمامه في لحظة الحكي.

نصحهما «أونور سدنا»، بألَّا يغامرا، وخيرٌ لهما أن يبحثا عن عمل، حتى ولو عملا في حفر القبور لدى المحلية، وإن الأرزاق بيدي الله: «وما شَقَّ حَنَكًا ضيَّعَه.» فأجابه «جبريل» في سرِّه، خوفًا من أن يُتَّهم بالكُفر إذا جاهر بذلك: «أمانة ما ضيَّعْ حُنُكَّة.»

طعما بعض الزلابية من «ماجدة فضل الله»، وعادا لمنزل «فتح الله فراج»، وأخذا يلعبان الورق. كانت زوجة «فتح الله» قد أحضرت معها طعامًا طيبًا من منزل أخيها الثري، ومع بعض البيض، وضعت لهم غداءً، يتكوَّن من «محشي طماطم» شبه مأكول — ولن يكتشف أيٌّ من الآكلين الحاليين ذلك، لأنها خبيرة في إخفاء آثار الآكلين

الأوائل — وضلع خروف كامل، وسلاطة خضراء وبيضاء. جلس جميع أعضاء الأسرة ومعهم «جبريل أدومة كيري» في حلقة، وأخذوا يأكلون باستمتاع، بينما «جبريل» كان يعيد في رأسه قصَّة الوحش الذهبيِّ التي قصَّها لهما «أونور»، وهو يرتعد من أعماقه.

أمَّا ما قصَّه لهما عن تجمعات الدهابة لاحقًا وسابقًا فلم تُخِفِ الرجلين، ماذا يفعل الفساد معهما، فالفساد يحتاج لأشخاص لديهم مالٌ ووقتٌ وفراغ، وليس لديهم هموم أسرية مثلهما تلهيهما عن غيرها، أغلب الفاسدين والمُفْسَدين رجال ونساء مطاليق لا أهداف لهم في الحياة، أمَّا هما فإنهما ليسا من النوع الذي يسهل إفساده أو جرُّه عن الصراط المستقيم: «إبليس بيعرف ناسُو.»

كان «فتح الله فراج» قد عزم على الذهاب إلى الصحراء، وليس دائمًا هنالكَ شيطان وموت، والدليل أن «عطية ود مُرسال» سائق الكارو قد اشترى عربة لوري ممَّا وجده من ذهب بصحراء العتمور، نعم لقد أصبح معتوهًا بعض الشيء نتيجةً للثراء غير المتوقع، وصدمته مشاهدة حجرٍ كبيرٍ من التبر في حجم البرتقالة، وليس لذلك أيُّ دخلٍ بالشياطين وحُراس الذهب، وهو يعمل إلى الآن بالعربة في ذات الصحراء، وقد وضع على ظهرها حاوية مياه شُرب، حيث إن الماء أيضًا يُباع مقابل الذهب هناك. قابله «فتح الله فراج» من قبل في السُوق الشعبي بـ«أم درمان» ولم يتعرَّف عليه مع ما بلغ به الحال من دعةٍ وحياةٍ رغدة، لقد صار سمينًا مثل البغل، وكان نحيفًا وطويلًا بظهرٍ منحنٍ لكونه كان حمَّالًا مشهورًا في سوق «زقلونا-شمال»، وصوته أيضًا تغير، أصبحت به رقة من لديهم مالٌ كثير، وبحَّة الأثرياء، وإذا كان «فراج» يجيد القراءة، لقرأ ما هو مكتوبٌ على الباب الخلفي للوري «عطية ود مُرسال» بطلاء ذهبي، هذا الجزء من الأغنية الشهيرة للشاعر «البجاوي أبو آمنة حامد» وغناء المطرب «صلاح ابن البادية»: «سال

من شعرها الذهب.»

بعد الغداء قرَّرا الذهاب، فورًا. ماذا ستفعل لهما الشياطين أكثر ممَّا فعل بهما الفقر والوالي وعسكره ومجاهدوه: «فهل الحكومةُ أرحم من الشياطين؟» تذكَّر «جبريل» كيف هاجمته الشرطة في البيت وهو يعدُّ الذبيح للبيع، لقد حاول مقاومة قرار الوالي في البداية ببيع الذبيح داخل بيته، حيث يشتري منه الجيران وترسل المطاعم الفقيرة مناديبَ لها، ويأخذ صديقه «فتح الله» البعض للعمال عند المصرف فيبيعه ويأتيه بالنقود، ولكن قيادة اللجنة الشعبية بالحيِّ قامت بالوشاية به، وداهمته ثُلةٌ من صغار الجند والمجاهدين، قاموا بخلط اللحوم بالتراب أمام عينيه وبناته وزوجته، ثمَّ رموا بها في صندوق عربتهم الـ«لاندكروزر»، ورموه على اللحمة، وانطلقوا به نحو مخفر الشرطة وهم يكيلون له اللعنات، وكأنه عدوٌّ شخصيٌّ لهم.

لولا أن رجلًا حسن الهندام، يبدو أنه محامٍ، قابله صدفةً في مخفر الشرطة وهم يدفعونه أمامهم، ثمَّ لحق به في الحبس سأله عن تفاصيل حكايته، ثمَّ همس له قائلًا: «أنتَ لا تبيع اللحوم، ذبحتَ الخروف من أجل إطعام أطفالك، ولا تقُل غير ذلك، وطالِبْ بتعويض للخسائر.» لم يلتقِ بهذا الرجل مرةً أخرى، ولكن أطلق وكيل النيابة سراحه في اليوم التالي، عندما أكَّد له «جبريل كيري» أنه كان في الماضي قبل قرار السيد الوالي، يعمل في الكيري، ولكنه بعد القرار أخذ يذبح أسبوعيًّا حملًا صغيرًا من أجل إطعام أسرته، الذين اعتادوا على أكل اللحوم، لكن الشرطة داهمته في عقر داره وأفسدوا اللحوم، وقاموا برميه بقسوة داخل العربة اللاندكروزر، ليجد نفسه بالحبس دون أن يرتكب أيَّ جريمة. وحذره البعض من مغبَّة مطالبة الحكومة بتعويض، طالما تمَّ إطلاق سراحه بهذه السهولة، فنسي الأمر.

كان ذهنه يعمل بصورة متواصلة، يرى العالم وقد صار ضيقًا

جـدًّا، وكلُّ الطـرق مغلقـة أمـام وجهـه، مـا عـدا الذهـب، وتخيَّـل سـبائك مـن الذهـب تتناثـر في صحـراء لا نهايـة لهـا، وهـو وصديقـه «فتـح اللـه» يأخـذان منهـا وسـعهما.

الطريـق إلى الصحـراء سـهلٌ، ولكنهـما يحتاجـان لتاجـرٍ يعطيهـما جهـاز كشـف المعـادن، ويوفِّـر لهـما سـبل الإعاشـة والترحيـل، ففـي العـادة يكـون في صحبـة الفريـق عربـة بوكـس «ربـع نقـل» بهـا براميـل مـاء وبعـض الأطعمـة المجفَّفـة، مولـد كهربـاء صغـير الحجـم، ليـس للإضـاءة ولكـن لشـحن بطاريـة الجهـاز، وهنالـك أدوات ومعـدات للحفـر وأخـرى لكـسر الحجـارة، طاحونـة صغـيرة لسـحن الحجـارة وغـير ذلـك. أمَّـا البحـث فسـهلٌ، ويمكـن تعلُّـم اسـتخدام الجهـاز في دقائـق، كـما أخبرهـم «أونـور» بذلـك:

- أهم ما في الأمر الصبر والشجاعة.

قال لهما هذه الجملة الأخيرة وهو يبصق سَفَّة الصعوط:

- العمـل صعـب والشـمس سـاخنة والجهـاز ثقيـل والفسـاد كثـير، ورب الكَأْبَـة.

ومـا اسـتطاعا أن يتذكَّـرا شـيئًا حسـنًا أو متفائـلًا قالـه لهـما «أونـور سـدنا»، ولكنـه دلَّهـم عـلى جـلابي سـيقوم بمسـاعدتهما، وهـو يعمـل في هـذا المجـال منـذ سـنوات، لديـه العربـات والأجهـزة والمـؤن، والمرشـد، أو الأمـين كـما يسـمونه، وهـذا الأمـين رجـل يعـرف أماكـن الذهـب بإشـارات عـلى السـطح، وأحيانـًا بمسـاعدة «النسَّـابة» وهـم الذيـن يقـدِّرون نسـبة الذهـب المتوفـر في التربـة أو الصخـر أو الرمـال أو حتـى البـئر. كـما إن الأمـين يقـوم أيضًـا باسـتلام الذهـب بعـد تعدينـه، ليسـلِّمه للتاجـر، بعـد وزنـه أمـام الجميـع، كـما إنـه يسـتطيع أن يقـدِّر أثمـان المنحوتـات الذهبيـة الأثريـة والمصوغـات مـن ختـم لجعاريـن وتماثيـل في صـورة حيوانـات أو

ملوك وغير ذلك. وهو من جهةٍ أخرى يسجِّل حقوق العاملين التي تساوي الثلث، وهذا نصيبٌ كبير.

حذَّرهما «أونور سدنا» من الخيانة، ويعني أن يخفيا بعض الذهب من وراء الأمين؛ فعقاب الخائن: الموت وسوء العاقبة بعد الموت. لم يشرح لهما كيف يكون هذا الموت، فالموت واحد ولو تعددت أسبابه، طالما كانا يفهمان ذلك، فلم يلحَّا عليه لمعرفة كيفية الموت. وحدَّثهما «أونور» للمرة الثانية أو الثالثة عن قرى الدهابة التي هي أشبه بمعسكرات للفساد والرذيلة، حسب رأيه، وبها كلُّ المحرمات وغير المحرمات: «بنقو، حشيش، لاندكروزرات وجِمال، حبوب، أفيون، لوايطة وشراميط وأمنجية ومعرصين، رجال ونساوين، عرقي ومريسة، إبليس ذاتُهُ ساكن هناك، يمكن يكون فيها كُفار قُريش واليهود كمان، لأن الدهب ما بيتلقي دون نجاسة وقلة أدب. الزول إذا ما عمل حساب لنفسُو «يِسَوُّوا لِيهُ؟» في رمشة عين حمانا الله، «أونور» يموت ولا يلعب بشرفهُ.»

العلاقة بين الرجلين علاقة من نوع خاص، هما لا يتشابهان في شيء، لا في الشكل الظاهري لكليهما ولا في النشأة ولا حتى في التفضيلات والأمزجة، فـ«جبريل» رجل نحيف طويل القامة له بشرة قمحية وشعر خشن، ويتحدَّث العربية بلكنة كردفانية لم تفارقه طوال حياته على الرغم من السنوات الطويلة التي عاشها في مدينة «الخرطوم»، هو حادُّ الطبع قليلًا، نشط ومتطلِّع وبه قدرٌ من التشاؤم كبير، وليس «فتح الله فراج» عكسه في كلِّ شيء، ولكنه يتميز بشخصية حالمة وبه حُبٌّ للمال لا يمكن أن تخطئه عين، ولو أنه أكثر فقرًا من صديقه «جبريل»، فلدى «جبريل» عربة كارو وحمار وقطيع صغير من البهائم، أمَّا هو فلا يمتلك سوى قفص الدجاجات البلديات. ربما كان «فتح الله فراج» أصغر عمرًا من «جبريل»، قد يصغره بخمس سنوات، لا

أحد يعرف عمريهما، ولكنه يُرى أكبر بكثير منه، نسبةً لبياض شعره والتجاعيد المبكرة على وجهه، وهو يعزو ذلكَ إلى الملاريا الخبيثة التي أصابته وهو صغير وكادت أن تودي بحياته. «جبريل» و«فتح الله» أمِّيَّان، لا يفكَّان الخط، كلاهما لم ينل حظًّا من التعليم.

وُلد «فتح الله» وترعرع في مدينة «الخرطوم» من والدٍ فقيرٍ كان يعمل في مزرعة لرجلٍ إنجليزيٍّ ثريٍّ بشاطئ النيل على أرض تُسمَّى «كافوري» بالخرطوم بحري، فلقد وُلد «فتح الله» بالمزرعة ذاتها ونشأ وترعرع فيها، في كوخٍ صغيرٍ من العُشب الموسميِّ والطين، ولم يفكِّر والده في إدخاله المدرسة، فكان همُّه أن يصبح مزارعًا جيِّدًا ويحلَّ محلَّه في المستقبل عندما يعجز عن العمل، وبذلك يضمن مستقبله وهو طفله الوحيد. يجب ملاحظة أننا هنا نتحدَّث فقط عن الأب، ولم نأتِ على ذكر الأم، كما أظنُّ أن الوقت قد حان لكي نفصح قليلًا عنها، وأظنُّ القارئ الذكيَّ قد خمَّن من تكون أمُّه أو ما صفتها، ولكن الكاتب الماكر هو الذي يخيِّب ظنَّ القارئ دائمًا، ويُفشِل كلَّ توقعاته؛ فالأمُّ هي بوضوح فتاة كانت تسكنُ في الجوار، ويعني ذلكَ أنها ابنةٌ لرجلٍ ثريٍّ آخر، ليس أوروبيًّا بل من سكان البلد الوطنيين، هم نفرٌ من الأثرياء الذين استفادوا ممَّا ترك الاستعمار الإنجليزيُّ في أيديهم من مواقع سياسية حساسة وأراضٍ شاسعة ومال وفير، فعاشوا كالأباطرة، وفي ظنِّهم أن النقود والحياة الرغدة الكريمة تكفي للسيطرة على الكون خارج البيت وداخله أيضًا، وأن الفتيات الصغيرات المراهقات يستعضن بها عن الحاجة إلى إشباع الجسد؛ وبذلك يهمل الآباء الأثرياء حاجات بناتهن الحقيقة بل لا ينتبهون إليها في الواقع، والصبيات النزقات — في الغالب — يعرفن سبل الحياة خيرًا من آبائهن، ومن ثمَّ يشققن طريقهن في مسالك الحياة الوعرة بأنفسهن، تقودهنَّ غريزتهنَّ المباركة وجنون الجسَد. فهذا يعتبر تحليلًا

معقـولًا لحالـة أمٍّ فتـح اللـه فـراج فتـح اللـه، التـي لم يحـكِ لـه أبـوه عنهـا أو أيُّ شـخصٍ آخـر، بـل أصبـح كأنَّمـا ليـس لـه أمٌّ، لأن لا أحـد يعـرف عنهـا شـيئًا في كلِّ الحيـاة الدنيـا عـلى الأرض سـوى قابلـة بلديـة، وأمهـا، وأبـوه، والخواجـة «جـورج» صاحـب الأرض الـذي ظـلَّ مُندهشًـا منـذ الصبـاح الـذي رأى فيـه الطفـل الصغـير في قطـع بيضـاء مـن القطـن في كهـف عاملـه «فتـح اللـه»، إلى أن رحـل عـن الدنيـا الفانيـة في مدينـةٍ مـا في بـلاده بريطانيـا العظمـى.

إذن، لقـد تـربى «فتـح اللـه فـراج فتـح اللـه فـراج» مـع والـده، وتحـت رعايـة الخواجـة «جـورج» والأغنـام التـي بالمزرعـة، ولم يـرَ أمَّـه في واقـع الأمـر وربمـا هـي أيضًـا لم تـرَه، وكـما أن الأب أيضًـا في واقـع الحـال لم يـرَ الأم، وهـذا فعـلًا وحقيقًـا وليـس مجـازًا. كلُّ شيءٍ حـدث في كامـل الغرابـة التـي تحـدث بهـا الأشـياء الغريبـة: بعـد يـومٍ شـاقٍّ مـن العمـل، دخـل «فتـح اللـه فـراج»، ذلـكَ الرجـل الأربعينـي العامـل في المزرعـة، المسـتقيم جـدًّا، الـذي ليسـت بذهنـه أسـئلةٌ ملتويـةٌ عـن الجنـس أو الكـون أو الديانـات أو اللـه، المؤمـن تمامًـا بمـا ورثـه مـن جـدوده المسـلمين، عـن الحـلال والحـرام والخـير والـشر والجـمال والقبـح، دون أيِّ نقـص أو زيـادة. صـلَّى العشـاء قبـل أن يدخـل كوخـه المنعـزل عـن بيـت صاحـب الأرض الأقـرب لشـاطئ النيـل وسـط بعـض أشـجار الفاكهـة، أطفـأ المصبـاح الزيتـيَّ الصغـير وتمـدَّد في اسـتعدادٍ نمطـيٍّ للنـوم. في تلـكَ اللحظـة بالـذات دخلـت فتـاة في الثامنـة عـشرة مـن عُمرهـا، نحيفـة، طويلـة، ذات شـعرٍ كثيـفٍ مسـدلٍ عـلى كتفيهـا، جميلـة، ناعمـة، تفـوح عطـرًا ورغبـة، ظنَّهـا جنِّيـةً نسـبةً لأنـه لم يـرَ سـوى ظـلٍّ أسـودَ أو شـبحِ أنثـى مظلـمٍ كالليـل يدخـل غرفتـه. وكاد أن يـصرخ، ولكنـه تمالـك نفسـه وبَسـمل وحَوقـل، إلا إن الفتـاة الصغـيرة الشـجاعة قـد طمأنتـه عندمـا قالـت لـه:

- «فتح الله»، أنا فلانة ابنة فلان جاركم.

- كويس، جاية بالليل تعملي شنو؟

- جاية عشانك.

تعتع ببضعة كلمات لا يدري معنى لها، بينما كانت تتقدَّم نحو سريره الفرديِّ العجوز. جلست قربه، ثمَّ حدث كلُّ شيءٍ بكلِّ بساطة، وفي مراتٍ كثيراتٍ أخريات، حتى إنه أصبح ينتظرها في جنونٍ عندما تغيب عنه لأيامٍ قلائل. لقد وقع في غرام شبحٍ مظلمٍ كالظل. ولو أنه لم يرَها في وضح النهار عندما أخذ يتجوَّل حول بيت أبيها ويراقب حركة الأسرة، إلا إنه كان متأكدًا من أنها هنالكَ وأنها ابنة هذا الفُلان، ولكنه لم يرَها أبدًا، أو إنها كانت تراه من موقعٍ ما ولا تريد له أن يراها، وظنَّ لحينٍ أنها كاذبة، وأنها فتاة تأتي من أسرةٍ أخرى أو من مكانٍ ما بعيدٍ عن منازل الجيران الأثرياء الذين يحيطون به، وأنها تخدعه لكي لا يعرف حقيقة أسرتها، ولحينٍ آخر ظنَّ أنها ليست سوى سيدةٍ من الخيال؛ مجرَّد فتاة صنيعة أوهامه ورغباته المكبوتة غير المحقَّقة في ظلِّ حياة عملية قاسية. ولو أنهما أحيانًا يقضيان وقتًا جيِّدًا في المؤانسة والحكي عن الأسرة والحياة، وقد عرفت عنه الكثير وعرَّفَته أيضًا بتفاصيل أسرتها، وقالت له إنها في وضعٍ أقرب للسجينة في بيت أبيها، وإنها تهرب إليه من المنزل هروبًا وبحيلٍ معقدَّة، فوالدها لا يثق في واحدةٍ من بُنيَّاته ولا في أمِّهن.

ثمَّ غابت لعدة أشهر ثمَّ أتته في ليلةٍ مظلمةٍ بالطفل، أرضعته أمامه ثمَّ تركته له وفي فمه «بزازة» مملوءة باللبن، ثمَّ اختفت تمامًا وللأبد. لولا وجود الطفل بالفعل من دمٍ ولحم، لظنَّ أن الأمر لم يكن سوى حلم، ولولا أنه لا يمكن أن يكون هنالكَ طفل من غير أن تكون له أم، لآمن بأن طفله هذا بلا أم. فمن هي أمُّه، ما لونها، ما اسمها، ما شكلها؟ لم تترك الأمُّ له من ذكرَى ماديةٍ غيرَ رائحةِ جسدها التي لم تغادر أنفه قط، وهيئتها التي هي أشبه بظلٍّ ثقيلٍ أو شبحٍ في جسد

فتـاة. هـذه هـي قصـة أمِّـه باختصـار.

عندمـا بـاع صاحـب الأرض الخواجـة «جـورج» أرضـه وقـد بلـغ مـن الكـبر عتيًّـا، وأراد العـودة إلى بـلاده خاصَّـةً بعـد أن نـال السـودان اسـتقلاله وقلَّـت امتيـازات الأجانـب، بـل أصبـح المواطنـون ينظـرون إليهـم كبقايـا لعـصر اسـتغلالٍ وظلـمٍ واسـتعمار، وخـاف الكثـيرون مـمَّا سـتأتي بـه الأيـام، وهـو واحـدٌ ممَّـن خافـوا. بـاع كلَّ شيءٍ بمـا فيـه بالطبـع كـوخ «فتـح اللـه» الأب، لأفـرادٍ مـن الأثريـاء التجـار والسياسـيين والـوزراء، الأمنـاء عـلى مـال الشـعوب الذيـن قامـوا بتشـييد فلـلٍ وعـماراتٍ شـاهقة عـلى أنقاضـه. عمـل «فتـح اللـه فـراج» خفـيرًا ببعضهـا، وظـلَّ يتنقـل بابنـه مـن عـمارةٍ تحـت التشـييد إلى أخـرى حتـى حـوالي ثلاثـين عامًـا؛ أيْ عندمـا بلـغ «فتـح اللـه فـراج» الثالثـة والثلاثـين. تـوفي «فـراج» الأب في عُمـرٍ لا يقـل عـن السـبعين سـنة، في ذلـكَ العـام كان الابـن في الثلاثـين مـن عمـره، وتـزوَّج بعـد عـدة سـنوات مـن فتـاةٍ ذكيـةٍ اسـمها «نـصرة» سـليلةُ أسرةٍ فقـيرةٍ يعمـل معظـم أبنائهـا في الجيـش، تمتـدُّ جـزور الأسرة إلى جنـوب الخرطـوم عـلى ضفـاف النيـل الأزرق.

ورث «فتـح اللـه» عـن والـده عشريـن دجاجـة بلديـة، وقفصًـا مصنوعًـا مـن السِّـلك النَّمـليِّ المُسـمَّى بـ«عـين القـط»، وهـو شـبكةٌ معدنيـةٌ رخيصـةٌ ومتينـة، سـعة القفـص القُصـوى أربعـون دجاجـةً بلديـةً وديـكًا واحـدًا، ثـمَّ رحـل مـن عـمارةٍ مـا تحـت التشـييد إلى «زقلونـا» حيـث التقـى هنالـكَ بـ«جبريـل» الجـزار، وتصادقـا.

جـاء «جبريـل» مـن قريـةٍ صغـيرةٍ تسـمَّى «أولاد أحمـد» تقـع جنـوب «هجليـج» في إقليـم «كردفـان»، وهـي بقعـةٌ مشـهورةٌ بإنتـاج البـترول، ولكـن قريـة «جبريـل» بالـذات بهـا آبـار نفـطٍ تـمَّ إغلاقهـا نهائيًّـا عندمـا اختلفـت «شـيفرون» الشركـة العابـرة القوميـة المنقِّبـة، مـع السـلطة السياسـية في الدولـة في ذلـكَ الحـين. ربمـا كان للعقوبـات الاقتصاديـة

الأمريكيـة عـلى الحكومـة السـودانية أثـرٌ غـير مبـاشر. عمـل «جبريـل» في صباه مـع «الفرسـان الخيالـة»، وهـم جماعـة مـن العُربـان تعمـل في شـكل مليشـياتٍ مسـلحةٍ في صـفِّ الحكومـة المركزيـة — وأحيانًـا لحسـابها الخـاص — ضـدَّ قـوات الحركـة الشـعبية والمليشـيات الحُـرة المتمـرِّدة عـلى السُّـلطة المركزيـة المنتـشرة والمسـيطرة عـلى تلـكَ البقـاع. وعـلى الرغـم مـن المكاسـب الكثـيرة، حيـث كانـوا يقتسـمون الغنائـم مـن ماشـيةٍ وسـلاحٍ وفي أحيـانٍ كثـيرةٍ بـشرٍ بدمهـم ولحمهـم، إلا إن المخاطـر كانـت أكـبر، لأنهـم أنفسـهم قـد يقعـون غنيمـةً لمسـلَّحي الحركـة الشـعبية أو المليشـيات القبليـة المُسـلحة، وقـد يواجهـون المـوت أو الأسر المهـين. ففضَّـل «جبريـل» أخـذ زوجتـه «ملكـة الـدار» وابنتـه الصغـيرة «شوشـايا» إلى «الخرطـوم»، حيـث يمكنـه العيـش كجـزار، وهـي مهنـةٌ يتخذهـا الكثـيرون مـن أبنـاء قريتـه بـ«الخرطـوم» ويكسـبون منهـا عيشـهم. خلفيتـه الرعويـة تمكِّنـه مـن إجـادة مهنـة الذبـح والسـلخ وتكسـير العظـام.

بـاع مـا لديـه من سـلاح لسـماسرة سـوف يبيعونه مـرة أخرى لمليشـيات الحـركات الشـعبية والمليشـيات المسـلحة الأخـرى، وبـاع أيضًـا الطفـل الذي اغتنمـه في إحـدى غـزوات الخيالـة مـن قريـة أفريقيـة صغـيرة جنـوب «نهـر العـرب» (تـم ذكـر ذلـكَ في الفصـل الأول مـن الروايـة)، ولـو أنـه كان يرغـب في أخـذه معـه للخرطـوم، إلا إن العارفـين نصحـوه بـألَّا يفعـل ذلـك، لأن الطفـل سـيهرب منـه في المدينـة الكبـيرة الشاسـعة، وليسـت لديـه سُـلطةٌ قانونيـةٌ لإعادتـه كـما هـو الحـال بقريـة «أولاد أحمـد»، ومـن الأحسـن أن يقـوم ببيعـه لأحـد الرُّعـاة الـذي أبـدى رغبـة في شرائـه، بـل كان يلـحُّ عـلى ذلـكَ نسـبةً لأنـه ليـس لديـه أبنـاء ذكـور ويحتـاج إليـه في رعايـة حيواناتـه والدفـاع عـن أسرتـه إذا تطلَّـب الأمـر، ومـن جهـةٍ أخـرى فـإن «جبريـل» سيسـتفيد مـن ثمـن بيـع الطفـل في مجابهـة متطلبـات حيـاة «الخرطـوم» الكثـيرة، ولـو أن الأمـر ليـس بالسـهل، لقـد نشـأت

علاقـة إنسـانية جميلـة بـين الطفـل والأسرة، وخاصَّـةً الصغـيرة «شوشـايا»، فقـد كانـت تحبُّـه جـدًّا، ونسـبةً لطيبـة روحـه والمـرح الـذي يتصـف بـه، وصوتـه الجميـل في الغنـاء، وسرعتـه في أداء الخدمـات دون تضجُّـر، كـما إنـه كان الأحـرف والأكـثر مهـارة في صيـد الأرانـب والحيوانـات الأخـرى، فاتخـذه «جبريـل» كابـنٍ ذكـرٍ لـه، ولكنـه لم يسـتطع أن يقايـض حاجتـه للـمال بمحبَّتـه للطفـل، وسـقط «جبريـل» في اختبـار القِيَـم، وبذلـك انتقـل «غـزال» مـن بيتـه إلى أسرةٍ أخـرى. وسـنأتي عـلى ذكـر تفاصيـل ذلـكَ في موقـع آخـر.

ركـب «جبريـل» وأسرتـه عـلى ظهـر شـاحنة نيسـان، اسـتفرغتهم وعـشرات الآخريـن في مدينـة «أم درمـان» عنـد السـوق الشـعبي، ودارت دوائـر الحيـاة المريـرة عليهـم، لينتهـي بهـم المقـام عنـد «زقلونـا» جـوار المـصرف الصحـي، ليـس بعيـدًا عـن «نيمـة» عـم «عبـد الرحيـم خـيري» الحـلاق.

كانـت «زقلونـا» في تلـكَ الأيـام منـازلًا عشـوائية مـن الخيـش والكرتـون والمشـمَّع والقـش، تزيلهـا السـلطات نهـارًا، ويُعيـد بناءهـا السـكانُ بالليـل، إلى أن تعبـت المحليـة وقامـت بتخطيطهـا وبيعهـا بأسـعار زهيـدة لآدميـين فقـراء سـيطروا عليهـا بوضـع اليـد والإصرار والمماطلـة.

العلاقـة بـين الرجلـين، مثـل العلاقـة بـين أيِّ رجلـين آخريـن، ولكنهـا لـدى «جبريـل» و«فتـح اللـه»، تقـوم عـلى عقـدٍ غـير مكتـوب، ولكنـه منفَّـذ بدقـة. إنهـما يسـتخدمان عربـة الـكارو التـي يمتلكهـا «جبريـل» ويجرُّهـا حـماره الفتـي، ويحـدث هـذا دون نقـاش أو ثرثـرة، فمنـذ اليـوم الأول الـذي قابـل فيـه «جبريـل» «فتـح اللـه» عنـد المـصرف يحمـل بسـتلة مـن الألمونيـوم بهـا بيـض مسـلوق، ويصيـح بصوتـه الخشـن: «جَنَـا جَـدَادْ، جَنَـا جَـدَادْ.» أخـذ «جبريـل» منـه بيضتـين، وشرع في التهامهـما، بينـما قفـز «فتـح اللـه» دون اسـتئذان عـلى سـطح عربـة الـكارو، صائحًـا:

- ممكن نحوم سوا؟ أنت تبيع اللحمة وأنا أبيع «الجَنَا جَدَادْ».

ردَّ إليه «جبريل» وهو يلوك البيض في فمه، ويتنحَّى مفسحًا مكانًا طيبًا لجلوس «فتح الله فراج» قربه على سطح عربة الكارو:

- وَمَالهُ!

آخر اليوم، وهما عائدان، عندما رفض «فراج» أخذ ثمن البيضتين، وهبه «جبريل» ربع كيلو لحمة ممَّا خصَّصه لأبنائه، ومنذ ذلكَ الحين، يأخذ «جبريل» بيضتين مسلوقتين، ويحمل «فتح الله فراج» ربع كيلو من لحم الضأن إلى أسرته. هي قسمة غير عادلة ولكن ارتضاها الرجلان في صمتٍ ومحبَّة، وأكَّدت عليها إرادة البقاء وشراكة الحياة الخَيِّرة، وكان شعار الرجلين الحكمة القائلة: «الفقراء تقاسموا النبكة».

خُلُقُ الْمَال

في الكمبــو الكبــير عنــد سُــوق الدهابــة، يمكنــه أن يصيــب نجاســةً، حيـث يوجـد بعـض اللوطيـن والسـيدات الـلائي يقمـن بهـذا العمـل، ليـس مـن أجـل المُتعـة ولكـن مـن أجـل التنجيـس، حيـث تُعتـبر النجاسـة إحـدى مُدخـلات وأدوات العمـل الميتافيزيقيـة في تعديـن الذهـب؛ بـل إنهـا أداةٌ لا تقـلُّ أهميـةً عـن المعـاول والطواحـين والتعاويـذ والمـاء، لأن بدونهـا لا يمكـن الحصـول عـلى الذهـب عـلى الإطـلاق.

لم يكـن في بـال «فتـح اللـه» أن يخـبر زوجتـه بموضـوع بيضـة الديـك الذهبيـة، لـولا إنهـا فاجأتـه يتفحَّصهـا في إعجـابٍ بالـغٍ بالحجـرة الكبـيرة، ولأنـه أيضًـا لا يعـرف كيـف يكـذب أمـام زوجتـه، لأن لديـه يقينًـا تامًّـا بأنهـا تعـرف كلَّ شيء في الحيـاة الدنيـا وفي الآخـرة أيضًـا، ويؤمـن إيمانًـا مطلقًـا بـأن «نـصرة» تعلـم مـا يـدور بخلـده وخلـد ولـده وبنتـه، وبالإضافـة إلى إنهـا تجيـد القـراءة والكتابـة وعبقريـة في الحسـاب، فـإن «نـصرة» ترمـي الـودع وتقـرأ الكـف، عـلى حـدِّ قولـه: «أبُـونْ عريـيـفْ!» أي العارفـة بـكلِّ شيء، المدركـة لمـا لا يُـدْرك، التـي لا تخفـى عليهـا خَافيـةٌ، ولا يمكـن خداعهـا، وتسـتطيع — إذا شـاءت — أن تخـدع مـن ومـا تريـد، ويسـمِّيها بعـض أفـراد أسرتهـا الكبـار في السـن «رضيعـة الجَـدَّة أمـاني» ولذلـك قصـة سـتُروى لاحقًـا. هـذا لا يمنـع أنهـا تضـع لـ«فتـح اللـه» ألـف حسـاب وتخـشى ردود أفعالـه الرعنـاء، فهـو لا يـتردَّد في ضربهـا وبعنـف، قِيـل إنـه طلَّقهـا طلقـةً واحـدةً مـن قبـلُ في ظـروفٍ غامضـةٍ، ربمـا سنحكي ذلـكَ لاحقًـا وقـد ننسـه.

تفحَّصـت البيضـة جيِّـدًا، اختبرتهـا بأسـنانها ولسـانها وسـكينة المطبـخ، نقرتهـا بالملعقـة والحجـر، قالـت لـه بصـوتٍ خفيـضٍ مبحـوح، في أذنـه اليمنـى، لأن اليـسرى تعلـم وحدَهـا أنهـا عاطلـة: «دهـب، دهـب يـا أبـو الـسر، دهـب عديييبيـل!»

عندمـا وصـلا إلى الصائـغ بعـمارة الذهـب بالسـوق العـربي بـ«الخرطـوم»، كانـا قـد تحدَّثـا بصمـت، كلٌّ في دواخلـه، كان هـمُّ «نـصرة» الـذي لم تشـأ أن تعـبِّر عنـه الآن، هـو: «إذا صـدق أنَّ هـذا الـشيء كان ذهبًـا، فلمـن تـؤول ملكيتـه؟ فالديـك الـذي باضـه هـو ديـك المرحـوم «جبريـل»، بالتـالي أولى بـه أولاد المرحـوم، ولكـن دعنـا نـرى مـا يقـول الصائـغ أولًا، ربمـا يكـون الـشيء ليـس سـوى نحـاس أصفـر لا غـير.»

سـأله الصائـغ وفي فمـه ابتسـامة ماكـرة، بعـد أن قـضى مـا يُقـارب

نصف الساعة يختبر الشيء بالمحاليل الكيميائية والنار، من ثمَّ وزنه:

- من وين جبت الدهب دا؟

شرح له بالتفصيل المملِّ كيف إنه ذهب إلى الصحراء في صحبة صديقه «جبريل» للتنقيب العشوائيِّ اليدوي، وأنهما عثرا عليه في مغارة كبيرة يبدو أنها كانت معبدًا أو بيتًا ملكيًّا لأجدادنا القدماء، حدث ذلكَ قبل سبعة أشهر من الآن، ولكنه لم يشأ أن يعرضه إلَّا الآن.

- كويس، وين صاحبك؟

قال دون تردُّد وكأنه يحفظ قصَّةً ويقوم بتسميعها عن ظهر قلب:

- مات، قتله الشيطان حارس الذهب، رفسه في بطنه، وعندما وصلنا «الخرطوم» أسهل ومات.

ولفَّق للصائغ قصَّة الحصان الذهبيِّ التي قصَّها لهما البجاوي «أونور سدنا» عند شجرة عم «عبد الرحيم»، فقد قام بتحويل الحصان إلى جحشٍ صغيرٍ لسبب لا يدريه هو نفسه.

قال الصائغ متأثرًا:

- عليه الرحمة، كويس، وين عياله؟

قال دون تردُّد، مشيرًا إلى «نصرة»:

- دي زوجته الحاجَّة «نصرة».

تناول آلة حاسبة وأخذ يعمل فيها للحظات ثمَّ قال مخاطبًا «فتح الله فراج فتح الله»:

- 95 مليون و567 جنيه و20 قرشًا.

ثم أضاف:

- عندك بطاقة شخصية أو أي ورق ثبوتي؟

أجــاب أن لا ولكــن بإمكانــه أن يحــضر مــن يمتلــك الأوراق، ولكــن زوجتــه قالــت مقاطعــة:

- أنا عندي بطاقة شخصية.

فنظـر إليهـا «فتـح اللـه» في اسـتغرابٍ ودهشـةٍ كادت أن تفضحـه أمـام الصائـغ، بـل كاد أن يسـألها باسـتنكار:

- من أين لك بها؟

أجابتـه في سرِّهـا، بأنـه إذا كان لديـه أخٌ في رتبـةٍ عسـكريةٍ كبـيرةٍ كرتبـة أخيهـا أو أقـلَّ منـه قليـلًا، لمـا سـأل هـذا السـؤال السـخيف الـذي سـيطيح بهـما إذا كان الصائـغ يقـرأ الصمـت ويعـي مـا لا ينقـال، كـما تعيـه هـي.

ردَّ عليها بلغة الصمت ذاتها:

- أخوك البغل وزوجته البغلة.

قالت بحنق — لولا الصمت لطلعت الكلمات حامية كالنار:

- أحسن ألف مرة من أبوك الشحاد.

قال وهو يكاد ينفجر من الغيظ:

- أبوي أنا يا «نصرة»؟

سـجَّل الصائـغ البيانـات، وكتـب شـيكًا بالمبلـغ وأعطـاه لأحدهـم، خـرج بالشـيك مهـرولًا ثـمَّ عـاد وفي يـده كيسًـا كبـيرًا مملـوءًا بالمـال، قـام الصائـغ

بعدِّ المبلغ أمامهما، وأخذ توقيع المرأة، وبصمات «فتح الله فراج» الذي اعترف بعدم إجادته للقراءة والكتابة، ولكن ليست البصمة بعيب، ولا الأمِّيَّة، فـ«الرسول صلى الله عليه وسلم كان أمِّيًّا.»

قطع الصائغ فحيح حوارهما الصامت عندما صاح:

- يا ولد نادي عمك «طيفور» بتاع التاكسي.

انحشرا في تاكسي الأجرة العجوز، وانطلق بهما نحو «زقلونا» جنوب غرب المصرف الكبير، لأوَّل مرةٍ في حياته يركب عربة تاكسي، كان يمسك كيس النقود في يده بقوة، يقبض عليه بشدةٍ كما لو أنه سيطير في الهواء قافزًا من الشباك، وهو لا يصدِّق أن بيديه الآن 95 مليون جنيه، هو لم يقبض في يديه من قبل ألف جنيهٍ كاملات في دفعةٍ واحدة، لا يدري ماذا يفعل بكلِّ هذه النقود، أو ربما كان الوقت مبكرًا للتفكير في مشروعات تستوعب هذا المبلغ الكبير من المال، ولكنه أيضًا لم يستطع أن يتجنَّب صورة صديقه «جبريل» وهما على الكارو يبيعان البيض، ثمَّ مرَّ عليه الفيلم اللعين كما الكابوس:

«في الأصل كانا يعملان «دقاقين» وهي الوظيفة التي تُطلق على الذين يقومون بتقعيد بئر الذهب؛ أيْ المنجم، يعني حفرها وإعدادها، ومعالجة الصعوبات التي بها والمعضلات من حجارة الجرانيت إلى العروق الزائفة، وقد تعلَّما ذلكَ بسرعة، ولو أن العمل كان خطرًا لاحتمال التعرُّض إلى نقصٍ كبيرٍ في الأكسجين في جوف البئر أو انهيار البئر عليهما وبالتالي موتهما تحت الأنقاض، ويحدث ذلكَ كثيراً. وأخيرًا تمت الاستجابة إلى طلبهما المتكرر في أن تستبدل بوظيفتهما وظيفة أخرى: «جرارين» أو «رضاضين» أو «نقالين» أو حتى في الميس، المهم أن يكونا معًا، وألَّا يعملا في مهنة «دقاقين» مرة أخرى. ولكن طبيعة العمل الجديدة ليست ببعيدة عن الوظيفة الأولى، ولكنهما هنا لا يقومان بأي حفرٍ أو تقعيد، فقط ينزلان في القبر النوبيِّ القديم

مستثمرين ما يتمتعان به من شجاعة وروح مغامرة وحبٍّ للمال، وأمانتهما المعهودة، حيث كانا قد عملا بنصيحة «أونور سدنا» البجاوي، كما أن السمعة الجيدة التي حازا عليها في مغامرة مغارة جبل «عضو الكلب» في أيامهما الأولى (سنحكي عن ذلكَ مستقبلًا) والخبرة الكبيرة جدًّا في العمل داخل الآبار العميقة، مثَّلتا دافعًا طيبًا لربِّ العمل «الجلابي» للإصرار على أن يختارهما الاثنين بالذات، ولو أن العمل في القبور النوبية يعتمد في الأساس على ثلاثة عوامل: الشجاعة، والأمانة، والمعرفة بالقرآن الكريم، حيث إن تلاوة بعض الآيات القرآنية على نجاسة تُبعد الشياطين والعفاريت الذين يحرسون كنوز أموات النوبة، ولو أنهما أمِّيَّان إلا إن «جبريل» عُرِف بالتقوى، وقد شاهده الناس يؤدِّي الصلوات في أحيانٍ كثيرة، حتى داخل المعسكر الموبوء بكلِّ ضلالات الدُّنيا، فكيف يؤدِّي الصلاة إذا لم يكن يحفظ القرآن؟ ولو أن «جبريل» احتجَّ احتجاجًا عنيفًا على فكرة دخول القبر النوبيِّ على «نجاسة»، لقد فعلها مرةً في مغارة جبل «عضو الكلب» عندما صحبا الخواجة الغريب، ولو أنه كاد أن يقنع «الجلابي» في ذلكَ الحين بأن الخواجة أصلًا نجس، فالخواجات لا يقومون بالاغتسال غسل الجنابة بعد ممارسة الجنس، وبإمكان نجاسته المتراكمة منذ بلوغه أن تطرد رتلًا من الشياطين والأبالسة، ولكن «الجلابي» لم يقتنع بحجته، ففعلها طمعًا في المال الذي تحتاج إليه أسرته، ولكنه يتردَّد الآن كثيرًا في فعلها مرة أخرى. «جبريل» لم يستحمَّ منذ أسبوعٍ تقريبًا نسبةً لندرة المياه في الصحراء وغلاء سعرها، إلا إنه كان يحافظ على الوضوء مرةً في اليوم ثمَّ يؤدِّي بقية الصلوات بالتيمُّم، ولكن كيف يُطلب منه أن يُصاب بنجاسةٍ كلما كان هنالكَ عملٌ صعبٌ في مغارةٍ أو كهفٍ أو قبر؟ ولكن عندما تحدَّث معه الجلابي وشرح له خطورة أن يدخل تلكَ الأمكنة وهو طاهر، وأنه قد يُصاب بمسٍّ من الجنون، وأنه يحتاج لقراءة بعض سورٍ من القرآن الكريم، وعليه ألَّا يقرأها وهو طاهر متوضئ

وإلَّا قرأ الجنُّ الحارس للذهب معه نفس الآيات، فمن الجنِّ ما هو مسلم وحافظ للقرآن، بالتالي لن يكون لها تأثير، وهذا متعارفٌ عليه ومؤكد، وعليه ألَّا يخالف ما يُعرف حتى لا يحدث ما لا تُحمد عقباه. في الكمبو الكبير عند سُوق الدهابة، يمكنه أن يصيب نجاسةً، حيث يوجد بعض اللوطيين والسيدات اللائي يقمن بهذا العمل، ليس من أجل المُتعة ولكن من أجل التنجيس، حيث تُعتبر النجاسة إحدى مُدخلات وأدوات العمل الميتافيزيقية في تعدين الذهب؛ بل إنها أداةٌ لا تقلُّ أهميةً عن المعاول والطواحين والتعاويذ والماء، لأن بدونها لا يمكن الحصول على الذهب على الإطلاق.

تمَّ تزويدهما بفانوسين كهربائيين يتم ربطهما بحلقة معدنية حول الرأس، يعملان بحجارة البطارية الجافة، كما رُبِط الرجلان بحبلين من وسطهما، وذلكَ تحسُّبًا لأيٍّ من الكوارث غير المحسوبة. وعادةً تُعتبر القبور النوبية القديمة أكثر أمانًا، حيث إنها لا تنهار إلَّا نادرًا، فهي أقرب للحجرات المستطيلة، وتمتاز بأنها واسعةٌ جدًّا من الداخل وليس بها روائح كريهة، فقط يخاف الناس من الشياطين التي تحرس الكنوز كما سلف ذكره، و«جبريل» سيقاومها بالنجاسة وبآيات من القرآن الكريم فيبطل سحرها.

وهما يلِجان القبر، توقَّفا قليلًا، وضع «جبريل» كلتا كفَّتيه على وجهه، ثمَّ أخذ يتلو في صمتٍ وخشوع: «بسم الله الرحمن الرحيم، الذابحُ مذبوحٌ، والآكلُ مأكولٌ، وكلُّنا من التراب وإلى التراب. يومٌ ليك ويومٌ عليك. لطفكَ يا ربي. الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر.» كانت تلكَ تعويذته وآياته الوحيدة المباركة التي يحفظها، ويصلِّي بها صلواته كلها، واستخدمها عند ذبح بهائمه عندما كان جزارًا، لا يعلم ممَّن حفظها أو متى ولا كيف، ولم يهتمَّ كثيرًا أهي من القرآن الكريم أم من أيِّ كتابٍ مقدَّسٍ آخر أو أوحى إليه بها شيطانٌ ماكر، فمنذ أن

اكتمل نضجه وأحسَّ بالحاجة للصلاة ولتعويذةٍ تحميه من الشرور وتبارِكُ حياته، وجد ذلكَ النصَّ في رأسه فأحبَّه واستخدمه.

كان القبر كما توقَّعاه متسعًا، ترقد المومياء في سكونٍ على حوضٍ من الصخر أشبه بتابوت، حولها تتناثر الأوعية الفخارية والتماثيل الصغيرة «الشوابيت» التي على شكل بشرٍ يقومون بخدماتٍ ما، كانوا يعرفون أن عليهم نزع الخواتم التي بأصابع الموتى، وإذا كان هنالكَ قناع من الذهب أيضًا عليهم نزعه، ثمَّ أخذ كلِّ التماثيل المعدنية، وفتح الجرار المغلقة وأخذ محتوياتها، أو إذا لم تكن ثقيلةً فالخروج بها، وكان الكثير من ذلكَ متوفرًا، ويبدو أن الميت كان ثريًّا بصورةٍ معقولة، فعثرا على جرَّةٍ صغيرةٍ بها خاتمان من الذهب وبعض الأدوات الحجرية، لم يلاحظا تماثيلَ معدنيةً أو أقنعةً ذهبية، ولكن يُوجد بالقبر قطٌّ محنطٌ وثعبانٌ محنطٌ بالقرب منه. كان الثعبان بكامل هيئته، حتى إنهما ظنَّا أنه حي. قال له «جبريل» إن الأشياء التي وجداها بالقبر كثيرةٌ جدًّا، وإن من حقِّهما أن يخفيا بعضها. إلا إن «فتح الله فراج فتح الله» أقنعه بأن ذلكَ ليس معقولًا، إن التاجر سيقوم كالعادة باستخدام الجهاز الكاشف للمعادن لفحص ملابسهما جميعًا، وإن الجهاز يمكنه أن يكتشف أصغر قطعةٍ ممكنةٍ من أيِّ معدنٍ كان، وحينها ستكون الفضيحة.

أخيرًا اقتنع «جبريل» بأن السُمْعة الحسنة خيرٌ من المالِ الوفير، ملآ جوالًا صغيرًا من متعلقات الميت، وبعد ساعةٍ كاملةٍ كانا في السطح. كالعادة قاما بنزع ملابسهما جميعًا وبقيا بتلك الداخلية فقط، تمَّ فحص ما بين الفخذين أيضًا، ثمَّ أعيدت لهما ملابسهما، وقام الأمين أمام الجميع بحصر الموجودات من تماثيلَ ومعادنَ نفيسة، وكان يقدِّر أثمانها مباشرةً من رأسه، أمَّا الذهب فإنه يقوم بوزنه، ثمَّ يوزِّع على الفريق كله، وهو يتكوَّن من عشرين فردًا، والأمين جزءٌ من هذا

الفريـق. الثلـث للجـلابي، وهـو الاسـم الـذي يطلقونـه عـلى التاجـر المموِّل صاحـب الأجهـزة، الثلـث الآخـر للأجهـزة والطعام والـشراب والنقـل وغيرها مـن التسـهيلات، والثلـث الأخـير للعـمال جميعهـم يتقاسـمونه بالتسـاوي طالمـا كانـوا متواجديـن بالموقـع، بالتـالي مـا حصـلا عليـه كان لا يسـوى سـوى قليـلٍ مـن المـال يسـير. قـال لـه «جبريـل»: «الشـغل دا سـاقية جُحـا مـن البحـر للبحـر، وأخـيرًا نرجـع «الخرطـوم» نـأكل العندنـا واللـه كريـم.»

كان «فتـح اللـه» ينتظـر هـذه الجملـة مـن صديقـه، فلقـد طلـب منـه مـن قبـل أن يغـادرا، ولكـن «جبريـل» كان يطمـح في أن يجـد «مفاجـأة» مـن الذهـب كبـيرةً يمكِّنـه نصيبُـه منهـا مـن الخـروج مـن دائـرة الفقـر. والآن جـاء الطلـب منـه شـخصيًّا، فأخـذا نصيبهـما، وهـو قليـلٌ مـن المـال وغـادرا. عندمـا أصبحـا عـلى تخـوم مدينـة «الخرطـوم» أسـهَلَ «جبريـل» للمـرة الأولى، كان يشـكو مـن ألمٍ حـادٍّ ببطنـه: «أحـسُّ بسـكاكين في بطنـي.»

مـما لا شـكَّ فيـه أن «فـراج» قـد لاحـظ اختفـاء الخاتمـين عنـد عـرض موجـودات القـبر النـوبي، ولم يشـكَّ في أنهـما قـد اختفيـا بمهـارات صديقـه «جبريـل كـيري»، لأنهـما فُتِّشَـا وفُحِصـا فحصًـا كامـلًا ودقيًقـا بالجهـاز وهما شـبه عاريـين، كـما إن ملابسـهما أيضًـا تعرَّضـت للفحـص الدقيـق، ولكنـه فضَّـل الصمـت عـلى السـؤال الـذي قـد يقـود لتشـكُّك الأمـين فيهـما، وكان الخاتمـان هـما الوحيـدان المصنوعـان مـن الذهـب، وبقيـة المنقـولات كانـت مـن معـادن أخـرى ومـن الحجـارة. وقـد لاحـظ أيضًـا أن «جبريـل» كان يبحـث في مخرجـات بطنـه كلـما داهمـه الإسـهال، وتلـكَ هـي التـي جعلتـه يشـكُّ في أن صديقـه «جبريـل كـيري» قـد بلـع الخاتمـين.»

قطع سليل الفيلم صياح السائق: «قالوا الدهب كتير في الشمالية؟»

لم يتحدَّثـا، كانـا خائفـين مـن سـائق التاكسي الـذي أخـذ يثرثـر معهـما عـن تعديـن الذهـب والأرزاق، وأنـه لا يمانـع أن يبيـع عربتـه ويذهـب للتنقيـب، وعرفـا بذلـكَ أن الصائـغ قـد أسرَّ إليـه بالموضـوع، ويبـدو أن

«نـصرة» اسـتخدمت ذكاءهـا المكنـون فجـأةً عندمـا طلبـت منـه أن يتوقَّف في «زقلونا-شـمال» متعلِّلـةً بأنهـما يريـدان زيـارة بعـض الأقـارب قبـل أن يذهبـا لبيتهـما، ولقـد فهـم زوجهـا اللعبـة وفهمهـا أيضًـا سـائق التاكـسي، ولكـن ليسـت لديـه حيلـةٌ غـير أن يطلـب منهـما أن ينتظرهـما إلى حـين قضـاء أمرهـما مـع الأقـارب ليأخذهـما لمنزلهـما، إلا إن «نـصرة» رفضـت بشـدةٍ وانضـم إليهـا «فتـح اللـه» بعـد قرصـةٍ سـاخنةٍ في فخـذه. أعطـت «نـصرة» السـائق عشريـن جنيهًـا مـن محفظتهـا الخاصَّـة، تـركا السـائق محبطًـا، وتوغَّـلا في عمـق «زقلونـا» راجلـين، يـد «فتـح اللـه فراج» ممسـكة الكيـس بقـوة، وخيالـه يسـبح بعيـدًا بعيـدًا في المسـتقبل الـذي لا معـالم لـه، ولكـن مؤهلاتـه في كفِّـه الآن.

عندمـا دخـلا المنـزل، وجـدا «مـيرم» والصغـير «فـراج» يـأكلان مـا تبقَّـى مـن طعـام الأمـس. كان «فـراج» قـد عـاد مـن الروضـة القريبـة مـن البيـت لتنـاول وجبـة الإفطـار، كعادتـه مسـتاءً مـن كلِّ شيء: الروضـة والمدرسـين والتلاميـذ، ويريـد الطعـام بـأسرع مـا يكـون، ولكـن لم تجـد «مـيرم» شـيئًا طازجًـا تطعمـه بـه، وهـي أيضًـا لم تـدرِ لِـمَ لَـمْ تـترك لهـا والدتهـا كالعـادة مـصروف الفطـور، لقـد خرجـت هـي ووالدهـا عـلى عجـلٍ لم ينتبهـا لـشيء، ولم يقـولا لهـا إلى أيـن هـما ذاهبـان، بـل لم تـردَّ والدتهـا عـلى شـكواها مـن إنهـا تحـسُّ بـألمٍ في بطنهـا، وتعنـي بذلـكَ أنهـا تحتـاج لبعـض الفـوط الصحيـة، ووالدتهـا دائمًـا مـا تـولي ذلـكَ جُـلَّ اهتمامهـا وتضعـه مـن ضمـن الأولويـات، فالفـوط أهـمُّ مـن الطعـام. لم تذهـب اليـوم «نـصرة» لمنـزل أخيهـا حيـث تعمـل في بيتـه مسـاعدةً لزوجتـه الكسـول السـمينة المنعَّمـة، لـو كانـت تمتلـك جهـاز موبايـل لاتصلـت بهـا وأخبرتهـا بأنهـا مرهقـةٌ بعض الـشيء اليـوم ولا تسـتطيع الحضـور وعليهـا أن تدبِّـر حالهـا بدونهـا، عـلى الأقـل؛ أن تأخـذ حمامهـا وحدهـا.

أعطـت ابنتهـا «مـيرم» بعـض المـال مـن الكيـس وطلبـت منهـا أن

تذهـب إلى سُـوق سـتة وتـأتي بمسـتلزمات الإفطـار والغـداء. لاحظـت البنـت أن أمَّهـا أعطتهـا مبلغًـا كبـيرًا مـن المـال، يسـتخدمونه في العـادة مصروفًـا لأسـبوعٍ كامـل، وطلبـت منهـا أن تشـتري «أولويـز Always» بـدلًا عـن القطـن الطبـي، ونصـف كيلـو لحمـة: «عليـك اللـه جيبـي معـك سـلاطة خضـار، وسـكر وبصـل.» اعتـبرت البنـت أن أمَّهـا سـتأخذ هـذه الطلبـات إلى بيـت خالهـا بـ«كافـوري»، وإذا صحَّ افتراضهـا، فكيـف لا تحـدِّد لهـا أمَّهـا سـعر وكميـة السـلاطة، ولا كميـة السـكر والبصـل؟ عـلى كلٍّ «مـيرم» لديهـا خـبرٌ جميـل لأُمِّهـا، وسـيعجبها كثـيرًا، وسـتقوله لهـا عندمـا تعـود مـن سُـوق سـتة أو «سُـوق النوبـة» كـما يسـمونه. قالـت «نـصرة» لـ«فتـح اللـه» زوجهـا الـذي مـا زال ممسـكًا بالكيـس:

- القروش دي حلال ولا حرام؟

نهض مندهشًا كالملسوع:

- نعم؟

قالـت لـه وهـي تجلـس قربـه، وتلمسـه عـلى يـده في لطـف، وتنظـر إليـه في عينيـه:

- القروش بتاعة الدهب دي، حقتنا ولا حقت أولاد «جبريل»؟

قـال وهـو يرخـي قليـلًا مـن قبضتـه عـلى الكيـس ويطلـب من «فـراج» الـذي أكمـل طعامـه أن يغسـل يديـه وفمـه ويعود للمدرسـة:

- أنت رأيك شنو؟

صمتت قليلًا وهي تنظر للكيس المنتفخ المشحون بالملايين:

- نقاسمهم القروش مع أولاد «جبريل».

بلع ريقه وهو يقول:

- ونقول لهم دي قروش شنو وقروش منو وجبناها من وين؟ ح يقولوا أبوهم ترك معاي كنز بتاع ذهب، ح يقولوا أنا كتلت أبوهم واستوليت على الذهب وحاسس بالذنب عشان كدا أديهم قروش من قروش أبوهم، مش كدا؟

واحتارت في الأمر، هل يقولان لهم إن ديكهم باض ذهبًا وهذا جزءٌ من سعر بيضه، بأيِّ حقٍّ يحتفظون هم بنصف المبلغ؟ إمَّا أن يعطياهم المبلغ كاملًا ويعتذرا لهم وإمَّا أن ينسيا الأمر، ولكن «فتح الله» حسم الإشكال بجملةٍ واحدةٍ شرسة:

- الموضوع دا انسيه يا «نصرة»، أنا حاتصرف، ولا تجيبي سيرة الدهب أو البيض لأي مخلوق!

فتح شنطة الحديد الكبيرة ذات اللون الأخضر التي يحتفظ فيها بحاجياته الضرورية، مثل ورق المنزل، وشهادات ميلاد الأطفال، وقسيمة الزواج، وجلابية والده وأدوات الزراعة، والمنشار الكهربائي الصغير الذي أعطاه إيَّاه الخواجة في الماضي ليقطع به الشجيرات، وعندما بيعت الأرض ولم تكن هنالكَ شجيرات تحتاج لتشذيب تركه له الخواجة للذكرى أو قد يفيده في شيءٍ ما. في الحقيقة هو الذي لم يُعِدْه للخواجة، ولم يسأله عنه الخواجة فيما بعد. وضع النقود هنالكَ واحتفظ بالمفتاح، ولكنه عاد وفتح الحقيبة الحديدية مرةً أخرى، أخرج رزمةً من المال لا يدري كم هي، حسب منها عدة أوراق بعشوائية، أدخلها في جيبه، دفع بالباقي إلى حِجر زوجته «نصرة»، قفل الشنطة بالطبلة وخرج دون أن يقول كلمةً أخرى.

حِكَايَةُ الْبِنْتِ وَالْوَلَد

لم تكن هي المرة الأولى التي تذهب «ميرم» معه إلى البيت، فقد كانا يلتقيان به كلما سمحت لها والدتها بزيارة أختها الكبرى غير الشقيقة وهي أمُّه «آمنة». ربما كانت الأمُّ على علمٍ بأن «أحمد» يختلي بابنتها، وهذا ما جعلها لا تسمح لها بزيارة أختها «آمنة» إلَّا في أيام الحيض، حيث تضمن أن «أحمد» لن يقوم بفعل ما لا تُحمد عقباه. هو شخصٌ مؤدَّبٌ ومحترم، وابنتها أيضًا مؤدَّبةٌ ومحترمةٌ وصغيرةٌ وليس لها تجارب، ولكن الشيطان بين الناس، وكلُّ الناس الذين لديهم تجارب كبيرة الآن، كانوا في يومٍ ما مثل ابنتها هذه دون أية تجارب.

تحسُّ «نصرة» بقلبها محترقًا، وكأنما هو مصلوبٌ على جمرةٍ موقدة، كان جسمها كلُّه مخدَّرًا، وليس لديها الرغبة لفعل أيِّ شيءٍ أو سماع أيِّ شيء، كانت عقدة الذنب تسيطر عليها تمامًا، على الرغم من أنها لا تدري بأن «فتح الله فراج» زوجها قد تحصَّل على بيضتين أخريين للديك في هذا الأسبوع، قبل أن تحضر التوأم وتأخذاه إلى بيتهما، وأنهما من الذهب التبر النقيِّ، وأنه أخذهما لصائغٍ آخر وباعهما بمئة مليون جنيه عدًّا ونقدًا. والأسوأ في الأمر أن «فتح الله» يفكِّر بصورةٍ أغرب، لأنه افترض — وهو محقٌّ في افتراضه— أن هذا الديك الغريب قد باض عشرات القطع الذهبية بمنزل المرحوم صديقه «جبريل»، وهو أيضًا يذكر متى حضرَ الديكُ الغريب إلى منزل صديقه، إنه في اليوم نفسه الذي تُوفِّي فيه «جبريل»، أيْ قبل خمسين يومًا بالضبط، فإذا كان يبيض بيضةً واحدةً من الذهب في الأربعة أيام ... حسنًا كم يومًا مرَّ منذ أن قدم الديك إلى بيت صديقه المرحوم «جبريل أدومة كيري»؟ أيامٌ كثيرةٌ تستطيع زوجته أن تحسبها جيِّدًا. على كلٍّ فقد قَدَّرَ «فتح الله فراج» عدد البيض بخمسين بيضة أو أكثر، فإذا صحَّ حسابه، فإن الثروة التي ترقد في بيت صديقه الآن تعادل عشرات الملايين، ثروة مهملة مرمية في قفص الدجاج. وفجأة تذكَّر أنه عندما زار بيت «جبريل» صديقه المرحوم لاستلاف الديك وجد التوأم تلعبان بشيءٍ شبيهٍ بالبيض، إنها البيضات الذهبية ذاتها، لأنهما رميتاها على الأرض وجريتا نحوه لأخذ الحلوى، لو كانت بيضات حقيقيات لتكسَّرت. وأعاد المشهد على مخيلته، فالمال يعلِّم الإنسان التفكير. طوال عمره لم يفكِّر كما فكَّر في هذا الأسبوع، لدرجة أن شعره الأبيض قد بدأ يتساقط. يعرف أنه ذكي، شديد الذكاء، فقط تعوزه القراءة والكتابة، وهما مهمَّتان من أجل أن يستفيد من ذكائه ويحوِّله إلى أرقام، ويحوِّل الأرقام إلى ذهب والذهب إلى نقود، فالهوَّة بين المال والذكاء لا تردمها سوى معرفة

القـراءة والكتابـة والحسـاب. لـو لم تكـن «نـصرة» غضبانـةً منـه وتبـدو مهمومـةً وحزينـةً طـوال اليـوم، لاسـتفاد منهـا كثـيرًا في تطويـع ذكائـه؛ هـو الآن رجـل ثـري، يمتلـك أكـثر مـن 100 مليـون مـن الجنيهـات، وإذا فكَّـر بالصـورة المطلوبـة فإنـه قـد يحصـل عـلى مثـل أضعـاف هـذا المبلـغ مـن البيـض المهمـل المهـدر في بيـت صديقـه، وسـوف يقـوم باسـتثمار كلِّ هـذا المـال في السـوق ويعيـد لأبنـاء المرحـوم أصـل مالهـم بالمليـم، أيْ إنـه يعتـبر أن هـذا المـال سـلفيَّة مسـتردة، وهـذه الفكـرة أراحـت زوجتـه «نـصرة» بعـض الـشيء، ولكنهـا أيضًـا ترفـض فكـرة أن يسـتولي «فتـح اللـه» عـلى بقيـة الذهـب الـذي ببيـت صديقـه المرحـوم، ورفضـت أيضًـا فكرتـه في اسـتلاف الديـك مـرةً أخـرى، ليسـت لأنهـا فكـرة انتهازيـة، ولكـن لأنهـما فكَّـرا في الأمـر مـن قبـل ولزوجهـا تجربـة مريـرة في ذلـك: عندمـا اقـترب «فتـح اللـه فـراج» مـن الديـك ليأخـذه إلى بيتـه، نظـر إليـه الديـكُ نظـرةً أبسـط مـا يُمكـن تفسـيرها بـه إنهـا نظـرة شـيطانية، وأحـسَّ «فتـح اللـه» عـلى إثرهـا برعشـةٍ كلسـعة تيـار الكهربـاء في جسـده كلِّـه، فتراجـع عـن فكـرة أخـذ الديـك، وعندمـا أخبرهـا بمـا حصـل لـه، خافـت. ولكنـه قـال لهـا إن المبلـغ الـذي حصـل عليـه الآن لا يفعـل شـيئًا في السـوق اليـوم، وإنـه استشـار واسـتفسر واسـتبان واسـتفتى، وشرح لهـا خطتـه: بعـد أسـابيع قليلـة سـوف يرحلـون مـن هـذا المـكان العفـن إلى «بيـت كنـتُ أحلـم بـه كثـيرًا في كافـوري»، إنهـا قطعـة أرض صغـيرة ولكنهـا مبنيـة بصـورة مدهشـة عـلى البحـر، وبهـا بعـض الأثـاث المهـم، فـلا يحتاجـون لنقـل أيِّ شيءٍ مـن «الكـرور والخـردة» التـي يقبعـون في وسـطها الآن، «سـندفع فيهـا مئـة مليـون، والباقـي في أقسـاطٍ لمـدة عـشر سـنوات، سـعر البيـت 600 مليـون لا غـير»، لـو كانـت زوجتـه راضيـةً عنـه الآن لحسـبتها لـه باليـوم والسـاعة والدقيقـة، فهـي شـاطرة في الحسـاب، وفي كلِّ شيءٍ آخـر غـير الحسـاب. كان والـده يعمـل مزارعًـا بتلـك الأرض قبـل أن تتحـوَّل إلى قطعـةٍ سـكنية، وهـو نفسـه قـد وُلـد قُربهـا قبـل سـنوات كثـيرة مـن أبٍ معلـوم وأمٍّ مجهولـة

الهُويـة لا يعلـم عنهـا أحـدٌ شـيئًا، لدرجـة أنـه يظـنُّ هـو شـخصيًّا أن لا أمَّ لـه. تـمَّ ذكـر ذلـكَ بـشيٍ مـن التفاصيـل في فصـلٍ سـابق مـن الروايـة، ربمـا الـراوي يريـد أن يقـول لنـا، إنـه ليسـت لـ«فتـح اللـه فـراج» أم، وهـذا ليـس بالغريـب؛ آدم أبـو البـشر ليـس لـه أم، كـما في الأسـطورة الإغريقيـة إن «زيـوس» أنجـب «أثينـا» مـن رأسـه بـدون أم. أمَّـا في واقـع البشريـة الحديثـة، فجـدي (أنـا الـروائي) اسـمه «برمرجيـل»، حيـث تتكـون الكلمـة مـن كلمتـين «بـرم» و«رجـل»، وتعنـي في أسرتنـا الشـخص الـذي تـمَّ إنجابه عـن طريـق بَـرْمِ رجـل أبيـه؛ يعنـي أن أبـاه هـو الـذي أنجبـه بعدمـا حمـل بـه في رجلـه اليُـسرى، وظهـر الحمـل مثـل ورمٍ ضخـمٍ أشـبه بـداء الفيـل، وعندمـا تـمَّ بَـرْمُ الرِّجـل انشـقَّت وخـرج منهـا الجـدُّ الكبـير الـذي أُطلـق عليـه «برمرجيـل»؛ فليـس غريبًـا أن ينجـب «فتـح اللـه فـراج» ابنـه «فتـح اللـه» مـن خيـالات مـا قبـل النـوم!

عندمـا دخلـت عليهـما البنـت «مـيرم»، كانـت الأمُّ تتحـدَّث عـن أرقـامٍ فلكيـة، وهـي تـضرب عـدد الأيـام وتقسـمها عـلى عـدد مـن البيـض، تـضرب البيضـة في عـددٍ مـن الجنيهـات، وتنقـص منهـا أرقامًـا أخـرى مُدهشـة، وذُكـرت كلمـة «ديـك» مـرارًا وتكـرارًا، والدهـا ينتبـه في بلاهـة، همسـت في أذن أمِّهـا، قالـت لهـا الأمُّ دون أن تعيرهـا الانتبـاه المطلـوب: «كويـس، تمـام». قفـزت البنـت فرحًـا، وخرجـت، وبعـد أن اسـتحمَّت لبسـت فسـتانها الوحيـد الجميـل، فسـتان العيـد المـاضي، ذهبـت لتلتقـي بـ«أحمـد زكي» في بيـت خالتهـا كـما قالـت لأمهـا، في الحقيقـة في بيتـه أولًا، البيـت الـذي — إذا سـارت الأمـور كـما يجـب — سـيكون بيتهـا في المسـتقبل القريـب، فـ«أحمـد» يعمـل كلَّ مـا بوسـعه ليتزوَّجهـا، فهـو يحبُّهـا حُبًّـا حقيقيًّـا وصادقًـا، ولـو أن الأطبـاء يحـذِّرون مـن زواج الأقـارب نسـبةً لسـيادة الصفـات المتنحيـة بنسـبٍ متفاوتـةٍ في الأطفـال، إلا إنهـما سـيتحمَّلان كلَّ النتائـج في سـبيل أن يبقيـا مـع بعضهـما البعـض الحيـاة كلَّهـا.

«أحمد زكي» نال تعليمًا أكاديميًّا جامعيًّا متقدِّمًا، وهو يعمل في منظمة «بلان إنترناشونال» منذ سنوات. هي منظمة صغيرة، ودخلها صغير أيضًا ولكنه يجد فيها نفسه أكثر من أيِّ مكانٍ آخر، ووفقًا لدخله المحدود هذا، ونتيجةً لعصاميته، فإنه بالكاد استطاع أن يشتري بيتًا بمساحة مئتي مترٍ في المدن الصغيرة الفقيرة الصحراوية بتخوم «أم درمان» وأن يبني به حجرتين وصالة، وما زال ينقصه الحمام والمرحاض، ولو أن بئر المرحاض قد تمَّ إنجازها، إلا إنه لم يستطع بناء الجزء الأعلى إلى الآن.

لم تكن هي المرة الأولى التي تذهب «ميرم» معه إلى البيت، فقد كانا يلتقيان به كلما سمحت لها والدتها بزيارة أختها الكبرى غير الشقيقة وهي أمُّه «آمنة». ربما كانت الأمُّ على علمٍ بأن «أحمد» يختلي بابنتها، وهذا ما جعلها لا تسمح لها بزيارة أختها «آمنة» إلَّا في أيام الحيض، حيث تضمن أن «أحمد» لن يقوم بفعل ما لا تُحمد عقباه. هو شخصٌ مؤدَّبٌ ومحترم، وابنتها أيضًا مؤدَّبةٌ ومحترمةٌ وصغيرةٌ وليس لها تجارب، ولكن الشيطان بين الناس، وكلُّ الناس الذين لديهم تجارب كبيرة الآن، كانوا في يومٍ ما مثل ابنتها هذه دون أية تجارب. أمَّا الشيء الذي ليس بإمكانها أن تتخيَّله أن ابنتها تغشُّ في دورتها الشهرية، بخمسة أيامٍ كاملة، فاليوم الذي تنقطع فيه آخر الدماء، هو اليوم الذي تعلن فيه أن دورتها الشهرية قد أتت و«عايزة الفوط يا أمي»، فما يحدث بينها وبين «أحمد» هو ما يحدث بين الزوج وزوجته، وذلكَ منذ أن كان عمرها سبعة عشر عامًا، وهي الآن في عامها العشرين.

ولكن أباها كان يعلم علم اليقين، لأنه رأى رأي العين: «أحمد» وابنته يمارسان الجنس في بيته هذا، عند الصباح الباكر، حيث ما كانا يتوقَّعان مجيئه، فهو يعود للبيت بعد أن يبيع كلَّ جردل محتويات

بستلة البيض، ويحدث ذلكَ عند الثالثة بعد الظهر عادة، أمَّا الأمُّ فهي في خدمة أخيها إلى الثانية بعد الظهر، حيث يذهب إليها «فراج» هنالكَ ويعود معها، وتبقى بالبيت «ميرم» وحدها، فالأخ الأكبر «السر فتح الله فراج» يعمل في مدينةٍ بعيدةٍ أو قريبةٍ لا يُفصِح عنها دائمًا، فهي قيد الكتمان بصورةٍ لا يمكن التراجع عنها، فما الذي يمنع حبيبها «أحمد» من الحضور للبيت قبل الثانية ظهرًا، ومداعبتها والنوم قربها وعضِّها في صدرها الصغير النابت، ثمَّ يكمل الشيطان كما يفعل دائمًا حكاية البنت والولد؟

لم يعرفا أن الأب يعرف، ففي الآخر سيتزوَّجان، ويتمنى أن يحدث ذلكَ بأسرع ما يكون، وهي لا تجد زوجًا خيرًا من «أحمد»، فهو يعمل في وظيفةٍ محترمةٍ وثابتة، كما إنه متعلم و«ليس مثلي أمِّيًّا لا يفهم في الحساب، والمرأة للرجل، طال الزمن أو قصر.»

لم تنتبه الأمُّ إلى أنها سمحت للبنت بالخروج، إلَّا بعد أن غادرها «فتح الله» إلى السوق، لشراء بعض الضروريات التي تقتضيها المرحلة، وأهمُّها جهازا موبايل، لها وله، وتتوقَّع حضوره سريعًا، فقد أصبح يستأجر عربة «أمجاد» أو يستقل تاكسي في تجواله، لأن مواصلات «زقلونا» المزعجة المزدحمة دائمًا تضيِّع وقته، وقد تعرضه للّصوص والنشالين، لا يدري كيف كان يتحمَّل في الماضي أيام العوز والفقر اللعينين الوقوف في باب الحافلة العجوز معلَّقًا مثل ديكٍ على الحبل، يمسك بوعاء البيض بيدٍ والأخرى على باب الحافلة، ويقبض على طرف جلبابه بأسنانه حتى لا يتمزَّق من الزحام. أسوأ ما في الفقر هو إهانته لكرامة الإنسان، لأنه لا يفرِّق بين النبيل والزنيم، لا يدري من الذي قال: «إذا كان الفَقْرُ رَجُلْ قتلته بسيفي».

سيتصلان بابنهما البكر ويخبرانه بأن أباه «فتح الله فراج» قد فتحها الله عليه وفرجها أخيرًا، فقد عثر على بعض الأرطال من

الذهـب، وأن هنالـكَ تغـيرات كبـيرة متوقعـة الحـدوث في حيـاة الأسرة، وعليـه بأخـذ إجـازة والحضـور فـورًا.

كانـت «نـصرة» تريـد أن تخـبر ابنتهـا «مـيرم» بذلـك، تريـد أن تفرحهـا، ولكـن لا بـأس، سـتحكي لهـا كلَّ شيء عندمـا تحـضر. هـل ستشـتري لهـا جهـاز موبايـل أيضًـا؟ سـتتصل هـي بأخيهـا الضابـط وتخـبره بأنهـا تريـده في أمـرٍ ضروريٍّ وحـده وخـارج البيـت، وتعنـي بالبيـت بيتـه بالطبـع، هـو نـادرًا مـا يزورهـم في بيتهـم البعيـد، كـما إنـه لم يسـتطع أن يجاملهـم سـوى مـرةٍ واحـدةٍ في تحمّـل روائـح مجـرى الـصرف الصحّـيّ التـي تثـير لديـه الحساسـية، وذلـكَ عنـد ميـلاد «مـيرم» التـي سـمَّاها هـو بنفسـه عـلى اسـم جدتـه، وهـو عـلى كلِّ حـالٍ مـن الأسـماء التـي انقرضـت منـذ أكـثر مـن مئـة عـام. كانـت تريـد أن تسـمِّيَها «مُزنـة»، يعجبهـا هـذا الاسـم كثـيرًا منـذ أن سـمعته أول مـرة في مستشـفًى بـ«الخرطـوم»، كان اسـم طبيبـةٍ جميلـةٍ وصغـيرةٍ ومدلَّلـة، تمنَّـت أن تكـون ابنتهـا. قبلـت بالاسـم عـسى ولعـلَّ أن يقـدِّم لهـا أخوهـا دعـمًا ولـو يسـيرًا في يـوم السـماية، ولم يخيِّـب ظنَّهـا، فقـد قـام بواجـب السـماية عـلى أكمـل وجـه، ولـو أنـه لم يحضرهـا بنفسـه، إلا إنـه نـسي الموضـوع بعـد ذلـكَ بالتدريـج.

يهمُّهـا جـدًّا أن تجـد زوجته السـمينة الكسـول مـن يخدمها ويسـاعدها عـلى الاسـتحمام، ويتحمَّـل رائحتهـا العفنـة، سـتقول لـه إن اللـه قـد فتحهـا عليهـم مـن أوسـع أبوابـه، وإنهـا سـتتفرغ لمسـاعدة زوجهـا في الاسـتثمار، سـتقوم بإجـراء العمليـات الحسـابية الدقيقـة لـه، طبعًـا لـن تقـول لأخيهـا إن ديـك «جبريـل» الجـزار المرحـوم قـد بـاض لهـم بيضـاتٍ مـن الذهـب التـبر الخالـص مبـاركات، ولكنهـا ستسـتخدم كذبـة زوجهـا ذاتهـا، التـي سـوف يطلقهـا في الأسـابيع القادمـة في احتفـالٍ صغـيرٍ يذبحـون فيـه بعـض الماشـية كرامـةً وسـلامةً لمغادرتهـم حـي «زقلونـا»؛ الاحتفـال الـذي سـوف يحـكي فيـه «أونـور سـدنا» البجـاوي وهـو في غايـة التأثُّـر، كيـف إنـه كان

السبب في أن يحصل «فتح الله فراج» على كلِّ هذا الذهب، لقد قدَّم له عصارة خبرته ونصحه، كثيرًا، وكان يعلم علم اليقين بأن «فتح الله فراج» سوف يعثر على الكنز، عرف ذلكَ من اسمه أولًا ثمَّ بريق عينيه: «ورب الكَأْبَة، زول اسمه «فتح الله فراج» لازم يفرجها عليه الله ويفتح له كنوز السماء ومخازن دهب الأرض كلها.»

فكَّرت في ابنتها، فكَّرت فيها بجدية، ستعيدها للدراسة وتوفر لها معلمين في كلِّ المواد وستمتحن الشهادة السودانية، وستدخلها كلية الطب، هي ليست أقلَّ من ابنة «جبريل» الجزار في شيء، وربما كانت أكثر ذكاء من تلكَ الشيوعية التي يتهامس الناس بكفرها في «زقلونا» كلها. «أحمد زكي» زوج مناسب للبنت، ولكن عليه أن ينتظر قليلًا إلى أن تتخرج من كلية الطب «جامعة الخرطوم»، وهي متأكدة من إنه سيوافق، فالزواج من دكتورة بعد ستِّ سنوات، خيرٌ ألف مرة من الزواج من عاطلة اليوم: «نعم الأرزاق بيد الله، ولكن الفَقْرْ ما حَبَابُهُ، وهو لعنة من الله.»

هي لا تحقد على أبناء وزوجة «جبريل»، بل تحبُّهم جدًّا، وستدعمهم دعمًا ماديًّا سخيًّا، وستشهد الأيام القادمات، صدق مشاعرها تجاههم، كما ستعيد إليهم كلَّ مال ديكهم أوَّل ما يتوفر ذلك، وتظنُّه سيكون قريبًا جدًّا بإذن الله، إن مالهم سلفيَّة مستردَّة ستعيدها إليهم مليمًا مليمًا: «و حنديهم زيادة عليها مليون مليونين بإذن الله.»

عادت البنت مبكرًا، لأنها تريد أن تزفَّ لأمِّها خبر حياتها:

- أنا و«أحمد» حنتزوَّج بعد شهرين، بعد شهرين بس يا أمي.

ولم تنتظر ردَّة فعل أمِّها، بل قفزت على عنقها وأخذت تقبِّلها بعاطفةٍ جياشة، ولكن الأمَّ ظلَّت باردة لا تدري ما تقول، ولكنها

انتبهـت أخـيرًا إلى أن البنـت لا تـدري شـيئًا عـن المتغـيرات الجديـدة في الأسرة، قالـت لهـا وهـي تحـرِّك أناملهـا في شـعر بنتهـا الخشـن الجـافِّ مـن الإهـمال والفقـر:

- مـبروك يـا بنتـي ولكـن بعدمـا تتخرجـي مـن الجامعـة إن شـاء اللـه.

أطلقـت البنـت عنـق أمِّهـا ووقفـت بعيـدًا كأنهـا سـمعت خـبر موتهـا، وأخـذت تنظـر إليهـا في دهشـةٍ غـير مصدِّقـة لمـا تسـمع، أخـيرًا أمطرتهـا بالأسـئلة:

- شـنو؟ الجامعـة؟ ياتـو جامعـة؟ أنـت جنيتـي يـا أمـي؟ نحـن لاقـين نـأكل ونـشرب؟

وقفت الأمُّ واحتضنتها وقالت لها بهدوء:

- ستعرفي الحاجات بالراحة، واحدة واحدة.

ثم أضافت وهي تحاول أن تضع في فمها ابتسامة:

- أبوك لقي كيلو دهب في الصحراء!

قالت مندهشة:

- متين؟

- زمـان لمـان مـشي مـع عمـك «جبريـل»، بـس كان داسـيه ومـا دايـر يسـتعجل.

قالـت البنـت وهـي تتخلَّـص مـن قبضـة أمِّهـا وتقـف بعيـدًا عنهـا في حركـة مسرحيـة:

- أنـا حأتـزوَّج «أحمـد زكي» بعـد شـهرين، لقـي أبـوي دهـب ولا جواهـر، ومـا حأقـرأ تـاني ولا حـرف واحـد، لا جامعـة ولا خلـوة،

ولا يحزنـون، ودا كلام نهاااائييـي يـا أمـي، أنـا عايـزة أعـرس وألـد وبـس، الدهـب اسـتفيدوا منـه انـتِ وأبـوي وعيالكـم الآخريـن.

دخلـت الحجـرة الأخـرى، خلعـت ملابسـها كلَّهـا، وأخـذت الفوطـة المزيَّفـة الملطَّخـة بعصير الفراولـة الأحمـر الرخيـص — ماركـة «الشـمس المشرقـة» — جانبًـا، في موضـع سـيلفت انتبـاه أمهـا، التـي سـتلومها عـلى وضـع الأوسـاخ في مـكانٍ عـامٍّ قـد يـراه والدهـا أو أخوهـا. وضعـت أخـرى نظيفـة، ارتـدت ملابـس البيـت، وهـي جلبـاب بولسـتر وحيـد قديـم عليـه مـزق في الكتـف الأيـسر، وتحـت الإبـط خارطـة داكنـة مـن العـرق المطبوع الـذي لا يمكـن إزالتـه بالغسـيل اليـدويِّ العـادي. كان لـون الجلبـاب أصفـر في المـاضي، الآن أقـرب لِلَّـون الأبيـض المتـشرب بحمـرة خفيفـة. ارتمـت عـلى السريـر. أغمضـت عينيهـا، وهـي تسـتعيد اللحظـات الجميلـة التـي قضتهـا مـع حبيبهـا «أحمـد» في بيتهـما بصحـراء «أم درمـان».

لليــوم الثالــث عــلى التــوالي لم يســتطع «فتــح اللــه فــراج» النــوم بانتظـام، كلـما يغمـض عينيـه، يـرَ نفسـه في صحبـة «جبريـل» وقـد حـضرا مـن الصحـراء، وكان «جبريـل» مريضًـا بشـدة، يشـكو مـن بطنـه ويسـهل شـيئًا أصفـر، يحملـق «جبريـل» في أمِّ عينيـه، وفجـأة يسـمع صـوت الديـك يصيـح بشـدة ثـلاث صيحـاتٍ مرعبـاتٍ وهـو يـضرب بجناحيـه في الهـواء مثـيرًا عاصفـةً مـن الغبـار، وكأنـه طائـرةٌ مروحيـةٌ عملاقـةٌ تسـتعدُّ للإقـلاع.

فتـح عينيـه، حملـق في السـقف. عندمـا أحسَّـت «نـصرة» بقلقـه ضمَّته إليهـا بشـدة، إلى أن استنشـق رائحـة حطـب الطلـح الـذي تدخَّنـت بـه ذاك المسـاء، وتـذوَّق طعـم عرقهـا الـذي تشـوبه مـرارة خفيفـة، كان يريـد أن يقـول لهـا شـيئًا، أو كانـت هـي تحـبُّ أن تحدِّثـه في موضـوعٍ مـا. صمتـا لوقـتٍ مـن الزمـان تخيَّـلاه طويـلًا. لمـس ظهرهـا بكـفٍّ مرتجفـةٍ قلقـة. كانـت ترتـدي جلبـاب نـومٍ قطنـيٍّ تحبُّـه كثـيرًا، بـدا لـه مبتـلًّا بالعـرق، أدخـل كفَّـه اليمنـى تحـت القميـص، كان جسـدها بـاردًا ونديًّـا، مـدَّ

ذراعـه أكـثر، إلى أن لمـس بكفِّـه ردفهـا الأيـسر، مـرَّر أصابعـه دون وعـيٍ بـين الردفـين وحكَّهـا قليـلًا بظفـره.

كان قـد بـدأ تنفُّسـها يعلـو ويهبـط متسـارعًا، وازدادت دقـات قلبهـا، سـحب كفَّـه ومعهـا قميـص النـوم، فدفعـت شـفتها السـفلى في فمـه، كانـت قـد اعتـادت عـلى رائحـة الصعـوط، ولـو أنهـا كرهتـه في الأيـام الأولى لزواجهـما قبـل أكـثر مـن عشريـن عامًـا. عندهـا أغمـض عينيـه كـما يفعـل دائمًـا عندمـا تدخـل شـفتها السـفلى في فمـه، حـرَّك لسـانه ببـطء وعضهـا في شـفتها برقـة، وهـو يعبـث بأصابعـه عـلى حلمتـي نهديهـا الكبيريـن المندلقـين عـلى الفـراش. كانـت قـد عـادت للتنفس بانتظـام، وربمـا قالـت كلـمات لم تخـرج بصـورةٍ طبيعيـةٍ نسـبةً لانشـغال أعضـاء الـكلام بفعـل الجسَـد، ليسـت لديـه رغبـةٌ في عمـل شيء، ولكنهـا عندمـا أبعـدت شـفتها عـن فمـه، عملـت عـلى تجريـده مـن ملابسـه، كان مستسـلمًا وطيِّعًـا، احتضنهـا، ضمَّهـا إليـه بشـدة، قبَّلهـا في عينيهـا وجانبـي فمهـا وجبهتـا، وفي أرنبـة أنفهـا. كانـا قـد كفَّـا عـن تلـكَ الأفعـال منـذ أن بـاض لهـما ديـك «جبريـل أدومـة كـيري» ذهبًـا، حـوَّلاه إلى نقـودٍ ووضعـاه في شـنطة الحديـد التـي ترقـد تحـت سريرهـما الخشـبيِّ الكبـير العجـوز، الـذي يضطجعـان فوقـه الآن.

قالت له:

- البنت.

قال بصوتٍ خفيضٍ وهادئ:

- ما لها؟

قالـت وهـي تبحـث عـن عينيـه في الظـلام لـترى — عبثًـا — تأثـير كلامهـا عليـه:

- ستتزوَّج.

قال بيقينٍ بالغ:

- «أحمد»؟

أجابت بسرعة، وبصوتٍ عالٍ بعض الشيء:

- نعم، ولكني عايزاها تقرأ الجامعة أول.

أغمض عينيه، شاهد صورة «أحمد» وابنته ينامان معًا، كان ذلكَ واقعًا لا شكَّ فيه، على ذات السرير الكبير الذي ينام فيه الآن مع زوجته، كانا عاريين، ابنته ترقد على وجهها، مُعطيةً ظهرها لـ«أحمد»، رافعة ردفيها لأعلى، و«أحمد» في تمام نشوته يفعل ما يفعله الرجل مع زوجته، شاهدهما بثقب المفتاح، ولكنه فضَّل عدم التدخُّل حتى لا تقع خصومةٌ فاجرةٌ بينه وبين «أحمد» والبنت، وقد تقود إلى كراهيةٍ مدى الحياة، والأسوأ قد تنتهي العلاقة ويفشل مشروع الزواج، ولم يكن لديه تصورٌ لمستقبل ابنته غير الزواج ومن هذا الرجل بالذات، فرأى معالجة الموضوع بصورةٍ أخرى، لم يتوصَّل إليها إلى هذه اللحظة.

قال لها:

- أحسن يتزوَّجوا، الجامعة ملحوقة.

لم تستطع أن تقنعه، وهو لم يقل لها لماذا يصرُّ على رأيه، غير العموميات والحكم المُستهلَكة التي لا يؤمن بها هو نفسه، مثل:

المرأة للرجل.

والمرأة إذا بقت فأس ما بتكسر الرأس.

والزواج سترة حال.

وظل رجل ولا ظل حائط.

وعندما أصرَّت الأمُّ على رأيها، وإنها تريد لابنتها أن تتخرَّج طبيبة،

أو مهندسة، وبعد ذلكَ تتزوَّج، فالبنت ما تزال صغيرة والزواج ملحوق، و«أحمد» بإمكانه أن ينتظرها، كلُّها ستُّ سنواتٍ لا غير. نهض من رقدته وجلس على حافَّة السرير يتلمَّس في الظلام ما بين اللحاف والسرير، أخرج كيسًا صغيرًا رخوًا، ضغطه في عدة اتجاهات، وضع سفَّة صعوط كبيرة ما بين شفته السفلى ولثته، بصق على الأرض، نظَّف حنجرته بكحَّة خفيفة، وهو دائمًا ما يفعل ذلكَ بعد أن يتعاطى الصعوط، اضطجع مرةً أخرى ووجهه مواجه لوجهها وتخفي ملامحهما الظلمة تمامًا، وتبقى حرارة أنفاسها التي تثيره كلَّ ليلة وتدفعه إلى ضمِّها إلى صدره بشدة.

قال لها الحقيقة كاملةً وبكلِّ تفاصيلها التي لا تحبُّها، وتخشاها، بل وترعبها جدًّا. لم تقل شيئًا، تنفست بصعوبة، أعطته ظهرها، وبعد لحظاتٍ وعلى غير العادة: عَلا شخيرها.

عندما أغمض عينيه مرةً أخرى لم يستطع أن يفتحهما، ليس نتيجة أن كابوسًا عاجله في بداية النوم، ولكنه وجد نفسه في صُحبة الديك وصديقه «جبريل أدومة كيري» يدخلون مغارة جبل «عضو الكلب»، وبدت له وكأنه يدخلها للمرة الأولى. كان الديك يمضي أمامه وهو يشعُّ نورًا يضيء لهما الدرب، وعندما وجدا قدمي الرجل العملاق الميت لم يحدث لهما كما حدث في المرة السابقة حيث كادا أن يموتا من الرُّعب، لمجرَّد أن شاهدا قدميه اللتين كانتا في حجم حمارين كبيرين بالغين. لولا أن الخواجة الذي يصحبهما قال لهما إنه يظن ظنًّا قريبًا من اليقين بأن الرجل ميتٌ وإنه لا يفعل شيئًا وعليهما الاستمرار في الدخول إلى المغارة: «لا بدَّ أن نحدد نهايتها اليوم». ولكنهما اليوم كانا متماسكين ومرًّا بالقدمين الكبيرتين كأن لم تكونا هنالكَ في الأصل، ولو أن «جبريل» قال له — أو تخيَّل أنه قال له أو لم يقل له: «ابقى راجل اليوم واختار.»

كان الديـك يمـضي بسرعـةٍ رهيبـةٍ وهـما يهـرولان خلفـه، إلى أن بلغـا مفـرق رِجـلَيِ العمـلاق الميـت في مغـارة جبـل «عضـو الكلـب» وكان ذلـكَ في منتصـف الكهـف تمامًـا، لـه يـدان عملاقتـان تتقاطعـان في صـدره، دار الديـك دورةً سريعـةً أضاءت الكهـف تمامًـا، لم تكـن اليـدان حجريَّتـين، بـل كانتـا يديـن مـن لحـمٍ ودم، عليهـما زغـبٌ كثيـفٌ ناعـمٌ يغطيهـما تمامًـا، مثـل الزغـب الـذي بصـدره، تزحـف عليهـما وعـلى صـدره حـشراتٌ صغـيرةٌ مثـل النمـل، ولكنهـا تلمـع مثـل الذهـب، وهياكلهـا النحيلـة مثـل أسـلاك مـن التـبر تعكـس أشـعة نـور الديـك، الـذي فتـح منقـاره واسـعًا شاسـعًا واقـترب مـن «جبريـل» الـذي أراد الهـرب، إلا إن يـدَي العمـلاق الميـت في مغـارة «عضـو الكلـب» أمسـكتا بـه، ومكَّنتـا الديـك مـن ابتلاعـه، بينـما كان «جبريـل» المسـكين يـصرخ بـكلِّ مـا أوتي مـن صـوت، وتـردِّد جـدران الكهـف صـداه، إلى أن اختفـى تمامًـا في بطـن الديـك مـع اختفـاء صـدى صوتـه. تقـدَّم الديـك وأشـار إلى «فتـح اللـه فـراج» أن يتبعـه.

لم يحـسَّ «فتـح اللـه» إلى تلـكَ اللحظـة بالخـوف، كأنمـا كان الأمـر عاديًّا وطبيعيًّـا وكأن الديـك لم يفعـل شـيئًا. مـضى خلفـه مهـرولًا إلى أن توقَّـف الديـك محاذيًـا رأس الرجـل الميـت في مغـارة «عضـو الكلـب»، كان الـرأس في حجـم القبـة الصغـيرة، وكـما توقَّعـه لم يكـن رأسًـا حجريًّـا، بـل كان رأس حيـةٍ بذقـنٍ حليقـةٍ بعنايـة، بـدون شـارب، وبوجـهٍ ناعـمٍ ونظيـف، وفـمٍ شـبه مفتـوح، ولكنـه لاحـظ أن العنكبـوت تبنـي خيوطهـا عـلى فتحـة الفـم وفتحتـي الأنـف، وأن خيوطهـا تهتـزُّ بالهـواء الـذي يخـرج في حركتـي الزفـير والشـهيق البطيئتـين، كان رأسًـا شـديد الضخامـة وكأنـه قبـةٌ صغـيرة الحجـم، العينـان عبـارة عـن هوَّتـين كبيرتـين مظلمتـين لا قـاع لهـما. قـال لـه الديـك:

- هو الوحيد الذي بإمكانه أن يقبل ولكنه لا يغفر.

- يقبل شنو ولا يغفر شنو؟

قال الديك وهو بقفزةٍ واحدةٍ يصعد على قمة رأس الرجل الميت في مغارة «عضو الكلب»:

- كلَّ شيء.

قال «فراج» مندهشًا:

- هو منو؟

قال الديك ببساطة:

- الرجل الميت في مغارة «عضو الكلب».

- يعني منو؟

- الحارس.

- حارس الدهب؟

- لا.

- حارس شنو؟

- إنه صاحب الأرض، صاحب باطن الأرض أيضًا، الذي تنتهشون لحمه وتشربون دمه كلَّ يوم، وهو صاحب السماء وباطن السماء.

- منو ينتهش دمو؟ نحن عمال، مجرَّد عمال!

- أنتم يد الفاس التي من الشجرة ذاتها.

- كويس الفاس!

قال الديك وهو يهبط إلى الأرض قربه:

- انظر!

وفيما يشبه شاشة السينما داخل هوَّة في عين الرجل الميت في مغارة جبل «عضو الكلب»، كان الجلابة أصحاب أعمال الذهب

يُشـوون في ذهـب منصهـر، وهـم يصرخـون في هلـع. قـال لـه الديـك:

- إنه لا يغفر، وهذه هي فضيلته.

- أعمل شنو أنا؟

- مـا عليـك إلَّا أن تأخـذ نصيبـكَ الأبـدي؛ مـا تسـتحقه. كان عليـكَ أن تختـار بـين الفقـر والديـك، فاخـترت الديـك الـذي هـو أنـا، أليـس كذلـك؟ يمكنـه أن يقبـل تراجعـكَ الآن، وكلُّ شيء سـيزول مبـاشرة، المـال وأنـا! واعلـم أن الإنسـان صنيعـة اختيـاره، وهـو الضحيـة الكـبرى لحريتـه. وأنـتَ بدخولـك للقـبر قـد وقَّعـت عقـدكَ الـذي هـو مصـيرك، وفرصتـكَ الوحيـدة الآن هـي أن تلغـي ذلـكَ العقـد الـذي سـيتبعكَ إلى مـا بعـد المـوت.

كان الرجـلُ الميـت في مغـارة جبـل «عضـو الكلـب»، مسـتيقظًا أو نائمًـا، ولكنـه يتنفَّـس في هـدوء، وعندمـا صـاح الديـك صيحـةً مرعبـة، أطلـق جناحيـه في الهـواء مثـل طائـرة مروحيـة عملاقـة، اسـتطاع أن يفتـح «فتـح اللـه فـراج» عينيـه. كانـت زوجتـه تصـدر شـخيرها الرتيـب، وهـي عاريـةٌ تمامًـا، لم يسـتطع أن يـرى وجههـا، بينـما كان جسـدها حـاضرًا بقـوةٍ في المـكان، فقـد كان الظـلام دامسًـا، ولكنـه لا يمنـع جسـدًا فتيًّـا مـن أن يعلـن حضـوره، فالأجسـاد لا يحجبهـا الظـلام. لم يسـتطع النـوم. تمتـم بصـوتٍ منخفـضٍ بينـما تجحـظ مقلتـاه في الفـراغ: «نعـم اخـترتُ الديـك، الديـك والذهـب، مـن يفشـل في تحقيـق سـعادته في الدنيـا التـي هـي بـين يديـه ويخبرهـا جيِّـدًا وتخـبره ويعركهـا جيِّـدًا وتعركـه، فكيـف يضمـن السـعادة فيـما بعـد؛ أيْ في الآخـرة التـي لا يعـرف عنهـا شـيئًا. لقـد اخـترتُ الديـك، لـن أبيـع الحقيقـة بالظنـون.»

صَائِدُ الْبَيْض

الآن يهمُّه أكثر الذهب، حتى إذا كان سيفعل به الديك فعلة الجانِّ في المخدوم، فالإذعان لشهوة ديكٍ مقابل الثراء: مقايضة عادلة. الذهب الذي يعني حياةً تشبه الحياة مقابل الفقر الذي يشبه الموت. إنه يريد منه أكبر كمية ممكنة، يريد أن يغادر الفقر للأبد.

بعـد أسـبوعٍ بالكـمال والتـمام مـن مغـادرة أسرة «فتـح اللـه فـراج» لحـي «زقلونا-جنـوب»، إلى مربـع 1 بـ«كافـوري» بالخرطـوم بحـري، عـاد «فتـح اللـه فـراج» وحـده لبيتـه ومعـه بنـاءون، قـام البنـاءون فيـما بعـد بعمـل سـورٍ عـالٍ جـدًّا حـول المنـزل مـن الطـوب والأسـمنت، وبوابـةٍ مـن الحديـد والصـاج الصلـب، فلقـد تركـوا كلَّ منقولاتهـم القديمـة بالمنـزل، لم يحملـوا معهـم سـوى شـنطة الحديـد المشـحونة بالنقـود، أمَّـا الدجاجـات فقـد أهداهـا بقفصهـا إلى جـارةٍ لهـم فقـيرة تربطهـا بهـم ذكريـات جميلـة، وقـد قاسـمتهم في يـوم مـن الأيـام كـسرة الخبـز وصابـون الغسـيل.

وفي طريقـه إلى «كافـوري» طلـب «فتـح اللـه» مـن السـائق أن يعـرج بـه عـلى منـزل صديقـه المرحـوم «جبريـل أدومـة كـيري» بـ«زقلونا-شـمال»، وهـو الحـي الـذي أطلـق عليـه الـوالي اسـم «قُبـاء»، لا يـدري أحـد معنـى الاسـم، ولكنهـم حـوروه إلى «كوبـا»؛ أسـهل نطقًـا ويعرفـون معنـاه. كان يحمـل عـددًا كبـيرًا مـن اللُّعـب للطفلتـين، وهدايـا للبنـت وأمِّهـا عبـارة عـن ملابـس جديـدة غاليـة الثمـن وجميلـة، بعـض العطـور، والأطعمـة المعلبـة، ومليونـين مـن الجنيهـات.

فرحـت الطفلتـان بالهدايـا، وفرحـت الأمُّ بالملابـس الجديـدة والعطـور. إنهـا افتقـدت الملابـس الجديـدة منـذ سـنوات، طويلـة، ولاحظـت أنَّ «فتـح اللـه» كان قلقًـا ومرتبـكًا وهـو يـصرُّ عـلى اللعـب مـع الطفلتـين عـلى الأرض، وعرفـت أنـه التواضـع الجميـل الـذي يتصـف بـه، وحلَّفتـه بالرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم لينهـض ويجلـس عـلى السريـر، فـرضي بعـد لأيٍ وتمنُّـع. كانـت الطفلتـان قـد تركتـا بيضهـما الحجـري وأخذتـا في معالجـة اللعـب الإلكترونيـة المعقـدة التـي لم ترياهـا في حياتهـما، كانتـا مندهشـتين وفرحتـين فرحـةً لا يمكـن وصفهـا.

أخـذ يحـكي لهـا عـن حياتـه الجديـدة في خجـلٍ وارتبـاكٍ واضحـين، وهـو يصنـع كذباتـه حـول مصـدر الذهـب، وكيـف إنـه غامـر مـرةً أخـرى

بالعـودة سريعًـا إلى مواقـع تعديـن الذهـب، وحصـل عـلى حجـرٍ كبـيرٍ مـن الذهـب الخالـص، وكاد أن يقـضي عليـه الشـيطان حـارس الذهـب، وكيـف إنـه تذكَّـر التميمـة المباركـة التـي كان يردِّدهـا زوجهـا وصديقـه المرحـوم؛ تلـكَ التـي جعلتهـما يعـبُران مغـارة الرجـل الميـت في جبـل «عضـو الكـب» ومعهـما الخواجـة الكافـر الـذي لا يخـاف مـن شيء، وليـس في ذلـكَ عجـبٌ فمـن لا يخـاف اللـه ورسـوله لا يخـاف مـن الشـيطان، بـل عـلى الشـيطان أن يخـاف منـه. وأخـذ يـردِّد عليهـا التميمـة في تعتعـةٍ وطيـشٍ غريبـين لا يشـبهان الثقـة التـي تبـدو عـلى المرحـوم زوجهـا وهـو يرتِّـل آياتـه المقدسـة التـي تخصُّـه هـو وحـده في الكـون. وقـد سـمعتْ المـرأة بالطبـع بقصـة حصـول «فتـح اللـه فـراج» عـلى الذهـب بينـما يتداولهـا النـاس في الحـي، وسـمعتها منـه هـو شـخصيًّا أيضًـا أكـثر مـن مرتـين عـلى مـا تظـن.

عينـاهُ لا تسـتقرَّان عـلى حـال، تتجـوَّلان في نواحـي المنـزل وكأنـه يبحـث عـن شيءٍ مـا، الديـكُ يـسرح مـع الدجاجـات قريبًـا منـه، بـل بإمكانـه لمـس ذيلـه الطويـل الملـوَّن إذا مـدَّ يـده اليـسرى بكامـل طولهـا، بـل إن الديـك يتعمَّـد القـرب منـه بصـورةٍ واضحـةٍ وكأنـه يريـد أن يوصـل لـه رسـالةً مـا، أو كأنمـا يريـد أن يذكِّـره بتلـك الواقعـة بالـذات، يـوم أراد أن يسـتلفه للمـرة الثانيـة مـن أجـل أن يسـتولي عـلى بعـض بيضـه، بـل كأنمـا كان الديـك يعلـم بخطـة «فتـح اللـه فـراج» الجديـدة. الكلـب «كـولي» يرقـد تحـت الزيـر، يطـرد الذبـاب المتطفـل عـلى ظهـره بذيلـه، ويبـدو أنـه نائـم أو مسـترخٍ بصـورة تامَّـة وعميقـة.

أكَّـد «فتـح اللـه» لهـا أنـه سـوف يقـوم برعايـة أسرة صديقـه طـوال حياتـه، وعليهـا ألَّا ترفـض أو تـتردَّد في أن تطلـب منـه في وقـتٍ مـن الأوقـات أيَّ مبلـغ مـن المـال، مهـما كـبر أو صغـر، وتعتـبر أنَّ مـا عنـده مـن مـال هـو ملـك لهـا، و«الذهـب زائـل وتبقـى العلاقـات الإنسـانية الصداقـة والأخـوة.» وعنـد هـذه الجملـة، صـاح الديـك ثـلاث صيحـات،

وهـو يـضرب بجناحيـه في الهـواء مثـيرًا غبـارًا كثيفًـا وكأنـه طائـرة مروحيـة تهـمُّ بالإقـلاع، كان قـد اسـتقرَّ في الوسـط تمامًـا بـين «فتـح اللـه فـراج» وزوجـة صديقـه «جبريـل أدومـة كـيري». انتهـرا الديـك في لحظـةٍ واحـدةٍ صائحـين: «كَـرْ كَـرْ.» ورمتـه أرملـة المرحـوم بحذائهـا فهـرب بعيـدًا في اتجـاه القفـص، فلحقـت بـه الدجاجـات وهـي تكيـك. نفـض «فتـح اللـه فـراج» الغبـار عـن وجهـه، وتنفـس الصعـداء.

كان الديـك قـد زاد مـن إربـاكـه أكـثر وشـلَّ تفكـيره، بـل وجعلـه يحـسُّ بالخـوف مـن شيءٍ مـا، فهـا هـو الديـك نفسـه الـذي يـراه كلـما أغمـض عينيـه محـاولًا النـوم، ويفعـل تمامًـا كـما فعـل الآن. مـا قصـة هـذا الديـك الغريـب؟ الديـك الـذي يبيـض ذهبًـا؟ أهـو شـيطان؟ الديـك الـذي أبـرم معـه اتفاقًـا مجهـولًا في مغـارة الرجـل الميـت في جبـل «عضـو الكلـب»: «أن يختـاره أو أن يختـار الفقـر» وهـل حـدث هـذا الاتفـاق فعـلًا أم هـي الكوابيـس؟ ولكـن لا يهـمُّ كثـيرًا مـا هـو الديـك؛ ملـك أم شـيطان، إنـه يسـتطيع أن يتحمَّـل كلَّ شروره إذا كان مـن الجـن، وكلَّ خـيره إذا كان مـن الملائكـة، طالمـا يسـتطيع أن يمتلـك الذهـب، وطالمـا سـيصبح الذهـب ملكـه بصـورةٍ شرعيـةٍ دون تأنيـب ضمـير، لأنـه سـيدفع مقابلـه «القبـول»؛ أيْ قبولـه بالديـك، فـلا يظـنُّ أن الديـك أسـوأ مـن الجـانِّ الخـادم الـذي شرطـه ممارسـة الجنـس مـع المخـدوم أينـما، وقتما، وكيفـما شـاء، فمعروف لـدى الجميـع أنـه ليـس للديـك ذكَـرٌ. الآن يهمُّـه أكـثر الذهـب، حتـى إذا كان سـيفعل بـه الديـك فعلـة الجـانِّ في المخـدوم، فالإذعـان لشـهوة ديـكٍ مقابـل الـثراء: مقايضـة عادلـة. الذهـب الـذي يعنـي حيـاةً تشـبه الحيـاة مقابـل الفقـر الـذي يشـبه المـوت. إنـه يريـد منـه أكـبر كميـة ممكنـة، يريـد أن يغـادر الفقـر للأبـد. المبلـغ الـذي يمتلكـه الآن دفـع منـه قسـط البيـت واشـترى الأثـاث وأقـام الكرامـة ووفَّـر بعـض الأغـراض الأخـرى المهمَّـة والضروريـة للحيـاة الجديـدة، لـه ولزوجتـه وأطفالـه، وهـو أيضًـا

يحتـاج لعربـة، حيـث لا توجـد مواصـلات عامَّـة في ذلـكَ الحـي الراقـي، ولـكي يسـتمرَّ في هـذه الحيـاة الجديـدة يحتـاج لدخـلٍ متواصـلٍ أو مـالٍ كثـير، وهـو يعـي ذلـكَ جيِّـدًا، ولكنـه بينـه وبـين نفسـه قـد حسـم أمـره: لا عـودة للفقـر مـرةً أخـرى.

كانـت «رشـا» قـد دخلـت المنـزل وفوجئـت بحضـور «فتـح اللـه» الـذي بـدا لهـا نظيفًـا جـدًّا، وشـمَّت عطـره منـذ أن خطـت رجلُهـا عتبـة البـاب الخارجـي، نهـض لتحيَّتهـا، وقـدَّم لهـا لومًـا خجـولًا سريعًـا لأنهـا لم تحـضر الكرامـة مـع أمِّهـا والتـوأم، فاعتـذرت بأنهـا كان لديهـا محـاضرات في ذلـكَ اليـوم بالـذات، وأخبرتـه بأنهـا حـضرت في اليـوم التـالي ولكنهـا وجـدت البنائـين يشـيِّدون الحوائـط، وأخبروهـا بـأن أصحـاب البيـت رحلـوا إلى «كافـوري» في ذات يـوم الكرامـة مسـاءً.

- صدقـت معـاك يـا عمـو، وبقيـت بتـاع راحـات، مـن «زقلونـا-جنـوب» إلى «كافـوري» وجهًـا لوجـه، مـن النـار للجنـة مبـاشرة، ألـف مـبروك يـا عمـو!

قال لها يحاول أن يكون متواضعًا:

- واللـه رغـم الفقـر كنـت بحلـم بالرجـوع إلى «كافـوري»، لبيـت والـدي اللـه يرحمـه، كان فيـه غفـير (خفـير) ... أنـت عارفـة أنـا مولـود هنـاك؟

بينـما كان يقـول ذلـكَ تذكَّـر أمَّـه التـي لا يعرفهـا ولم يرَهـا ولم يحـكِ أحـدٌ لـه عنهـا، حتـى والـده نفسـه لم يفعـل ذلـكَ ولـو صدفـةً أو عـن طريـق الهفـوات. ولكـن الإحسـاس بـالأمِّ ووجودهـا في مـكانٍ مـا في حياتـه، بـل وأثرهـا القـوي عليـه في وعيـه وفي مناماتـه لا يمكنـه أن يخطئـه أبـدًا، بـل أصبـح يخـاف أن يذكـر أبـاه إلَّا لمامًـا، لأن ذلـكَ قـد يجعـل البعـض يفكِّـرون في أمِّـه التـي حكينـا عنهـا في صفحـاتٍ سـابقات، وقـد يسـأل

سائلٌ عنها، وحينها لا يدري ماذا تكون إجابته، وقد تقع كارثةٌ ما، بينما يحسُّ أحيانًا بينه وبين نفسه عندما كان طفلًا أن تجاهل الناس وسكوتهم عن سيرة أمِّه يحدث بالتآمر غير المتَّفَق عليه.

تحوَّل النقاش إلى موضوعٍ آخر عندما سألته «رشا جبريل»:

- وين «السر» يا عمو؟

أجابها متأثرًا:

- والله ما عارفين وين هو، ولكن عندما اتصلت به أمُّه قال إنه قريب وحيجي، بعد أسبوع، يجي فجأة ويسافر فجأة ولا نعرف عن تنقُّلاته شيئًا.

استأذنت على أنها تودُّ أن تغيِّر ملابسها وتستحم: «الجو نار».

علاقتها بـ«السر فتح الله فراج» بدأت منذ أن كانا طفلًا وطفلة، هو يكبرها بخمس سنوات، أيْ في عمر أختها الكبرى المرحومة «شوشايا»، العلاقة الجميلة بين الأبوين جعلت الأسرتين تندمجان وكأنهما أسرة واحدة، ولأن «السر» هو الولد الأكبر سنًّا في الأسرتين فإنه يعتبر الأخ الأكبر لكلا البيتين، وهو بالفعل كان يمارس سلطات الأخ الأكبر هنا وهناك، ولولا الفقر الذي جعله يقطع دراسته ويتجنَّد في الجيش في سنٍّ مبكرة ثمَّ بالأمن العام، وبالتالي لو لم ينقطع عن الأسرتين لأصبح أخًا فعليًّا على الأقل، أو لكان الوضع مختلفًا بالنسبة لأخته الشقيقة «ميرم»، ولها هي كذلك، ولو أنه كان طيبًا وبسيطًا وحنونًا جدًّا منذ نعومة أظافره، ووفقًا للمعلومات التي تصلها عنه في مواقع عمله من زملاء الجامعة النشطين سياسيًّا، فهو يعتبر شخصًا مثاليًّا ولا علاقة له بالعنف المعروف عن المؤسسة التي ينتمي إليها، وكان رغم صغر سنه يفرِّق بين ضرورات الخدمة وبين السلوك الشخصيِّ الذي يخصُّ الأفراد، لذا كانت «رشا» لا ترى فيه شخصًا سيئًا بأية حال من

الأحـوال، ولا متناقضًـا أيضًـا، مجرَّد موظـف يـؤدي واجبـه الخدمـي، وهـو أيضًـا قـال لهـا ذات مـرة إنـه ليـس مـن واجبـات وظيفتـه ضرب النـاس أو قتلهـم وتعذيبهـم، ولم يطلـب منـه أحـدٌ ذلـك، كـما إنـه لم يفعـل مـن تلقـاء نفسـه. الغريـب في الأمـر أن علاقتهـا بأختـه «مـيرم» لم تكـن جيـدة، بـل ليسـت عـلى مـا يـرام، ربمـا لبعـض الغـيرة مـن جانـب «مـيرم»، حيـث إن «رشـا جبريـل» كانـت تفوقهـا جـمالًا وذكاءً، ولديهـا كثـير مـن المواهـب، وإنهـا أيضًـا محبوبـة ومعروفـة بـين النـاس، وإنهـا اسـتطاعت رغـم الفقـر أن تواصـل دراسـتها إلى أن تدخـل الجامعـة، ولم تسـتطع «ميرم» أن تتسـامح مـع ذلـك، مـع تلـكَ القـوة الإيجابيـة والطاقـة الكبـيرة لـدى «رشـا»، لـذا غالبًـا مـا كانـت لا تحبِّـذ الاقـتراب منهـا كثـيرًا، وأحيانًـا إذا وجـدت مـن يشـاركها رأيًـا سـلبيًّا عـن «رشـا» فإنهـا لا تـتردَّد في أن تخـبره بأنهـا تكرههـا جـدًّا. أمَّـا مـن جانـب «رشـا»، فإنهـا أيضًـا كانـت تعتـبر «مـيرم» منحرفـة أخلاقيًّـا، ولـو أنهـا بينهـا وبـين نفسـها تحسـدها عـلى علاقتهـا العاطفيـة المسـتقرَّة مـع «أحمـد زكي» ذلـكَ الشـاب الوسـيم الملتـزم الـذي يحـبُّ بصـدق، التجربـة التـي تفتقدهـا هـي بصـورة كبـيرة. الأسرتـان تعرفـان تلـكَ العلاقـة المتوتِّـرة بـين البنتـين، وتعرفـان أن علاجهـا ليـس بالسـهل، وتـتركان الحـلَّ للزمـن الـذي دائمًـا مـا يحمـل مفاتيـح الأقفـال الصدئـة.

التـوأم تحبَّـان زيـارة «السر فـراج» للبيـت، لأنـه عندمـا يـأتي مـن عملـه لزيـارة الأسرة، يحـضر لهـما هدايـا جميلـة، وأحيانًـا إذا توفَّـر لديـه بعـض المـال يأخذهـما مـع الصغـير «فـراج فتـح اللـه» إلى منتـزه «المقـرن» بالخرطـوم، حيـث يلعبـون في المراجيـح ويركبـون القاطـرة ويدخلـون بيـت الأشـباح الـذي يحبُّونـه جـدًّا لأنـه يجعلهـم يصرخـون ويضحكـون في نفـس الوقـت، وهـو إحسـاسٌ يملأهـم بالإثـارة.

رأت «رشـا» أن عليهـا أن تنضـمَّ لأمِّهـا و«فتـح اللـه» في الراكوبـة، ولكنهـا عندمـا فرغـت مـن الاسـتحمام وجـدت «فتـح اللـه» يقـف اسـتعدادًا

للخروج، فوعدته بأن تزوره في المنزل وتحضر معها التوأم، ولكي تشكره أيضًا، أشارت إليها أمُّها بالهدايا التي أحضرها معه، فشكرته كثيرًا وهي تقلِّبها في رزانة واضحةٍ وتشةٍّ مخبوء.

الديكُ عاد مرةً أخرى، كان قريبًا جدًّا منه، لم يلاحظ «فراج» ذلك، خلفه الدجاجات الثلاث، التوأم أيضًا تركتا لعبهما المتواصل وانضمَّتا لموكب وداع «فتح الله». عندما تقدَّم «فتح الله» نحو باب الشارع، كان الديك قد سبقه إليه، ودون أن يراه «فتح الله» تعثَّر به، فانتهره وهو يتخطَّى العتبة للخارج، وقامت الأرملة بضرب الديك بحذائها ففرَّ عائدًا إلى داخل البيت. كانت عربة الأجرة تقف في الخارج في انتظار «فتح الله» الذي يبدو أنه قد نسي أمرها تمامًا، واندهش عندما وجد السائق يجلس خلف مقود السيارة، لقد بقي بالداخل قرابة الساعتين، فاعتذر للسائق، الذي ابتسم له بما يعني: «كلُّ شيء بثمنه».

عندما تحركت العربة، واختفى أفراد أسرة «جبريل» المرحوم، تحسَّس «فتح الله» جيبه ليطمئن إلى أن البيضتين في مكانهما، ثمَّ قال للسائق وهو يضع سفة الصعوط ما بين لثته وشفته السُفلى: «عليك الله السوق العربي، عمارة الدهب».

عندما تلاشى عن ناظرهم آخر خيط غبار للعربة التي تقلُّ «فتح الله»، واتخذت الطريق الجانبي الذي سوف ينتهي بالأسفلت بعد عشر دقائق على أقلِّ تقدير، عادت الأسرة الصغيرة بتشوُّقٍ ولهفةٍ لمعاينة هدايا العم «فتح الله فراج» السخية، وقاموا بتجريب الملبوسات على أجسادهم، وكانت المقاسات مضبوطة بدقةٍ رهيبة، ممَّا أكَّد شكوكًا دبَّت لدى الأمِّ بأن زوجته «نصرة» هي التي اختارت الهدايا. أصرَّت التوأم «رؤى»، ألَّا تخلع ملابسها الجديدة مهما حدث، أمَّا «رانيا» فقد قامت بخلعها ووضعها في شنطة والدتها القديمة المترهِّلة، فهي تفكِّر

في لبسها مرة أخرى يوم العيد، الذي سوف يأتي حتمًا بعد شهور طويلة أو قصيرة قادمة لا تدري عن مقدارها شيئًا. الفتاتان الصغيرتان تتشابهان في المظهر، بل تتطابقان، أمَّا في السلوك فتختلفان كثيراً؛ فـ«رؤى» قليلة الكلام، ولكنها عنيدة وتفعل ما تراه هي مناسبًا لا غير، ويُطلِق عليها الصبية من الجيران: «الشريرة»، وهم يميِّزون بينها وبين أختها بالطباع لا غير، فعندما تكونان صامتتين أو نائمتين، يصعب على الجميع ما عدا أسرتيهما التفرقة بين «رؤى» الشريرة و«رانيا» التي لم تكتسب إلى الآن أيًّا من الألقاب غير «التومة»، وهو يُطلَق عليها وعلى أختها أيضًا، وكل التوائم الذين بحي «كوبا» أو «زقلونا-شمال» أو كما أسماه الوالي ذات نزقٍ جهادي، ثمَّ نسيه: «قُباء».

أمَّا «رانيا» فكانت هادئة الطبع، طيِّعة وحلوة المعشر، مجاملة، تبدو أكبر من عمرها قليلًا، وهي التي اكتشفت أن البيضتين قد اختفتا في الوقت الذي كانت فيه «رؤى» مشغولةً بملابسها الجديدة، هنالكَ بيضة حجرية واحدة فقط. سألت عنهما أختها «رؤى»، وظلَّتا تبحثان عنهما في كلِّ الأماكن المحتملة ولم تحصلا إلَّا على واحدة فقط، وهي التي كانت داخل قفص الدجاجات. عندما تشاجرتا في البيض بالأمس، أعطت أمُّهما واحدةً لكلٍّ من البنتين، وأودعت الثالثة القفص درءًا للمشاكل، وضعتها في ركنٍ قصيٍّ حتى لا تدركها يد الطفلتين، أخبرت «رؤى» أمَّها باختفاء البيضتين، قالت الأمُّ وهي تعطي تركيزها كلَّه للحوار الساخن بينها وبين ابنتها الكبرى في توزيع المليوني جنيه على الحاجات الكثيرة العالقة منذ أن توفي والدها، وقبل وفاته بشهور؛ أيْ منذ أن أعدم الوالي مهنته التي يسترزق منها:

- الحمد لله، عشان نرتاح من الشكلة اليومية في البيض، يا ما أنت كريم يا رب!

وأضافت في شماتة:

- إن شاء الله تاني ما تلقوهم.

قالت «رشا» مواصلة حوارها مع أمِّها:

- الملابس الداخلية أهم حاجة يا أمي، وبعد داك نشوف موضوع الأزمة!

قالت الأمُّ في إصرارٍ متجاهلةً سؤال الطفلتين:

- لا، لازم تمشي الدكتور تفحصي وتشتري أدوية الأزمة الحقيقية، كفاية حبوب الحساسية.

انصرفت الطفلتان وهما تتبادلان اللوم والاتهام، كلُّ واحدة تصرُّ على أن الأخرى هي المسئولة عن ضياع البيضتين. كان الديك يجري خلفهما، ويمرُّ بينهما بين حينٍ وآخر، إلى أن جلستا في موقع اللعب في ظلِّ الراكوبة الكبيرة، ما بين الحجرة الكبيرة والراكوبة ذاتها. التحقت بالديك بعض الدجاجات، استجاب لغزل دجاجةٍ صغيرةٍ حمراء، مرَّت أمامه وأصدرت صوتًا له معاني يدركها الديك وتدركها التوأم أيضًا، حنى جناحه الأيسر لها، دار حولها نصف دورة، دعاها لوجبةٍ من الحَبِّ وهمية، حيث نقر الأرض وكأنه يهمُّ بالتقاط وجبة شهية. اقتربت منه الدجاجة الصغيرة الحمراء أكثر. عندما قرَّب منقاره من رقبتها، انحنت على الأرض دافعةً مؤخرتها للهواء الطلق، رافعةً الريش الذي يغطِّيها لأعلى ولأسفل وللجوانب، فصعد عليها، مرة وأخرى، لاصقًا مؤخرته بمؤخرتها، ثمَّ نفضت ريشها وهربت بعيدًا وهي تكيك. التوأم تراقبان ذلكَ كلَّ يوم، وإنهما تستمتعان بغزل الدجاجات، وتعرفان أن تلكَ هي الطريقة التي يضع الديك بها البيض في بطن الدجاجات، وقد سألت «رؤى» يومًا أختها الكُبرى «رشا» عن ما إذا كان والدهم «جبريل» قد وضعهم في بطن أمِّهم بذات الطريقة؟

حِكَايَةُ الْبِنْتِ وَالْأُم

إن هـذه السـيدة، التـي ترتـدي ببسـاطة، وتغنِّـي ببسـاطة، وتبتسـم ببسـاطة، وقـد تحـبُّ أيضًـا ببسـاطة، هـي سـيدةٌ في غايـة التعقيـد، ويشـبِّهها بالكيبـورد في الكمبيوتـر، حيـث إن المسـتخدم يتعامـل في الظاهـر مـع أدواتٍ بسـيطةٍ وواضحـةٍ وسـهلة، ولكـنَّ العمليـة الإلكترونيـة التـي تقـوم بـأداء مهامِّـه الكتابيـة هـي مسـألةٌ معقـدةٌ لحـدِّ الجنـون، فالمسـتخدم البسـيط لا يلقـي بـالًا لـكلِّ مـا هـو خلـف الكيبـورد، ولكـنَّ العالِـم المفكِّـر عندمـا يضغـط عـلى رقـمٍ واضـحٍ في الكيبـورد، فإنـه يحـسُّ بشـبكة التعقيـدات التـي تحـدث بمعـدَّلٍ أسرعَ مـن سرعـة الضـوء، ويضـع لهـا ألـف حسـاب، فالبسـاطة يجـب أن تُؤخَـذ مأخـذ الجـد، كـما يقـول الفيلسـوف «هازلـت»، فهـي عمليـةٌ فنيـةٌ معقـدة.

عندمـا اشـتدَّ بـه ألم البطـن وكـثر الإسـهال، قـال لـ«فتـح اللـه فـراج» الـذي كان متشـكِّكًا فيـما يخـصُّ إسـهال صديقـه والخاتميـين المختفيـين.

- أنا بعلت الختم!

قال «فتح الله فراج» وفي فمه ابتسامة ذابلة:

- نعم أنا عارف، ولكن أنت ما قلت لي!

قال وهو يضع كلتا يديه في بطنه:

- بلعتهن يا زول!

قال «فتح الله فراج» وهو يضحك باستمتاع:

- أحسـن يـا اخـوي لمتـين ونحـن نعمـل تحـت النـاس وهـم يعيشـوا بعرقنـا نحـن، نحـن نصاقـر الشـيطانين والجنـون ونكـير ملـك المـوت في الحفـر والجبـال والصحـاري وهـم يخمـوا ويملـوا كروشـهم، مـبروك يـا اخـوي، بـس بطنـك مـا تبخـل لينـا بالختـم، اخـراه وريحنـا وارتـاح يـا رجـل.

ابتسـم «جبريـل» عـلى الرغـم مـن حُرقـة الألم الـذي يشـعر بـه، كان يحـسُّ بـأن شـيئًا مـا في بطنـه ينقـر في مصارينـه، تمامًـا كـما يفعـل صقـرٌ جائـعٌ في أحشـاء جثـة، إذا كان يجيـد وصـف مـا يحـسُّ بـه فعـلًا لعـرف أن ديـكًا شرسًـا يـأكل أحشـاءه وينهشـها بمخالـبَ قاسـيةٍ كأنهـا قُـدَّت مـن الحديـد، وأن صيـاح الديـك الـذي سـمعه عنـد الصبـح مـا كان يـأتي مـن الخـارج، بـل إنـه فعـلًا انطلـق مـن أحشـائه هـو بالـذات.

كانـا في بيـت «جبريـل»، وبـين أسرتـه، ولكـن «فتـح اللـه فـراج» كان يسـهر الليـل بطولـه في رعايـة صديقـه ويطلـب مـن الأسرة أن يأخـذوا راحتهـم، وأنـه لا خـوف عـلى «جبريـل كـيري» وأنـه سـينهض مـن مرضـه سريعًـا جـدًّا. وفي الرابعـة صباحًـا وعـلى صيـاح ديـك الفجـر طلـب

«جبريـل» الذهـاب للمرحـاض، فاصطحبـه «فـراج» كلُّـه أمـل ورجـاء في صيـد الخاتمـين هـذه المرة. عنـد بـاب المرحـاض جلـس «جبريـل» للتـبرُّز عـلى رمـال الأرض. بينـما وقـف «فـراج» قربـه يراقـب في قلـق، لم يخـرج «جبريـل» شـيئًا. تكلَّـم «جبريـل» في يـأسٍ وألم:

- خوفي كله أموت والختم في بطني!

قال له «فراج» في حزن:

- ما ح تموت، تأكد ما ح تموت، والختم ح يطلعوا ح يطلعوا.

عندما عـادا للحجـرة مـرة أخـرى اسـتفرغ «جبريـل» مـن أمعائـه سـائلًا أصفـرَ ثقيـلًا مرتـين، ثـمَّ جلـس فجـأة وسـط الحجـرة، بعـد أن تخلَّـص مـن سرواله الطويـل المصنـوع مـن التيـترن اليابـاني الرخيـص، وفي لحظـات قلائـل سـقط خاتمـان كبـيران مـن تحتـه، نظيفـان غـير ملوثـين بأيـة سـوائل، ولـو أن القِـدم يبـدو عليهـما وتراكـم السـنون؛ أيْ كأنما أُخـذا مـن القـبر مباشرة إلى الحجـرة. ولم يلاحـظ «جبريـل» أو «فـراج» صيـاح الديـك في تلـكَ اللحظـة، فقـد صـاح صياحًـا مُرعبًـا أشـبح بـصراخ الفيلـة. لقـد كانـا منشـغلين بالكنـز الـذي يسـقط مـن اسـت «جبريـل» الطاهـر الآن، نقيًّـا ومُدهشًـا وجميـلًا، تحيـط بـه هالـة مُتَخيَّلـة مـن الـثراء المرتقـب وشـميم المـال. نـام «جبريـل» بعـد ذلـكَ في هـدوء، وأخـذ يتنفـس في سـلامٍ مثـل طفـلٍ رضيـعٍ. ثـمَّ مـات وهـو نائـم.

بعـد مراسـم الدفـن بأسـبوع. أخـبر «فتـح اللـه فـراج» أسرة صديقـه بأمـر الخاتمـين. لـو عرفـت «رشـا جبريـل» أن والدهـا قـد بلـع خاتمـين وجدهـما في القـبر النـوبي، لعرفـت أنـه مسـموم ولأخذتـه إلى مستشـفى الحـوادث بالخرطـوم، مهـما كلَّفهـم ذلـكَ مـن مـالٍ قليـلٍ أتى بـه هـو، وهي متأكـدة أيضًـا أنهـم في المستشـفى سـوف يقومـون برعايتـه ولـو بالقـدر الـذي يحفـظ لـه حياتـه لا أكـثر، ولكـن صمـت الرجلـين عـن حقيقـة

المرض، كان لـه الأثـر الأول في مـوت والدهـا بذلـكَ الإسـهال الأصفـر، فهـي تعلـم أن أجدادهـا النوبـة القدمـاء كانـوا يحمـون ممتلكاتهـم مـن السرقـة بسـمِّها بمصـل الثعابـين.

تـولَّى «فتـح اللـه فـراج» أمـر الخاتمـين عنـد الصائـغ، وكانـا كأجمـل مـا يكـون، مصنوعـان مـن الذهـب، وفي المنتصـف بهـما جعرانـان صغـيران منحوتـان مـن الياقـوت الأخـضر، أمَّـا عـلى الجانبـين فتوجـد نقـوشٌ سـحريةٌ في غايـة الدقـة، أقـرب لأحـرفٍ نوبيـةٍ قديمـة أو رمـوزٍ توغـل معانيهـا في التاريـخ والقـدم، تحتـاج لشـامبليون جديـد يفـضُّ غموضهـا ويبطـل سـحريتها كـما فعـل مـع اللغـة الهيروغليفيـة، أمَّـا في باطـن الخاتمـين فيوجـد نحـتٌ لديـكٍ أو طائـرٍ أشـبه بالديـك.

سـأله الصائـغ عـن مـا إذا كان يريـد أن يبيـع الخاتمـين، إلا إنـه رفـض ذلـكَ قائـلًا إنهـما أمانـة مـن رجـلٍ مـات قبـل أسـبوع، ويجـب أن تـؤدَّى الأمانـات إلى أهلهـا. في الحقيقـة كان هـو أيضًـا يخـاف مـن المـوت، يخـاف منـه بشـدة، ويعـرف أن سرَّ مـوت صديقـه يكمـن في هذيـن الخاتمـين لا أكـثر، سرقهـما «جبريـل» فـكان عقابـه المـوت، فـالأولى بـه ألا يُلـدغ مـن ذات الجحـر الـذي لُـدغَ منـه «جبريـل».

قـال لـه الصائـغ المـراوغ، إنـه يمكنـه أن يسـتبدلهما بخاتمـين أغـلى منهما سـعرًا، وأثقـل وزنًـا وجـمالًا، وأكـثر عصريـة، ويعنـي بذلـكَ آخـر موضـةٍ مـن الخواتـم الذهبيـة التـي تحبُّهـا النسـاء كثـيرًا وتفضِّلهـا عـلى غيرهـا، ويطلقـن عليهـا اسـمًا ذكوريًّـا طاغيًـا وهـو: «الكاردينـال». أخـبره «فتـح اللـه» بأنـه لا يغير رأيـه. حسـنًا، طالمـا سـتبيعهما أسرة المرحـوم في يـومٍ مـا، فعليـه أن يكسـب فيـه أجـرًا، وخـيرٌ أن يبلغـه في ذلـكَ اليـوم، وسـيحصل عـلى أعـلى سـعرٍ يتمنـاه، نقـدًا وعـدًّا: «وليـك منـي هديـة خاصَّـة.»

ورفـض الصائـغ أن يسـتلم المبلـغ الـذي وضعـه مقدَّمًـا لـ«فتـح اللـه» مقابـل تنظيـف الخاتمـين، وأكَّـد لـه أنـه يكفيـه شرف تنظيفهـما ولمسـهما

بيديه، ممَّا أثار فضول «فتح الله» ليعرف شيئًا آخر عن الخاتمين، ولكن الصائغ اكتفى بجملٍ قصيرةٍ مبهمة، تتحدَّث عن القيمة التاريخية للآثار النوبية، وحذَّره من أن الحكومة إذا علمت بهما ستصادرهما، ولمَّح له بأن الذين سيصادرونهما سيبيعونهما في الحال: «وأنا في انتظار أسرة المرحوم.»

حكى الحكاية كلها بحذافيرها للأسرة، ليبيِّن أهمية الخاتمين، والأهم أن يظهر وفاءه العظيم لصديقه وأسرته، ولا بأس إذا أرادوا بيعهما أن يُستشار في الأمر، فهو سيضمن لهما أعلى الأسعار، مع تأمين عملية البيع، ولكنه لن يقوم ببيعه بنفسه.

ما لم يقله لهم «فتح الله» إنه كاد أن يوافق على بيع الخاتمين، فعرض الصائغ قد أسال لعابه، ولكنه في اللحظة التي فكَّر فيها بالبيع، وجد نفسه في دوامة أشبه بالحلم: شاهد «جبريل كيري» صديقه ينحني على الأرض، يخرج مُديته الكبيرة التي يذبح بها الماشية، كان نصلها يلمع كالبرق، أدخل المُدية كلها في بطنه، فانفتحت كوَّة كبيرة في ما فوق السُّرَّة، وذلكَ دون أن يسيل منها سوى شيءٍ شديد الاصفرار، خرج منها الخاتمان يلمعان في ضوء الشمس، وفجأة أتى ديكٌ كبيرٌ شرسٌ من حيث لا يدري، قد يكون سقط من السماء أو انبثقت عنه الأرض. لم يرَ مثله في حياته، كان أقرب للذئب منه لفصيلة الطيور. صاح الديك ثلاث صيحات، ثمَّ ضرب بجناحيه الهواء، ممَّا أثار الغبار الكثيف، وبدا وكأنه طائرة مروحية تهمُّ بالإقلاع، قال له الديك، بصوتٍ أجش: «الموت، الموت، الموت.» ثمَّ نفض جناحيه بشدَّة، حمل «جبريل» على ظهره وطار به محلِّقًا في السماء، ولكن عينَي الديك ظلتا تحملقان فيه، حمراوين كالشرر، وتصيحان: «الموت، الذهب، الموت.»

احتفظت «رشا» بالخاتمين في مكانٍ أمينٍ لا تصله أيادي التوأم

القلقـة التـي تعبـث بـكلٍّ مـا تدركـه وتضيعـه في لمـح البـصر. كانـت «رشـا» تعلـم تمامًـا أن الخاتمـين هـما إرثٌ ثقـافيٌّ قومـيٌّ لا يُسـتهان بـه، وأن التـصرَّف فيهـما ببيعهـما يعتـبر جريمـةً أخلاقيـةً وإنسـانية، وأنهـا لـن تقـوم ببيعهـما، عـلى الرغـم مـن الفقـر الـذي تعـاني منـه أسرتهـا، وهـي أيضًـا لـن تسـلِّمهما إلى أيـة جهـة حكوميـة كانـت، تخـشى عليهـما مـن أن يصبحـا ضحيـةً لفسـادٍ وإفسـادٍ منظَّمَـين، في زمـنٍ تعتـبر فيـه الدولـةُ كلَّ إرث شـعوبها القديمـة الثقـافيِّ غـير الإسـلاميِّ هـو ليـس سـوى سلسـلة مـن الضـلالات والوثنيـة، سـتقضي عليـه بالإهـمال أو الإتـلاف المتعمـد أو بالسرقـة الذكيـة المنظمـة، هـي تؤمـن بذلـكَ إيمانًـا قاطعًـا، وفي ذاكرتهـا حـادث سرقـة المتحـف القومـيِّ الشـهير. عـلى كلٍّ هـي لا تأتمـن سـوى نفسـها. صـورة والدهـا وهـو يسـهل لا تفـارق مخيلتهـا مطلقًـا، ووصيتـه لهـا قبـل وفاتـه بيـومٍ أن تعتنـي بأختيهـا وأمهـا، وأن تحافـظ عـلى نفسـها وشرفهـا، كانـت تـرنُّ في أذنيهـا.

هـي لا تنتمـي لأيِّ حـزبٍ سـياسي، ولكـن ظروفهـا المعيشـية الصعبـة، وإهمالهـا وأسرتهـا مـن قبـل المؤسسـات الحكوميـة، وسـوء إدارة المـوارد والفسـاد المؤسـسيِّ المسـتشري في البـلاد، والحـروب الكثـيرة التـي تديرهـا الدولـة، في دارفـور وجبـال النوبـة والنيـل الأزرق، محرقـة النخيـل في الشـمالية، إغـراق آثـار الحضـارات النوبيـة بالسـدود الغبيـة، والفقـر المدقع لفئـةٍ والـثراء الفاحـش لفئـةٍ أخـرى، الغـلاء والاحتـكار، انفصـال الجنـوب، الرئيـس الوحيـد الأبـدي الفائـز دائمًـا في كلِّ دورات الانتخابـات، التزويـر في الاقتراحـات العامَّـة، اغتصـاب وجلـد البنـات، جرائـم الحـرب، قـرارات الـولاة المتخبطـة، ختـان الإنـاث، سرقـة المـال العـام، مفاخـذة الرضيعـات وزواج القـاصرات، المحسـوبية والعنصريـة التـي تفيخهـا خطابـات المسـئولين وجرائدهـم، المحابـاة: كلُّ ذلـكَ جعلهـا تجـد نفسـها في المعسـكر الآخـر الرافـض للسـلطة القائمـة، بـل المقـاوم لبقائهـا بشـدة.

يطلـق عليهـا أصدقاؤهـا «الإنسـان الكامـل»، ويعنُـون كـمال الأخـلاق، ولـو أنهـا جميلـة، والمقصـود بجميلـة أنهـا بالغـة الجـمال، ولـو أن مـا تبـدو فيـه مـن ملابـسَ قديمـةٍ وخـارج نسـق الموضـات كلِّهـا، بسـيطة ورخيصة، لم يقلِّـل مـن جمالهـا الظاهـريِّ في شيء. جـمالٌ يخلـو من كلِّ لمسـة اصطناعية، فهـي لا تسـتخدم مـن المنظفـات غـير الصابـون، ومـن المرطبـات غـير زيـت السمسـم، ويمكـن ترشـيحها كملكـة جـمال القـرن الأفريقـي عـلى الأقـل. وهـي تعـي ذلـك، ويعـي أصدقاؤهـا الطـلاب وأسـاتذتها ذلـكَ أيضًـا، وهـي تثـير غـيرة الطالبـات الثريـات والفقـيرات عـلى حـدٍّ سـواء، لكـن طيبتهـا ومباشرتهـا في التعامـل ونواياهـا النظيفـة تجـاه الآخريـن، كانـت الـدروع التـي تحميهـا مـن شرور المحبَّـة والحسـد.

في الأيـام الأوائـل لوفـاة والدهـا، وبعـد «رفـع الفـراش» وانتهـاء مراسـم العـزاء، وبعدمـا سـافر أعمامهـا وعـادوا إلى بلداتهـم البعيـدة بـ«جنـوب كردفـان»، وانتهـى مخزونهـم الصغـير مـن المـواد التموينيـة الـذي تكـرَّم بـه الأعـمام والمعـزُّون، جلسـت البنـت وأمُّهـا فيـما بعـد اليـوم الأربعـين لوفـاة الأب «جبريـل أدومـة كـيري»، وأخذتـا تفكِّـران في أمـر الأسرة الصغـيرة، والتحـدي الكبـير الـذي ينتظرهـما لتظـلَّا عـلى قيـد الحيـاة، بـل لتواصـل «رشـا» دراسـتها إلى أن تتخـرج مـن كليـة الهندسـة، وهـذا هـمٌّ لـو تعلمـون ثقيـل، لم يـترك لهـما «جبريـل» شـيئًا مـن المـال يُذكـر، سـوى ذينـكَ الخاتمـين الغريبـين، ولكـن الأمَّ والبنـت قرَّرتـا عـدم بيعهـما إلَّا إذا أصبـح الأمـر حيـاة أو مـوت.

كانـت الدجاجـات توفِّـر لهـم بعـض البيـض، ولكـن ليـس بكميـةٍ تجاريـة، فـكلُّ مـا لديهـم مـن دجاجـاتٍ بلديـاتٍ لا يتعـدى الخمسـة، وديـكٌ واحـدٌ أتى وحـده يـوم وفـاة عائـل الأسرة الأب «جبريـل» وانضـمَّ لفريـق الدجاجـات الحزينـات الـلاتي لا ديـك لهـن، وكـنَّ يتلصصـن عـلى ديـوك الجـيران المطاليـق. كانـوا يسـتخدمون البيـض في الإفطـار، كـما أن

«فتح الله فراج» لم ينسَهم، على الرغم من فقره المدقع فإنه يقدِّم إليهم ما يستطيع من عون، وكلما أرسل ابنه «السر» إليه مبلغًا من المال، أخذ بعضه لأبناء «جبريل» صديقه، كما إن أسرة والدهما يرسلون قليلًا من المال أحيانًا، ولكن الدعم الأكبر كان من أسرة الأم، الأمِّ التي قرَّرت أن تعمل عملًا يليق بمؤهلاتها، وما تعرفه وتدرَّبت عليه طوال حياتها.

حملت سلَّتها الفارغة ذات صباحٍ باكر، ركبت المواصلات، ونزلت عند السُّوق المركزي بـ«الخرطوم»، تفرَّست الباعة الجائلين الفقراء وهم ينادون لبضاعتهم، كانت الفاكهة الطازجة تنظر إليها من كلِّ صوبٍ وجهة، اللحم معلقٌ في الواجهات النظيفة يغازلها بصمت. تذكَّرت زوجها اللاحم الأعظم، الذي كان يشبعهم من أشهى اللحوم يوميًّا، عليه الرحمة. أكوام الخضار هنا وهنالك، على الأرض، على المنضدات الصغيرة، على الجوالات المبتلة بالماء. «الخرطوم» كعادتها قريةٌ كبيرةٌ طازجة. مثل هذا السوق رأته في صباها في قريتها بـ«كردفان». إذا نحَّت جانبًا المباني العالية، السيارات الفارهة على جانبي الطريق، السادة الأثرياء الذين يشترون بالجملة كلَّ شيء، الأطفال المشردين الذين يسعون ما بين هنا وهناك يلتقطون البقايا والمرميات، لأصبح هذا المكان نسخةً مكبرةً من سوق «أم دفسو» أو سوق «أبو جهل» بمدينتها الصغيرة.

ثمَّ تمشت نحو العمارات الشاهقة تخوم حي «أركويت»، عبرت شارع الأسفلت الذي يسع أربعًا من السيارات، عبرته بخفة القط، هي قد عاشت في «الخرطوم» سنواتٍ طويلة، وتعرف كيف تتجنَّب السيارات المسرعة، وتعبر الطُّرق التي تخلو من سبيلٍ للمشاة. تمشَّت بين الشوارع الترابية التي تفصل العمارات الشاهقات عن بعضها البعض، لأوَّل مرةٍ تلاحظ ذلكَ التناقض الكبير بين تلكَ البيوت

الباهظات الكلفة وبين شوارعها المتسخة المتناثر عليها الأوساخ وبقايا الأطعمة. سألت نفسها في صمت: لماذا لا ينظِّفون الشوارع، فهي لا تكلِّفهم شيئًا، وبإمكانهم أن يستعينوا بعمالٍ من «زقلونا»، نساء ورجال يعملون باليومية. رأت نفسها وجاراتها الفقيرات وشباب الحي وآباءهم العاطلين عن العمل يعملون بجدٍّ في تنظيف الشوارع وواجهات البيوت الثرية من الأوساخ. كان أصحاب العمارات الشاهقات يبتسمون، فتظهر أسنانهم البيضاء التي تشعُّ مع ضوء الشمس، يقدِّمون الماء المثلج والأطعمة الشهية للعاملين الفقراء، وعندما ينتهي العمل يهَبُون أهل «زقلونا» النقود، فيأخذونها ويهرولون نحو السوق المركزي، ويشترون بها اللحمة والخضروات والفاكهة الطازجة الشهية، ويعودون لأبنائهم فرحين، ويعود المال مرةً أخرى لأصحابه.

طرقت أوَّل باب، ثمَّ لاحظت أن به جرسًا، لمست الجرس، فسمعت صليله يأتيها من الداخل، انتظرت قليلًا، ثمَّ انتظرت أكثر، ثمَّ سمعت وقع أقدام، كانت الخادمة الأجنبية هي التي فتحت لها الباب، سألتها بلكنةٍ عمَّا تريد، قالت لها إنها تريد «ناس البيت»، فردَّت الخادمة الجميلة بأن هذا المنزل ليس به «ناس»:

- إنه شركة.

قالت في حَزَنٍ وهي تنسحب تدريجيًّا نحو عرض الطريق:

- معليش، كنت قايلاه بيت.

في منزلٍ يبعد شارعين عن المنزل الأوَّل وجدت ضالتها. قالت لها السيدة الرقيقة السمراء، إنها يمكنها أن ترى غسيلها وأسلوبها في النظافة، وإذا أعجبها، فإنها ستسمح لها بأن تأتي إليهم مرة في الأسبوع: «هل تجيدين الطباخة؟»

«رشا»، كانت تقوم في أوقات فراغها بتمشيط الطالبات بالداخلية،

على أحدث الموضات في تصفيف الشعر، على الطريقة الإثيوبية أو الكينية أو البوب الشهيرة، وتعرف أساليب أخرى للمشاط، كما إنها أيضًا تعمل في الإجازة في الكوافير التجاريِّ بشارع «المعونة» ببحري، فهي تجيد رسم الحنَّاء بأشكالٍ هندسيةٍ فائقة الجمال وغير مطروقة، وتطلق خيالها في إعطائها أسماءً لا تخطر ببال النساء الزبائن اليوميات، فيندهشن ويطلبن خدماتها، بل يتبارين في أن يحظين بحناء المهندسة — كما يدعُونها — وخاصَّةً تلكَ التشكيلة المُسمَّاة: «جَنِّنيهُ». بذلكَ توفِّر مصاريف المواصلات، وتستطيع أن تغطِّي بعض حاجياتها الصغيرة، وما يخصُّ التوأم من متطلباتٍ يومية.

عجزت كلُّ قوَّادات الجامعة الماكرات عن أن يجررنها إلى وحل الغواية، كان المعجبون والعاشقون كثر، وهم يدفعون بسخاء، بعضهم أساتذة جامعات، وآخرون عسكر وتجار وموظفون وشيوخ دين، ساسة، شعراء حداثيون وكتاب قصص قصيرة، أعضاء برلمان داعرون ... وغيرهم. كانوا يرغبونها، فهي الفتاة الأكثر جمالًا، وهم في العادة مغرمون بالفتيات اليانعات صغيرات السن، قليلات التجارب، واللائي ليست لهنَّ علاقاتٌ مع الذكور الآخرين معروفةٌ للعامَّة على الأقل. يعرضون للقوَّادات المتملقات ما يغريهنَّ ويحفِّزهنَّ للمجازفة، ولكنها ترفض الانخراط في أقدم مهنةٍ عرفتها الإنسانية. كانت تقول لهنَّ بهدوء، عندما تقفل كلُّ الطرق الأخرى، فهي التي سوف تبحث عنهن. وهذا يعني أن انتظارهنَّ قد يطول.

تريد «رشا» أن تجرِّب حظَّها في عمل يديها، وتجد متعةً بالغةً وهي تقاوم الفقر بهذه الطريقة الخشنة، وساعدتها كثيرًا قراءة الروايات والقصص في توسيع إدراكها بالحياة، كانت دائمًا ما تجد نفسها في البطلات الفقيرات، وكيف أنهنَّ يعشن الحياة مستثمراتٍ فقرهنَّ ذاته بتحويله إلى ثروةٍ ضاربة، كما كانت تعجبها بطلات

«جبران خليل جبران» السحريات التقيات، وهنَّ قد خلقن لديها وعيًا مبكرًا بالعالم الماديِّ والدينيِّ والحقوقي؛ كانت الحياة بالنسبة لها روايةً طويلةً، كلَّ يوم يتخلَّق فيها فصلٌ جديد، وتضاف إليها بطلاتٌ شرساتٌ يقاومن من أجل بقائهنَّ كما يردن هن، وليس كما تقودهنَّ الظروف الموضوعية. القوَّادات لا يفهمن ذلك، لا يفقهن في المعرفة الخاصَّة بالإنسان، يعرفن أنها فقيرة، بالتالي إذا وجدت المال فإنها لن ترفضه، وقناعتهنَّ كبيرةٌ في أن الفقر يؤثر في نظرة الإنسان لما هو خير وما هو شر، وقالت لها إحداهنَّ ما يعني أنها إذا خرجت مع أحد الزبائن، فلا يعني أنها ستخسر شيئًا وأن العالم سينتهي: «فما فائدة العفة والبطن فاضية قُفَّة؟»

كان هذا يضحكها لا أكثر؛ المقصود أن سذاجتهنَّ تضحكها وتثير في نفسها الغثيان، والقوَّادات لسن مخلوقاتٍ نزلن من الجحيم، ولكنهنَّ طالبات معها في الجامعة، وعاملات بمؤسسات ذات صلة، وما يشبه الصديقات والأصدقاء، أمَّا القوَّاد الأعظم فهو «الفيسبوك»!

قال لها «فتح الله فراج» إن والدها كان يعلِّق على الذهب آمالًا عريضة، كان دائمًا ما يحلم بأنه المخرج النهائيُّ من الفقر والعوز، لذا لم ينتبه لنصائح قدَّمها له رجل يُسمَّى «أونور» البجاوي الحداد بشجرة عم «عبد الرحيم»، الذي حذَّره من أن الذهب به خيرٌ كثيرٌ ولكنَّ شرَّه أكثر: كان هو و«جبريل» قد حسما أمرهما، ولكن الخطأ الأول هو أنهما أعلنا لأكثر من شخصٍ ولأسرتيهما إنهما يرومان الذهب، فوصية «أونور» لهما — وهي معروفة ومطبقة حرفيًّا لدى الدهابة — إنهم لا يعلنون ذلك، ولا يذكرون الذهب باسمه، يسمُّونه أيَّ اسمٍ عرضي، مثلًا: العُشرة، الحجارة، أو الشيء، حتى يضللوا الشيطان، لأنه عندما يعرف أن هنالكَ من يريد الذهاب للذهب، فإنه يذهب قبله ويخفيه أو يحرسه، فالشيطان يعتبر أن كلَّ الذهب الذي بالعالم، هو

ملكيـةٌ خاصَّـةٌ لـه، وعليـه حمايتهـا مـن المتطفلَـين، وهـما: بنـو البـشر، والعفاريـت التـي هـي مخلوقـاتٌ وسـطٌ بـين الشـياطين والبـشر.

الخطـأ الثـاني، هـو أنَّ والدهـا، عليـه الرحمـة، مـا كان يجـدر بـه أن يبتلـع الخاتمـين، ولقـد «نصحتـه بنفسـي»، وأخـبره «أونـور» أيضًـا بوضـوحٍ تـام، و«لكـن القـدر يعمـي البـصر».

والخطأ الثالـث، قالتـه هـي لـ«فـراج»: «لا أنـت ولا هـو، مـا في زول قـال لينـا أبـوي بلـع حاجـة مـن القـبر!» قالـت لـه إنهـما؛ أيْ هـي وأمهـا، اتفقتـا عـلى أن تحتفظـا بالخاتمـين مـن أجـل التـوأم، عندمـا تكـبران وتدخـلان الجامعـة بإمكانهـما بيعهـما والاسـتفادة مـن سـعرهما في الحيـاة ومصاريـف الدراسـة، وقالـت لنفسـها: «قـد لا تتحمـلان مـا تحمَّلتُـه، والقـادم أخطـر»، وهـذه الجملـة الأخـيرة التـي همسـت بهـا لنفسـها أيضًـا، قفـزت لهـا مـن ذاكـرةٍ مشـحونةٍ بالشـعر، ومـن مفكِّـرةِ المحبَّـةِ الخاصَّـةِ للشـاعر العراقـي «مظفَّـر النـواب»، ودون أن تشـعر أخـذت تـردِّد:

«هل كانت بغيٌّ،

ليس لها أحدٌ في هذي الدنيا الرثة؟»

قالت لها القوَّادة:

- اسـتفيدي مـن شـبابك، بكـرة تلقـي نفسـك في مهـب الريـح، وتقـولي ياريـت، حيـث لا ينفـع النـدم.

ثم أضافت ما يُشبه دعاية شركة اتصالٍ كاسدة:

- استمتعي واكسبي.

تحـبُّ «رشـا» الغنـاء، تعشـقه، كان صوتهـا مـن طبقـة «سـوبرانو»، وأداؤهـا يكسـبه بُعـدًا أسـطوريًّا آخـر، طلـب منهـا بعـض أصدقائهـا الذيـن بالجبهـة الديمقراطيـة مشـاركتهم في أداء كـورال الجبهـة بالجامعـات السـودانية، فأعجبتهـا الفكـرة، ثـمَّ أصبحـت مـع الأيـام قائـدة الفرقـة

الغنائيـة كلِّهـا، كانـت تعجبهـا مـن كلِّ الكـورالات جملـةٌ واحـدةٌ وهـي:

«مش بتطلع كلّ يوم الشمس أجمل،

والنخلة أطول جيد وقامة»

ومــن أجــل هــذه الجملــة الشــعرية وحدهــا حفظــت عــشرات الأناشـيد الوطنيـة التـي تدعـو للديمقراطيـة والوحـدة وحقـوق الإنسـان، أمَّـا تلـكَ التـي لهـا أهـداف حزبيـة واضحـة، فلـم تتوقَّـف عندهـا كثـيراً، كانـت تردِّدهـا بآليـةٍ وكأنهـا لا تعنيهـا في شيء، ولـكي تشـغل نفسَـها أكـثر بالجـمال، كوَّنـتْ مجموعـة «تصوُّف» الإنشـادية، وتغنِّـي مـن خلالهـا نصـوص النفـري والنابلـسي وابـن عـربي والحـلاج وبعـض أشـعار والـت ويتـمان وإ.إ.كامنجـز، وفصـلًا قصـيرًا مـن روايـة «الطواحـين».

كان القـوَّاد الأعظـم «الفيسـبوك (facebook)» يحمـل إليهـا رسـائلَ داخليــةً مــن المعجبـين وأشــباه المعجبـين، السـفلة، والمتطرفـين دينيًّـا، والشـاعر «عبـد اللـه الشـيطان»، يُلقَّـب بالشـيطان ولكنـه يحمـل اسـم «عبـد اللـه نوريـن» في بطاقتـه الشـخصية، يحمـل إليهـا أيضًـا رسـائلَ غـرامٍ ملتهبـةً، وجنـونَ عشـقٍ نـاريٍّ، ولكنـه كاذبٌ وخبيـثٌ وتسـيل مـن ألسـنته الشـهوة وكلُّ رذائـل الدنيـا.

الجميـل في الفيسـبوك إنـه غـير ملحـاح ويمكنهـا أن تهمـل تلـكَ الرسـائل، بـل إنهـا لا تقرأهـا في كثـيرٍ مـن الأحيـان، ولـو أنـه يحتـال عليهـا أحيانًـا، فـذات مـرةٍ أرسـل لهـا رجـلٌ يسـمِّي نفسـه «نانـا»، فظنَّـت أنـه فتـاة، ولكنهـا اكتشـفت أنـه أحـد الداعريـن المنتحلـين جنسـيًّا وفكريًّـا، وكرهـت نفسـها جـدًّا ولعنـت اليـوم الـذي قبلـت فيـه أن تقـرأ رسـائله، ولحسـن حظِّهـا أيضًـا أنهـا لا تمتلـك لاب تـوب أو كمبيوتـر أو موبايـل، بالتـالي لا تدخـل الشـبكة العنكبوتيـة إلَّا صدفـة، لـذا تسـتمتع بوقتهـا في قـراءة الكتـب الورقيـة، وتسـتلفها مـن مكتبـة خيريـة بالصحافـة، بمبلـغٍ

زهيدٍ جدًّا يُدفَع شهريًّا. وعندما عرف أمين المكتبة أنها قد تعجز عن دفع المبلغ قام بإعفائها، طمعًا في مشاركتها في أنشطة المكتبة الثقافية والاجتماعية. كانت تقيم الأمسيات الغنائية من خلال «جماعة تصوُّف»، التي أصبح لها صيتٌ ثقافيٌّ معقولٌ بعد أن انضمَّ إليها كثيرٌ من المغنِّين الهواة، الشباب المثقَّفين بالذات، أو على الأقل الذين يتذوَّقون منامات الوهراني، ومواقف النفري، ويطربون لجنون إدوارد إستلن كامنجز (e. e. cummings)، وفظاعة فرانز كافكا.

من خلال «جماعة تصوُّف» تعرَّفت «رشا جبريل» على أوَّل عشاقها الحقيقيين، وهو الروائيُّ «أدومة» مؤلِّف رواية «الطواحين»، وكلمة الحقيقيين هنا تعني أنه استطاع ببصيرةٍ شعريةٍ، على الرغم من أنه روائيٌّ، أن يدرك أن بجسد «رشا» طقسًا روحيًّا مخبوءًا، ولا يمكن استثارته إلَّا بالصلاة. وممَّا جعل لعشقهما أن يصير ممكنًا، إن «أدومة» أدرك منذ اللحظات الأولى التي شاهد فيها «رشا» وهي تغنِّي قصيدة التركي «أورهان والي»:

«أعشق الجميلات

أعشق العاملات أيضًا

وأعشق الجميلات العاملات

أكثر.»

إن هذه السيدة، التي ترتدي ببساطة، وتغنِّي ببساطة، وتبتسم ببساطة، وقد تحبُّ أيضًا ببساطة، هي سيدةٌ في غاية التعقيد، ويشبِّهها بالكيبورد في الكمبيوتر، حيث إن المستخدم يتعامل في الظاهر مع أدواتٍ بسيطةٍ وواضحةٍ وسهلة، ولكنَّ العملية الإلكترونية التي تقوم بأداء مهامِّه الكتابية هي مسألةٌ معقدةٌ لحدِّ الجنون، فالمستخدم البسيط لا يلقي بالًا لكلِّ ما هو خلف الكيبورد، ولكنَّ

العالِـم المفكِّـر عندمـا يضغـط عـلى رقـمٍ واضـحٍ في الكيبـورد، فإنـه يحـسُّ بشـبكة التعقيـدات التـي تحـدث بمعـدَّلٍ أسرعَ مـن سرعـة الضـوء، ويضـع لهـا ألـف حسـاب، فالبسـاطة يجـب أن تُؤخَـذ مأخـذ الجـد، كـما يقـول الفيلسـوف «هازلـت»، فهـي عمليـةٌ فنيـةٌ معقـدة.

طالمـا كان لا يعـرف عنهـا الكثـير، كانـت قـد قدَّمـتْ نفسـها إليـه، بأنهـا السـيدة ذات العلاقـات العاطفيـة الشـائكة، وكان هـذا آخـر مـا يتوقَّعـه، عـلى الرغـم مـن أنـه لا يعنـي عنـده الـشيء الكثـير، وهـو أيضًـا يعنـي أنهـا سـيدةٌ ناضجـة، فالخـبرة العاطفيـة هـي الكنـز الـذي لا ينضـب معينـه، وقالـت لـه أيضًـا إن وراء كلِّ مـا تقـوم بـه أحزانًـا كثـيرة، وقـد اسـتخدمت بعـض بيـتِ شـعرٍ للشـاعر «أمـل دنقـل»:

«أحزانٌ بلا جدوى،

ودمعةٌ سدى.»

وكانـت تعـرف أن الحقيقـة عنـد الـروائيِّ هـي خليـطٌ مـن الخيـال والطفولـة، وهـو ميَّـالٌ لأن يبقـى طفـلًا طـوال الوقـت، تبـيَّن لهـا ذلـكَ أوَّل مـرةٍ عندمـا كانـت تقـرأ السـيرة الذاتيـة لماركيـز: «عشـت لأروي»، فالأكاذيـب التـي بهـذه السـيرة تفـوق حقائـق الواقـع الفعـليِّ الـذي يحـكي عنـه «ماركيـز» وعاشـه وعرفـه وخـبره ذاتيًّـا، ولثلاثـة أسـبابٍ تتحـوَّل أكاذيبـه الجميلـة إلى حقائـق دامغـة:

أولًا، هـو لا يـدري أنـه يكـذب كثـيرًا، أو قليـلًا، فهـو يـروي، وبذلـك اعـترف ضمنيًّـا بأنـه يسـتخدم ملـكاتٍ سرديـة. الـشيء الثـاني أنـه مقتنـعٌ في قـرارة نفسـه بـأن لا حقيقـة أكـبر مـن التخيـل، أمَّـا الـشيء الثالـث، فأنـه لا يـضرُّ أحـدًا بكذباتـه تلـكَ الصادقـات اللذيـذات، بـل لقـد أمتـع الكثيريـن دون حـدود، في كلِّ أنحـاء العـالم، بـكلِّ اللغـات المكتوبـة. فالـروائيُّ الجيِّـد هـو الـكاذب الأكـثر مهـارة.

بهـذا الظـنِّ المتبـادَل بـين الاثنـين، تخلَّقـت العلاقـة، وظـلَّا مثـل صديقـين لا أكـثر؛ صديقـين حميمـين. كلُّ مـا كتبـه «أدومـة» مـن روايـات هـي روايـة «الطواحـين»، لديـه أخريـات لا يعـرف كيـف يقـوم بنشرهـا ولا متـى، يشـتكي دائمًـا مـن الناشريـن ويتشـكَّى قليـلًا مـن كسـله وقلَّـة همَّتـه، وأحيانًـا يبـدو مثـل الكثـير مـن المثقفـين المحبَطـين الذيـن يكيلـون اللـوم للسُّـلطة الزمانيـة، ويحمِّلونهـا فشـلَهم الاجتماعـي، بـل فشـلهم الجنـسيَّ والعاطفـيَّ أيضًـا. يكتـب بعـض القصـص القصـيرة في الجرائـد هنـا وهنالـكَ مجانًـا، يعمـل معلِّـمًا بالمـدارس الثانويـة، وعمـره ثلاثـون عامًـا؛ أيْ إنـه يكبرهـا بسـبع سـنواتٍ عـلى الأقـل. مـرَّا بظـروفٍ في العشـق كثـيرةٍ وغريبـة، عـبرا اختبـاراتٍ معقـدةً وضـع أحدهـما الآخـر فيهـا، حلُـما بـكلِّ جميـل. مثـل طفلـين في «مرجيحـة» كانـا يهبطـان ويصعـدان بالدنيـا والعـالم.

الحـبُّ في مدينـة «الخرطـوم» نـوعٌ مـن المغامـرة غـير مضمونـة الجوانـب، لأنـه ببسـاطةٍ قـد ينتهـي بالعاشـقَيْن في حفـرةٍ كبـيرةٍ عنـد ضواحـي «أم درمـان» وتنهـال عليهـما الحجـارة مـن آثمـين آخريـن، يرجمونهـما وهـم يكبِّرون ويحوقلـون، وعـلى رأسـهما قـاضٍ كئيـبٌ يدَّعـي التقـوى ويرمـي بحجـارةٍ كبـيرةٍ بائلـةٍ رأسـيهما، وإذا لطـف اللـه بعبـاده فقـد تكـون نهايتهـما بالجلـد بمـا يـراه القـاضي كافيًـا لإعـادة الأرواح الآثمـة الضالَّـة إلى زرائـبِ الـربِّ الفسـيحة الطاهـرة.

وحدهـم الأثريـاء، وأقارب السياسـيين، والدسـتوريين، وكبار العسـكريين، ورجـال الديـن، هـم الذيـن يعرفـون كيـف يسـتمتعون بهـذه الفضيلـة الإنسـانية بطمأنينـةٍ وحريـةٍ أكـثر مـن أيِّ شـخص آخـر، دون أن يتعرَّضـوا للعقـاب والملاحقـة القانونيـة، لأنهـم يختبئـون مـن الشرطيـين في بيوتهـم الحصينـة وعرباتهـم المظلَّلـة، وموبايلاتهـم التـي تتصـل في حالـة الـضرورة بـ«الكبـير»، الـذي بجملتـين حاسـمتين يجعـل رجـل النظـامِّ العـامِّ يعتـذر للعاشـقَيْن ويتـلاشى في ظـلام المدينـة لاعنًـا حظَّـه لبقيـة اليـوم.

كانا يعيان ذلكَ جيِّدًا، ولكن إلحاح فكرة الحُبِّ نفسها، والحاجة لاكتشاف الآخر، وجنون الرغبة في الاقتراب من بعضهما البعض، قادتهما للمغامرة، ولكن هنالكَ جوانب أهمَّ في هذه العلاقة، سنلقي عليها بعض الاهتمام، مثل عدم مقدرتهما على تعريف العلاقة التي يقعان في جُبِّها؛ أهي حُبٌّ أم مفاكَرَةٌ ومثاقَفَةٌ؟ لأن ما يدور بينهما من نقاشٍ فكريٍّ معرفيٍّ أكثر ممَّا يدور بينهما من همسٍ وتواجدٍ وملاطفةٍ ومجاسدةٍ، والأخيرة لم يفكِّرا فيها مجرَّد تفكير. ثمَّ هنالكَ «فوبيا الرجل»، التي ظهر بما لا يدعُ مجالًا للشكِّ أن «رشا» تعاني منها كثيرًا، بالأدقِّ فوبيا جسدِه بالذات، للدرجة التي جعلت «أدومة» يظنُّ أنها قد اغتُصِبتْ من قبل. سوف تحكي له في المستقبل حكاية أمِّها وأبيها، وكيف كانت تسمع وترى وهي طفلة، وإن صرخات أمِّها كانت تطير قلبها من صدرها، ولا تصرخ أمُّها في العادة إلَّا إذا تعرَّى والدها «جبريل كيري» وأسقط جسده العاري عليها، تجري تلكَ المعارك في السرير الملاصق لسريرها مباشرة.

لم تتردَّد «رشا» لحظةً في أن تمكِّنه من أن يراها عارية، ولم يحدث ذلكَ صدفة، ولكنه حدث إثر حوارٍ عميق، واقتنعت بأن تستعرض تحفتها الآدمية الحية أمامه، تمامًا كما تفعل الموديل، ولم يكن للأمر شأنٌ بالجنس، لم يفكِّرا فيه مطلقًا كما ذكرنا سابقًا، كانا يفكِّران في موسيقى الجسَد، موسيقى تخصُّها، وهي السحر الذي يجذب إليها الآخرين. لكي لا تقلق هي، لم يحاول أن يستخدم كاميرته لتوثيق الحدث، لكنه يعرف أن وراء الكاميرا دائمًا الشكوك، ولم يكن رسامًا يمتلك مخيلةً تشكيليةً ليرسمها فيما بعد، وليس بنحَّاتٍ أو مصوِّرٍ من أية درجة، ولكنه يحبُّ الموسيقى. كان يقف أمامها مشدوهًا، والأحرى به أن يقوم بعملٍ ما، بفعلٍ ما، فخطر بباله أن يصلِّي، صلاةً من أجل هذا الجسَد العبقري؛ صلاة الجسَد. لم تخطر بباله سورةٌ ما، أو

آيـةٌ مـن أيِّ كتـابٍ مقـدس، لم تمـرَّ عـلى خيالـه أسـطرٌ مـن أيِّ زبـورٍ كان، كان «النفـري» الحـاضر الوحيـد، وفي الأفـق تلـوِّح لـه بأيـدٍ مرتبكـةٍ فقـراتٌ مـن «هكـذا تكلـم زرداشـت» لنيتشـه، كان يحفظهـا منـذ سـنواتٍ طويلـةٍ ماضيـات، قالـت لـه وهـي تنتصـب مثـل تمثـالٍ مـن البرونـز: «وعدتنـي بصـلاة الجسـد»؛ فصـلَّى يرتِّـلُ:

«أبناؤنا المشرَّدونَ على جسَدِكِ الحار،

يرقصونَ على إيقاعِ نبضِك،

يتمرجحونَ في هدوءِ أنفاسِكِ وابتسامتِكِ الناعسة.

أنتِ مُسجَّاةٌ هنالكَ بكاملِ إرادةِ الوقتِ والقهوة،

بكاملِ صُراخِ العُشيباتِ المُصطفاةِ في سبيلِ النشوة،

يمهِّدنَ سُبُلَ الرَّب،

ينشدْنَ صلاةَ الجسد: أُحبُّكِ، أُحبُّكِ، أُحبُّكِ، ألفَ نجمٍ وطائر،

زرافةٍ في سافنَّا «كُوما قنذا» الغنيَّة،

وأنتِ مثلَ ماءٍ يتدفَّقُ بينَ صخرتينِ طيِّبتينِ كأحجارِ موسى،

تبعثرينَ جسَدكِ في المكان،

تتشهِّينَ الشيءَ أن تذوبي فِيَّ.

ومثلي كما لمْ يعلمْهُ الله،

خائنٌ وماكر،

لا يثقُ في حنينٍ يموءُ كهرٍّ جبليٍّ شبِق.

صلاةً لأجلكِ وحدكِ،

أقلِّدُ فيها إفكَ الحمام، وصدقَ الذئاب، وفِسقَ الدجاجاتِ،

وأبكي؛ لأني أغنّي بصوتٍ وأبكي بصوت،

وأجني ثمارَ النهودِ التي تزهرُ فيكِ بصوت،

أدعو وأعلمُ أن الإلهَ يجيبُ دعاءَ الشقِيّ.

أصلّي صلاةَ الجسَد،

لربٍّ يظلِّلُ ليلَ البناتِ الجميلِ بجناحَيَّ،

وأنتِ البُنيَّاتُ يَنَمْنَ في خاطري،

يخَفْنَ الرجالَ جميعًا إلَّا أنا، الوحيدَ في جوقةِ الجوارح،

يعطي الطمأنينةَ والخوفَ والجنَّ وشهوةَ الانتشاءِ بذات الألم.

أصلّي لأجلكِ صلاةَ الجسَد،

لا سُورةَ تُقرأ، لا توراة، لا إنجيل،

لا كماسترا، لا مشيل فوكو أو فوكوياما، لا فيدا،

لا سردياتٍ كتلكَ التي في كتابِ الموتى،

لا النفري، لا شيركو بيكا س، لا شيخ سنار التقى فرح،

لا دون جوان خليعًا.

ليسَ سِوى بُوذا ينقِّطُ ميلادَ عيسى المسيحِ بحبرِ اللوتس،

يديرُ بوصلةَ القياماتِ والأمهاتِ الجميلاتِ إلى وقتنا المتَّقِد.

صلاةً لأطفالِنا في الجسد.

ما بين صدرِكِ ونهدِكِ ونعليكِ،

ما بين شاربِ اللذةِ، وسكينةِ الجنجويدِ في رقابِ المساكينَ،

أصلّي لأجلكِ صلاةَ الجسَد،

مثلَ النخيلِ يلطِّفُ وجهَ السماءِ المحرَقَ بالشمسِ والانتظار،

مثلَ الدليبِ والدوم، تعلو بأوراقها وتُسقطُ أبناءَها كأبنائِنا المشردينَ في الأرض.

أصلِّي لأجلكِ وحدَكِ صلاةَ الجسَد.

امنحيني صلاةً تُصلَّى لأجلكِ.

لأجلكِ وحدَكِ صلاةُ الجسَد.

كُنَّ في الليلِ والغربةِ نفسَ المسافةِ ما بين ليلٍ وغربة،

نفسَ الجسَد.

أحبُّكِ، أحبُّكِ، أحبُّكِ، أحبُّكِ كثيرًا كحبةِ رملٍ، كذرةِ تِبرٍ وحنظل.

أحبُّكِ جدًّا كشدوِ طيورِ الكُلج، كوخزِ ضميرِ الحمام.

أحبُّكِ أيضًا، وأنَّى، ولكن، وثمَّ، وبعد، وليت التي، ثمَّ ماذا، وكيف؟

صلاةً لأجلكِ وحدَكِ،

كأطفالِنا المشرَّدينَ فوقَ أديمِ الجسَد،

بلذَّةِ الرملِ الذي نغنِّي لهُ،

أحبُّكِ، وكنَّا يمرُّ القطارُ بعيدًا رويدًا رويدًا، تهمسُ لي:

«بِحُب ... حبيبي، بِحُب».

أمدُّ يدي للسماءِ وقلبي،

أستعينُ بشيخي وسيِّدي النفري، بالمواقف والمخاطبات،

أصلِّي وأسلِّم، أشبِعُ الوقتَ والميتين.

رأيتكِ عندَ الصباحِ البهيِّ تحلبينَ النعاج،

تثقو بلحنِ سليمان النعاج،

نشيدًا لإنشادِ الجسد.

كنتِ تنثرينَ وردَكِ ملءَ المساء،

كغاردينا البعاعيتِ[1] مسمومةً ومُشتهاة، يفوحُ عطركِ،

يُسكِرُ شهوةَ الاتعاظِ الغبيِّ لدينا «وحشُ السريرِ الزنيم»،

وأنا مثلَ قنٍّ يهيمُ بزوجةِ ملك،

وأنتِ سلطانةٌ تُغوي خِلًّا يخونُ ويوفّي،

بِحُبٍّ يغنّي:

لنا ما لنا مِن حنينٍ لنا، لنا ما لنا مِن جمال.

يا هذه، يا مجدليةَ الروح، يا مريمي، ومريمي الأخرى وفاطمتي.»

أكـثرُ مـا يعجبـه بصـورةٍ عامَّـةٍ في المـرأة وسـطها ونهداهـا، وزاويـة النظـر التـي تنظـر إليـه بهـا بينـما يضـع كفتيـه في وسـطها، تعجبـه المـرأة التـي تحـسُّ بمجـرَّد النظـرة، تعـي همـس القلـب للقلـب، تفهـم لغـة الجسَـدِ وتتحدَّثهـا، المـرأة التـي تجـاوب أسـئلته الغبيـة قبـل أن تتشـكَّل في ذهنـه. الجنـس لا يعنـي لـه الكثـير، بـل قـد لا يعنـي شـيئًا عـلى الإطـلاق، الجسَـدُ في كمالـه كلوحـةٍ لفنـانٍ صـادق، تُدخِـل المتعـةَ في النفـس واللـذة، دون أن تُلمَـس أو تُتَـذوَّق أو تُشَـم. فاللوحـة لا رائحـة لهـا، ولكـن التـي لا تسـتطيع أن تمـلأ رئـة المشـاهد بعبـيرٍ كـونيٍّ منعـش، هـي تخطيـطٌ جامـدٌ ومملـ. واللوحـة لا طعـم لهـا، ولكنهـا ماسـخةٌ وكئيبـةٌ تلـكَ التـي لا تثـير مرارتُهـا جنـونَ الفـم. واللوحـة لا ملمـس لهـا، وسـتظلُّ لينـةً وبـاردةً، إذا لم تحـسَّ الأصابـع بطزاجتهـا وسـخونة ملمسـها. كـذا الجسَـد. والفـنُّ بصـورةٍ عامَّـةٍ إذا لم يُـثرْ حفيظتـكَ فإنـه لا يكـون قـد نضـج بعـد. الفـنُّ إذن مثـل

(1) البعاتي هو الشخص الذي يحيا من الموت.

الجسَـد، لا يمكـن أن يمـرَّ دون سـؤال.

ظـنَّ أن بينهـما لغـةً مشـتركةً فيـه ووعـي. خطـرت لـه فكـرة أن يعـبِّر عـن ذاتـه، أن يتعـرَّى مثلهـا، وهنـا كادت أن تقـع الكارثـة، كانـت فكـرة عُـري الرجـل ترتبـط عندهـا بالجنـس والألم والـصراخ الليـليِّ الحزيـن، بحشرجـات الاحتضـار التـي تطلقهـا أمُّهـا، لا شيء آخـر، وإنهـا لا تحـبُّ أن تفعـل ذلـكَ الآن، بـل تخـاف منـه خوفًـا واضحًـا، فمنعتـه أن يخلـع ثيابـه. كاد أن يفهـم وجهـة نظرهـا ويعـي حقيقـة شـعورها وتجربتهـا المريـرة، ولكنـه أحـسَّ بالإحبـاط عندمـا قالـت لـه: «إذا تزوَّجنـا، فقـط إذا تزوَّجنـا. هـل سـنتزوَّج؟» فضـاع في لجـج الإفهـام وتـاه.

كانـا يسـتمتعان بتجربـة التحكُّـم في النفس، يسـمِّيانها «التحكُّـمُ المطلَقُ في الرغبـة»، ويظنَّـان أن المتصوِّفـة الأوائـل كانـوا لا يبالغـون كثـيرًا وهـم يتخلَّصـون مـن شـهواتهم أو يعبُرونهـا نحـو الموضوعيـة، وبذلـك تصبـح المـرأة العاريـة كالشـجرة، تُعجِـب ولكنهـا لا تثـير غرائـز الإيقـاع؛ فمـن الـذي يضاجـع زهـرة! ولا يخفـى تأثـير روايـة «الطواحـين» عـلى الاثنـين؛ الكاتـب نفسـه وفتاتـه. وكانـا في الحقيقـة يعيـان ذلـك، ففكـرة التحـوُّل إلى شـخصياتٍ سرديـةٍ تحتـاج لخيـالٍ جامـحٍ ولجسـدٍ لـه حساسـيةٌ عاليـةٌ في تقبُّـل الإشـارة «الكهروروحيـة» وتحويلهـا إلى فعـلٍ أو أفعـالٍ تحقِّـق متعـةً كبـيرةً وتوازنًـا في الجسَـد والـروح والعقـل؛ وتلـكَ مدرسـةٌ مـن التصـوُّف.

قالت له: «صلِّ لأجلي صلاةَ الجسَد. » فرتَّلها.

لا يسـتطيع «أدومـة» أن يخـدع نفسـه بفكـرة الطهـارة وأنـه لم يتشـهَّ هـذا الجسَـد الحـيَّ المشـحون باللـذة الـذي يُسـتَعرَضُ أمامـه، لم تكـن بوذيَّتـه أو صوفيَّتـه أو مـا يسـمِّيه تمارينـه الروحية الخشـنة، أو ما يسـمِّيانه معًـا: «واحدانيتـه»، لتنجيَـه تمامًـا مـن الرغبـة، ولكنـه التـأدُّب والالتـزام بمـا اتفقـا عليـه. وضـع في مـكان الجسَـد شـجرة، شـجرة جميـز عملاقـة، كانـت كالنائمـة أو المنوَّمـة أو أنهـا تدَّعـي الاثنتـين معًـا، الشـجرة تتنفَّـس

في هـدوء. لمسـها برفـقٍ في أخمـص قدمهـا اليـسرى، مـرَّر أناملـه عليـه، شـمَّه واضعًـا أنفـه فيـه، مسـح بـه القـدم كلَّهـا، وكمـن غـيَّر رأيـه فجـأة، تـرك القـدم المسـترخية التـي أخـذت تسـتجيب لأنفاسـه السـاخنة، ليُغـرق أناملـه في شـعرها الأسـود الكثيـف، كانـت أوراقهـا نديـةً ووحشـيةً ولينـة، ثـمَّ ينحنـي برفـقٍ ويقبِّلهـا في شـفتها السـفلى. كتـب فيـما بعـد بكراسـته:

«كانت شفتاها كالماءِ

لهما لونٌ،

ورائحةٌ، ومذاق.»

أُونُورْ يُرِيدْ تَغْيِيرْ النِّزَام

مـرَّ بهـم، جنديـان شـابَّان فـترا مـن الحـرب وقـد ماتـا مـرارًا وتكـرارًا في معـارك مختلفـة، وميادـيـن قتـال قريبـة وأخـرى بعيـدة، وهـما الآن في طريقهـما إلى أسرتيهـما في الخرطـوم، في صـورة أشـباحٍ ترتـدي زيًّـا عسـكريًّا متسـخًا، وفي جيـب كلٍّ منهـما لا شيء مـن المـال، قـد تتعـرَّف عليهـما بعـض الأمهـات.

الرأسمال الذي تحتاج إليه «ملكة الدار» من أجل المقهى الصغير الذي ستقيمه تحت شجرة عم «عبد الرحيم» قليل، لا يتعدَّى المئة جنيه، المشكلة كانت في المكان، ولو أن الشجرة لها ظلٌّ كبيرٌ وممتدٌّ إلى منتصف الطريق الترابي، وما فوق جسر المجرى، إلا إنها تستضيف «أونور» الحدَّاد بسيوفه وسكاكينه وقصصه، و«ماجدة فضل الله» بائعة الزلابية بصاجها الكبير ومنقدها القديم، وعم «عبد الرحيم» الحلاق ومنفِّذ الجراحات الصغيرة. من المعتاد أن يدعوه البعض بالدكتور، وكان يعجبه اللقب كثيرًا ويطرب له أيَّما طرب، ولو أنه يخاف كثيرًا من أن تعرف الجهات الرسمية أنه ما زال يمارس ختان الأطفال ويقوم بالعمليات الجراحية، حيث تمَّ تحذيره مرارًا وتكرارًا، ولكنه لا يعرف مهنةً غيرها، وهو يعتبر نفسه أكثر مهارةً في هذا المجال من كلِّ الأطباء. كان عليها أن تستشير عم عبد الرحيم أولًا، كأبٍ روحيٍّ ونهائيٍّ للشجرة، إذا لم يكن هو السيد المالك لها بالتقادم ووضع اليد. وقد رحَّب بالفكرة، وخاصَّةً أن العلاقة التي تربطه بـ«جبريل» المرحوم كانت كبيرة، وكانا أكثر من أهل، وقام كلُّ شاغلي الشجرة بإفساح مكانٍ لـ«ملكة الدار»، بكلِّ طيب خاطر ومحبَّة، وكان «أونور» قد أبدى استغرابه في أوَّل الأمر، لأنه يظنُّ أن من واجب «فتح الله» عندما فتحها الله عليه أن يفتحها هو بدوره لأسرة صديقه، ومن العيب أن يترك الأسرة تصل للمرحلة التي تخرج فيها زوجة صاحبه للبحث عن الرزق بهذه الصعوبة، ولكنه فضَّل الصمت، وفي قرارة نفسه ينوي مواجهة «فتح الله» بالموضوع في أوَّل فرصة يلقاه فيها، «فتح الله» الذي نسيه تمامًا ولم يقدِّم له ولو هدية صغيرة، وهو السبب الأساسي في ثرائه، هو من قدَّم إليه كلَّ المعلومات عن الذهب، ونصحه بصدق: «ولكن الله كريم.»

الشجرة في الحقيقة أشبه بسوق صغير، أو هي السوق الأساسي لأهالي «زقلونا» بقسميها الجنوبي والشمالي، تُعرض حولها الكثير من

المستلزمات اليومية الضرورية للحياة، مثل الخضروات واللحوم وبعض الفاكهة الرخيصة، حبال صنع العناقريب، السمك البلطي والصير صغير الحجم، كما يوجد قسمٌ لبيع منتجات الألبان مثل الروب والزبد والسمن والجبن البلدي، والدجاج البلدي وبيضه، ويمتدُّ سوق الشجرة إلى ما بعد مساحة ظلِّها بعشرات الأمتار، في مستطيلٍ عرضه عشرون متراً، وطوله لا يقلُّ عن أربعين متراً أخرى، يبيع بالسوق النسوةُ والرجالُ جنبًا لجنب، وعند نهاية السوق من الجهة الشرقية توجد مرجيحة كبيرة في شكل دائرة، لا تنشط إلَّا في الأعياد، وتبقى طوال السنة أَدِمة وخاملة، تلعب بها الريح التي تتسكَّع في أطراف المدينة ليلًا، وقد يشغلها بعض الأطفال الذين لا يذهبون للمدرسة صباحًا، وتلاميذ المدارس في العصريات. على بعد مئة متر من هذه المرجيحة يقع ميدان المولد النبوي الشريف. أهمية الشجرة أنها مركز السوق كلِّه على الرغم من وجودها في الركن الجنوبيِّ منه وعلى حافَّة مجرى التصريف.

وضعَتْ أمامها أربعة بنابر[1] جديدة، ومنضداتٍ صغيرةً صنعها لها بالدَّين «صابر» النجار، رسم في المنضدة الكبيرة التي تضعُ عليها حاجياتها وردتين لا يمكن تحديد اسمهما أو نوعهما أو شبيه لهما من الورد في الطبيعة، ولكنهما جميلتان، وبينهما كَتب بخطٍّ زاهٍ بيتًا من قصيدةٍ شهيرةٍ تزِنُّ وترِنُّ في رأسه منذ أن قرأها قبل سنواتٍ مكتوبةً في الغطاء الخلفي لركشة[2]، لا يدري كيف يتخلَّص منها، وقد واتته الفرصة الآن: «كفتيرة تفك الحيرة يا بت أحسن من غيرا.» وتحتها توقيع صغير بأحرف مائلة: «م.ش.»، وكان سائق الركشة يعني بهما الحرفين الأوَّلين من اسم الشاعر الثوري «محجوب شريف»، وصابر يعجبه التوقيع.

(1)البنبر كرسيٌّ من الخشب منسوجٌ بالسعف، وهو قصير يرتفع عن الأرض قليلاً.

(2) نوع من العربات الآلية الصغيرة الحجم.

أوَّل مـن اشـترى منهـا هـو «أونـور» الحـدَّاد. «فرْعَـتْ ود حـلال وبلال»[1]، قالـت لنفسـها ذلـكَ، ووضعتِ النقـود في درج منضدتهـا الصغير، بعـد أن بسـملتْ وشـكرتِ اللـه في سرِّهـا أيضًـا. كان يرتشـف الشـاي بمتعـةٍ خاصَّـة، وعنـد المنتصـف طلـب قطعتـي زلابيـة كبيرتـين مـن «ماجـدة فضـل اللـه»، أحـسَّ بـأن للشـاي نكهـةً خاصَّـةً، نكهـة البيـت، وليـس مثـل شـاي السُـوق الـذي لا طعـم لا رائحـة لا لـون. قـال لهـا وهـو يضـع الكـوب عـلى المنضـدة الصغـيرة أمامـه فارغـة: «مـا شـاء اللـه تبـارك اللـه.»

منـذ ذلـكَ اليـوم، أصبـح شـاي «ملكـة الـدار كـيري»، معروفًـا ومشـهورًا في سـوق الشـجرة، وظـنَّ الجميـع أن سـيكون لهـا مسـتقبل مـشرق بالسـوق، إلى أن فاجأتهـا «الكشَّـة» ذات صبـاح، مثلهـا مثـل بقيـة الباعـة غـير الشرعيـين بالسـوق، ورُميَـت معداتهـا التـي تعمـل بهـا، سـويةً مـع سـكاكين «أونـور سـدنا»، ومقصـات عـم «عبـد الرحيـم» الأثريـة، وصـاج «ماجـدة» وزلابيتهـا وزيتهـا ومـا باعـت بـه مـن نقـود، طماطـم وخضروات «شـيخ الديـن»، عجـلات «أبكـر» العجـلاتي، سمسـمية «أمونـة»، وأطبـاق، وسـعف، ولحمـة، وجرجـير وعناقريـب، وجـرادل مشروبـات بـاردة، وكراسـات وكتـب مـزورة، قفتـين كبيرتـين مـن سـمك البُلطـي المحمَّـر بزيـت الفـول، وصـواني باسـطة قديمـة، كـوارع ورؤوس ضـأنٍ معـدَّة للبيـع، بعـض قواريـر العـرق الفارغـة، مـا اسـتطاع الشرطيـون نزعـه مـن كـراسي المرجيحـة، وعـلى رأس كلِّ ذلـكَ الجميـعُ رجـالًا ونسـاءً مشـحونين في لوريين كبيريـن للشرطـة. وهـو ذلـكَ اليـوم الكئيـب الـذي هتـف فيـه «أونـور» وهـو يصعـد عـلى برميـل الجـاز الفـارغ في باطـن اللـوري، بأعـلى صوتـه وبلكنـةٍ بجاويـةٍ مرحـة:

«أونور يريد تغيير النزام.»

---

(1) أي أن الشـخص الـذي اشـترى منهـا أول كـوب شـاي، هـو شـخص ابـن حـلال. و«فـرع» بلغـة النسـاء في السـودان تعنـي أول المشـترين.

وهتـف خلفـه البقيـة، بينـما يعـبر بهـم اللـوري أزقَّـة «زقلونـا» متجهًـا نحـو طريـق الأسـفلت العـامِّ إلى قسـم الشرطـة الجنـوبيِّ بوسـط المدينـة:

«الشعب يريد تغيير النظام.»

وكان الشرطيـون يحاولـون إسـكاتهم عبثًـا، وهـم يضربونهـم بصـورةٍ عشـوائيةٍ بالسـياط والعـصيِّ المكهربـة، وهـم صاعـدون عـلى الزوايـا التـي بجوانـب اللوريـين، يضـع الواحـد منهـم إحـدى رجليـه خـارج صنـدوق اللـوري والأخـرى داخلـه، يشـبهون بذلـكَ الأسـماك المنشـورة عـلى حبـلٍ بغـرض تجفيفهـا.

كان اللوريـان يمضيـان بسرعـةٍ فائقـة، يطلقـان صفـارة الإنـذار المرعبـة، وعندمـا عـبرا السـوق المحـليَّ ليتَّجهـا نحـو شـارع «عبيـد ختـم» هتـف عـمال وعامـلات، وموظفـون وموظفـات، وعابـرو سـبيل وعابـرات، باعـة ومشـترون، غاسـلو سـيارات، بعـض اللصـوص واللصَّـات، سـيدات محترمـات كـنَّ يشـترين في أدب، بائعـات خضـارٍ وفـولٍ وتسـالٍ، بائعـات الكـسرة والشـاي والزلابيـة، موظَّفـات حكوميَّـات في طريقهـنَّ للمكاتـب، «نجـدة منصـور»، متـشرِّدات، متـشرِّدون، هتفـوا مـع ثـوَّار اللـوري الذيـن لا يعرفـون لهـم وجهـة، ولا يـدرون شـيئًا عنهـم: «الشَّـعبْ يريـدْ تغيـيرَ النظـام.» إلى أن اختفـى اللوريـان وسـط العـمارات الشـاهقة.

عبداللـه ديـدان في صحبتـه ابنيـه التوائـم، حسـن مرسـال، أمـين التـوم، أمـين محمـد أحمـد، محمـد أحمـد، غـادة وخديجـة، أشـجار النيـم العملاقـة عـلى الرصيـف قـرب باعـة الفـول المـصري المطبـوخ، النيـل مـكي قنديـل، طـارق الباشـا، طـارق جبريـل، إدريـس داوود، طـارق جبريـل عبـد الكريـم إدريـس آدم، الفاضـل المقبـول، صالـح فـرح، ابتهـال عـوض الملقبـة ببهولـة، الصـادق حسـين، الطيـب كبسـون، حسـن بابكـر، طـلال الطيـب، عبـد الـرازق محمـد مـوسى، صـلاح إبراهيـم، الزهـري، صـلاح محمـد الحسـن وكان يحمـل عـلى رأسـه جـرة مـن بـول الإبـل، ويُعـرف في الجـزر

التي أتى منها بـ«صلاح الكافر»، كان يجري خلف عربة الشرطة ويصيح مناديا أونور، يريد أن يقول له شيئًا ما، امنا حسنوي، خادم الله بت جادين، فاطمة بشير، فاطمة كرار، فاطمة هندي، علي أبو خواطر، يحيى فضل الله، صلاح سر الختم علي، فاطمة محمد إبراهيم، عبد الرحمن الحاج موسى، سعاد إبراهيم أحمد، فطومة عبد الكريم إدريس آدم، علي الجمل، عوض علي، سلوى آدم بنية، مختار علي، الصول علي أبكر، أمل آدم، أمونة جورج، أوكير المجنون، حسن بترول، حسن قاشنا، أندريا مارلو، علوية علي، علي محمد علي، السر فتح الرحمن، السلطان تاج الدين (وكان وسيمًا جدًّا)، علي عبد اللطيف، مريم عبد الكريم إدريس آدم، منى عثمان الحسن، علي الدولي، علي محمد مصطفى الشهير بـ«علوبة المشوطن»، حواء حواء، النبي نوح، نبي جبران خليل جبران، سِحَيتُو، الإنجيل الخامس لنيتشة، عمال الصحة على لوري لشحن البقايا البشرية، كلبان يتبولان على بعضهما البعض، طلحة السماني، امرأة كانت تعبر الشارع الضيق المؤدي إلى السوق المركزي من السكن الشعبي، برتقالة متعفنة مرمية بإهمالٍ تامٍّ ونهائيٍّ على الرصيف ولم يلاحظ وجودها هنالك أحد، تحتها دودة صغيرة تستجير بالبرتقالة من حرِّ الصيف، الرصيف، دكتور مبشر حسن عبد الكريم، عبد الرحمن عينة، عبد القادر التركاوي، عمر هجام، بعانخي مندهشًا، عبد الباقي بابكر السندروم الأعظم، المهندس إبراهيم سالم، مي التجاني، أبكر آدم إسماعيل، حبيبة آدم اتيم، منصور خالد، طه حسن يس، الأمير طه، الهبابة نارمان، السلطانة صفية عباس محمد نور عالم، دار السلام حسين، عزيزة آدم اتيم، سامية سليمان عامر، تاج الدين، بحر الدين، محمد نور، نوال عيسى هارون، عيسى هارون، الجدي، زهور، نجوى، جون قرن دي مبيور، منعم سليمان، حبيب نورة، علي يس، علاء الدين الجزولي، صباح الخير، الخير الابوابي، سارة الابوابي التي عندما مرت بها عربة الشرطة العملاقة وعليها الثوار

عبث بثوبها إعصار مخيف فارتبكت، النور محمد النور، الروائي فايز السليك، نعم رحمة، مالك عقار، الطيب السطيح، مريم عبد الله كرامة، مواسير إسكلير اليهودي اللاتيني الذي يبحث عن أُمَّة غريبة في موقع ليس ببعيد عن السوق المركزي، آمال الكارب في صحبة كوكبة من الجدات الجميلات، سألنها بصوت واحد: «ألم يسقط بعد!»

جبريل الجزار، الدكتورة رؤى حفيدة الملكة آمنة، غازي عبد الحي، متولي عبد الحي، الملكة آمنة، الدكتورة أجاك جونسون، جابرييل جارسيا ماركيز، سلوى محمد عبد الله، الملكة نصرة، نصرة محمد عمر، إبراهيم إسحق إبراهيم، الحسن عبد الله، خميس عبد النبي، زايد عبد النبي، نورة عثمان، نورة محمد عثمان، نورة إبراهيم، نورة، بائعة الدوم، لص قصير القامة يدخل إصبعًا رشيقًا في جيب متسولٍ أعمى، امرأتان تعبران الطريق، امرأة تقف على الرصيف، رجل قصير يحمل جوالاتٍ فارغات، سرب من طيور ود ابرق، سنبريات، كلب، كلبان، حشد من العسكر يمضون نحو حتفٍ لا يحبونه، عبد العزيز بركة ساكن، منصور الصويم، صلاح مصطفى، إبركس، هاني حسين ضوى، أمل أحمد، صفية إسحق، ليلى صلاح، منى الطيب، عبد العزيز الطيب،محمد الناصر أحمد ابشوك، رباب وسحر وزينب،ياسمين ابراهيم، جلال الجميل، الصادق حسين سلطان، ذو النون آدم، نعمات خيري، الصادق الرضي، حافظ حسين وهو الصديق الوفي لبعض الفاسقين الذين لو كان هنالك حاكم شديد الإيمان بالمشروع الروحي لتوَّجه ملكًا ثم قتله، إبراهيم يحيى، الأب توتو كوه، حسين باجور، سمية هندوسة، أميمة مصطفى، مصطفى سيد أحمد ود المقبول، الطاهر خالد، محمد خالد، محمد عيسى، عمدة رهيد البردي كان يشتري بعض الأسماك، سبأ القنصل، ميسرة، الابن المقدَّس منجد باخوس على ظهر حمار يتوقَّف عند الرصيف متجنِّبًا عربة الشرطة،

ألم قشي، ود أمونة، أحمد محمد إبراهيم، الطيب المشرف، أبو عركي البخيت، السرة، ست الدار، بابكر السوداني، النور تية، حسب الله علي جامع، مصطفى عيسى، حيدر النور، مريم النور، عادل موسى نادر، ود النارووظ، محمد الناصر أبشوك، جعفر خضر وكان يمسك به خمسة من رجال الأمن وهو يضحك بأعلى صوته، عبد الرحمن كفل، كمال مرجان، ياسر شيبة، معاوية بائع الخضار، إبراهيم مكابسة، زينب بدر الدين محمد، إدريس همد، جمال همد، حامد همد، الشامخ علي موسى، خالدة صابر، موسى إدريس، طيارات، بلدي، آدمو، منال التوم، هالة الميناوي، أحلام ساتي، عم سيف، مها شبيني، علي نصر الله، السيد وسوس، القديسة الجميلة جُوبا والنبي الطيب نور الدائم لعنا شرطة النظام العام وأبا الوالي، عصام عيسى رجب أطلق قبلة في الهواء نحوهم فتشكَّلت قصيدة وشعلة ضوء، عصام أبو القاسم الصول، عصام أبو القاسم، علوية محمد عثمان، نميري، عادل مزاجات، العم بيلي، الأم حواية حسب الله، زينب عيسى، آمال عيسى، نضال، زهرة، أمونة، سعدية، ليلى، الأسفلت الساخن يقبِّل أرجل الأطفال الحفاة المتشردين، دودتان، السني دفع الله، عم سالم أحمد، عبد اللطيف المكي، مبشر حسن، محاسن بركة ساكن، حسين شريف، رجل أعرج، مبارك الصادق، سيدة تبيع الطعمية، عربة متعطلة في الطريق الجانبي بها سيدة مريضة، عقرب، محمد الحسن سالم حميد، محجوب محجوب وأولاده الشياطين، إبليس، صوت الفنان محمد الأمين من دكان بائع الليمون ينشد: «الثورةُ انطلقت.» الدخري داوود الدخرى، أسامة الكاشف، أسامة الكارب، أسامة مأمون، أسامة محمد عبد الله، أسامة يس، عصام محمد عبد الله، ود البرقو أحمد، أحمد ود القرود، إبراهيم النيل، سيدة كوكريب، تيس يخصُّ شخصًا يُدعى مكي، شكيري توتو كوة، عاصفة ترابية تصنع أعاصير صغيرة تدور في شكل دوامات من الريح تحمل الغبار وأكياس

وحاويـات النايلـون الفارغـة، طفـلان يجريـان بعيـدًا عنهـا وهـما يهتفـان: «بسـم اللـه الرحمـن الرحيـم، اللـه معانـا مـا تغشـانا.» تفاجئهـما عربـة الشرطـة وهتـاف شـغيلة سـوق زقلونـة، الشـمس الحارقـة، بائـع الكتـب القديمـة، الشـاعر عبـد اللـه شـابو، الخالـة زهـرة بائعـة الشـاي، جـون تابـان، إسـحق مـوسى، الزينـة بـت الخـير، الوليـد مادبـو، رجـلان يحتسـيان الشـاي تحـت كوبـري السـوق المركـزي، هاديـة العمـرابي، فضـل إسـماعيل حسـن السروجـي، حاتـم إليـاس، نعمـة بـدوي، لبنـى أحمـد، إيثـار احمـد، نعمـة حسـين، انتصـار نـور الدائـم، ايمـا الـكارب، إيمـان شريـف، الروائية آن الصـافي، صـورة لنابليـون بونابـرت عـلى جريـدة قديمـة يلعـب بهـا الإعصار، عربـة مطـافي، أغنيـة شـائعة تنطلـق مـن راديـو يحملـه رجـل معلقًـا عـلى كتفـه، صـوت لـوري الشرطـة يخـترق هتـاف الهاتفـين، شـاعر عندمـا مـرت العربـة بقربـه تذكّـر كلَّ أشـعار بابيلـو نـيرودا، ومظفـر النـواب، وعـالم عبـاس محمـد نـور، وحكايـة البنـت التـي طـارت عصافيرهـا.

مـرَّ بهـم، جنديـان شـابَّان فـترا مـن الحـرب وقـد ماتـا مـرارًا وتكـرارًا في معـارك مختلفـة، وميادين قتـال قريبـة وأخـرى بعيـدة، وهـما الآن في طريقهـما إلى أسرتيهـما في الخرطـوم، في صـورة أشـباحٍ ترتـدي زيًّـا عسـكريًّا متسخًا، وفي جيـب كلٍّ منهـما لا شيء مـن المـال، قـد تتعـرَّف عليهـما بعـض الأمهـات. محمـد محمـد خـير، حلـوم بائعـة الفـول المدمـس المعـروف بفسـتق العبيـد والتسـالي. محمـد خـير عبـد اللـه، عاصـم الصويـم، مـوسى حامـد، سـارة الجـاك، عمـر الصايـم، محمـد المهـدي المجـذوب، سـت الريـد عمـر، مناهـل حـماد، أركـة مـوسى أركـة، سـدنا أونـور، النفـري، جـلال الديـن السيوطي،اسـماعيل حسـن فضـل السروجـي، الطيـب محمـد الطيـب، سـلمى النـور، إبراهيـم نقـد، محمـد أحمـد المهـدي، شـيماء آدم، عبـد القـادر ود حبوبـة، صديـق الحلـو، جكسـا لرصـد الانتهـاكات، محمـد حسـين، أبـو سـمرة، عـز الديـن عـلي عامـر، النـور عثـمان أبكـر، شُكْشَـة، حسـن فضـل اللـه، عبـد الماهـل حسـن فضـل اللـه، زرادشـت،

كارل ماركس، الأستاذ محمود محمد صالح، ست الدار بت أحمد جابر، فاطمة ميرغني، سيدة إبراهيم، حاج الريح، سلطان أبشوك، الشيخ أبشرى ... وقبل أن يعبر اللوري العملاق تلك الطرق المأهولة بالبشر وبعض المسئولين، مر على مجرًى مائي، فهدأت سرعته، وهنا هتف شغيلة سوق زقلونة: «الشعب يريد تغيير النظام.» الشيخ فرح ود تكتوك.

مرَّ بهم، طلابٌ من مدرسة الشارع وطالباتها، مرَّت بهم شوارع عدة وأزقة، وقطط ميتة، وأخرى تدبُّ في السبيل تبحث عن أرزاقها، سكرانان، ملقيتة اسحق، سيدة ابراهيم، آدم ملك، زينب عيسى،الاستاذ عبد الباسط يس، منى عثمان الحسن، إبراهيم هاساي،هاشم شرقي، حياة الدود، عربة كارو، أميرة رزق الله، بدرية عبد الفضيل ألماظ، عاملات وعمال يوميون يفترشون الأرض، علوية علي، مُنى الباشا ... مرَّت بهم الأرض، والنيل، والنيل الأزرق والأبيض والسوباط وبحر العرب، وستيت وبا سلام والعطبراوي لوَّحوا لهم من بعيد، وعلى جانبي الشارع كانت أعمدة الكهرباء وأبراجها العملاقة تنحي تحيةً لهم، ثم قبل أن تتوقف العربة بمباني الشرطة: اكتملَ وجهُ الله.

اللوريان يتوقفان عند بوابة الشرطة، ويحيط بهما في الحال جندٌ مدجَّجون بالعصيِّ والأسلحة الخفيفة، وينهالون عليهم ضربًا مبرحًا، وهم يشتمونهم بألفاظ نابية. صاح ضابطٌ سمينٌ وسيم، خرج من أحد المكاتب:

- وين «أونور»؟

فقز «أونور» من بين الجموع بعد أن دفع العسكريَّ الذي يضربه بعصاةٍ غليظةٍ بعيدًا:

- أنا سيادتك؟

قال الضابط وهو ينظر إليه بازدراء:

- أنت عايز تغيِّر النظام يا «أونور»؟

قال «أونور» وهو ما زال غاضبًا:

- «الشأب» كله يريد تغيير «النزام» يا سيادتك، والله سيادتك البلد أحسن ما يكون فيهُ حكومة، ورب «الكَأْبَة»، كان يكون زي الحلاوة، الناس «تئيش» مرتاااحة، تشتغل أي شغل، وتسافر أي مكان، وتكون الدنيا بخير.

قال الضابط وهو يدَّعي الغضب:

- يعني عايز الفوضى؟

قال «أونور» موضحًا:

- ورب «الكَأْبَة» أونور ما «آيز فودة»، عايز يشتغل ويأكل حلال، ولكن الحكومة هي «الآيز فودة» يجي يكسر البيوت ويشيل بضاعة الناس، ويدق الناس زي البهايم، وأنت شايف قدامك يا سياتو. ما في احترام لا للرجل ولا مرا ولا «تفل» صغير ذاتهُ.

قال له الضابط وما زال يدَّعي الغضب:

- وحتشوف أكتر.

وعاد إلى مكتبه حيث انفجر في ثورةٍ من الضحك. حُرِّرَتْ بلاغاتٌ ضدَّهم جميعًا بالتآمر لإسقاط النظام الدستوري بالبلاد بالقوة، الإخلال بالنظام العام، التشرُّد، البيع بدون تراخيص، الإتجار بالخمور.

أتى «فتح الله فراج» وابنه، وقاما بضمان «ملكة الدار»، كما ساعد في إيجاد ضامنين لبقية المتهمين جميعًا، حيث إن لا أحد منهم لديه من يضمنه من ذوي الوجاهات والمعروفين اجتماعيًّا، موظفين حكوميين أو ذوي عناوين ثابتة، وبذلك أُطلِق سراحهم جميعًا على

وعـد بـأن يُبلَّغـوا باليـوم الـذي سـوف تُعقـد فيـه المحاكمـة. بعـد شـهرين بالتـمام في محكمـةٍ صوريـةٍ بائلـة، حُكـم عليهـم بالجلـد جميعًـا نسـاءً ورجـالًا.

حلـف عليهـا «فتـح اللـه» بالطـلاق ألَّا تعـود لبيـع الشـاي، وأن تبقـى بالبيـت، وهـو سـيقوم بتغطيـة مـصروف المنـزل اليومـي، مـصروف «رشـا» بالجامعـة والطفلتـين بالمدرسـة، وكلّ مـا يطـرأ مـن مصروفـاتٍ مـن الآن إلى «يـوم القيامـة».

الْمَالُ وَالْبَنُونَ وَالدِّيك

كانـت قـد اعتـادت عـلى حبيبهـا، وأصبحـت ممارسـة الجنـس بينهـما عـادةً ملحَّـة، وخاصَّـةً في أيـام الفقـر، حيـث لم تكـن هنالـكَ مسـاحةٌ لأيِّ متعٍ أخـرى أو ترفيـه، فـكلُّ مـا يجعلهـا تحـبُّ الحيـاة وتسـتمرُّ فيهـا، هـي اللحظـات القليلـة التـي تقضيهـا معـه، اللحظـات التي يتركهـا فيهـا تلتصق بصـدره وتستنشـق رائحـة عرقـه، وتسـتمع إلى نبـض قلبـه، وذلـكَ أهـمُّ لهـا مـن الدنيـا ومـا ومَـن فيهـا. مـا كانـت تنتبـه للفقـر في تمظهراتـه كلهـا: تلبـس مـا توفَّـر، تـأكل مـا وُجـد، كانـت محرومـةً مـن كلِّ مـا تحتـاج إليـه البنـت مـن زينـةٍ وضروريـات، طالمـا كان هنالـكَ حبيبهـا «أحمـد»، يرغـب فيهـا كـما هـي، ويعشـقها هـي وحدهـا، يأخذهـا إلى بيتـه في الصحـراء ليسـتودع الـشيء بـين فخذيهـا، وسـيتزوَّجها في آخـر الأمـر، عندمـا يكمـل بنـاء بيتـه ويوفِّـر مصروفـات الـزواج.

افـتراضُ سـوء النيـة في كلِّ مـن يقـترب منـه، كانـت تلـكَ التميمـةَ السـحريةَ التـي تحميـه مـن لصـوص وسـماسرة السـوق وفاعـلي الخـير الزائفـين، فالـدروس التـي تعلَّمهـا في حيـاة القـاع كانـت بالعمـق والمـرارة اللتـين جعلتـا منهـا منـارةً يهتـدي بهـا في كلِّ خطـوة يخطوهـا؛ أن يعـرف قيمـة كلِّ مليـم بيديـه، ولـن يفـرِّط في شيء، يريـد أن يظـلَّ غنيًّـا للأبـد، وسـيبقى هـذا شـعاره لزمـنٍ قـد يطـول.

بمجـرَّد أن عـرف الكثـيرون بـأن «فتـح اللـه فـراج» قـد حصـل عـلى كنـزٍ مـن الذهـب، انهـال النـاس عليـه بالمشروعـات المربحـة التـي تمكِّنـه مـن مضاعفـة أموالـه في أشـهر قليلـة، تجـارة حـرَّة وحـلال مضمونـة وسريعـة الربحيـة. كان «فتـح اللـه» لا يفهـم في الاسـتثمار، لا قليـلًا ولا كثـيرًا، ولكنـه يعـرف قيمـة كلِّ قـرشٍ لديـه، ويعلـم — مـن خـلال غريـزةٍ أن يبقـى ويسـتمرَّ ثريًّـا — أن عليـه ألَّا يسـتعجل في اتخـاذ قـرار يترتـب عليـه دفـع نقـودٍ مهـما قلَّـت أو كـثرت. ومـن طبيعتـه أنـه لا يسـتعجل شـيئًا، ولكـن عندمـا يأتيـه المـشروع مـن أقـرب الأقربـين، وهـو أخـو زوجتـه الضابـط ذو الرتبـة العسـكرية الكبـيرة، المُقـرَّب مـن الشـخصية الرئاسـية المبجَّلـة، يكـون الاسـتثمار في المؤسسـة العسـكرية نفسـها، وهـي مؤسسـة مشـهود لهـا بالضبـط والربـط، ولا يسـاوره الشـكُّ في نزاهتهـا. ولـو أنـه لم يفهـم المـشروع بصـورةٍ واضحـة، إلا إن زوجتـه أكَّـدت لـه إن أخاهـا يريـد لـه الخـير، وهـو دائمًـا يقـف في صفِّـه، وذكَّرتـه بحادثـة زواجهـما، و«فتـح اللـه» يعـرف ويتذكَّـر، ويشـكره عـلى موقفـه الداعـم لـه، ولـولاه لمـا تـمَّ زواجـه مـن «نـصرة».

كـما إن المـشروع كان بسـيطًا جـدًّا، وهـو أن يشـتري ثلاثـين عربـة «جيـب» أمريـكي مـن دلالـة الجيـش، وتقريبًـا المبلـغ كان محـدَّدًا جـدًّا، ثـمَّ يقـوم بصيانـة وإعـادة تأهيـل العربـات وبيعهـا بأسـعارٍ عاليـةٍ ومغريـة. عليـه هـو أن يظهـر في المبايعـات والتقـدُّم للدلالـة وإصـدار الشـيكات،

وسيقوم سيادة الجنرال بما هو أهمُّ من ذلك؛ أيْ أن يجعل الدلالة ترسو على «فتح الله فراج»، وسيتقاسمان الربح مناصفةً، فهي شراكة نظيفة لا غبار عليها، أو عليهما.

زوجة أخيها المنعَّمة، تنازلت كثيرًا من عرشها، وأوكلت إلى نفسها مهمَّة إدغام «نصرة» وابنتها في المجتمع الراقي الجديد، بتقديمهما لصديقاتها وبناتهنَّ بالحي، وذلكَ بعد عمليات تنظيفٍ وتطهيرٍ وصنفرة بشرة، وغسيل مخ، أو ما تسمِّيه بالنظافة التي فرضتها عليهما فرضًا، وقبلتاها بدورهما بكلِّ سرورٍ وطيب خاطر، وحدث ذلكَ سريعًا في بحر شهرٍ لا أكثر، فالتعليم الذي اكتسبته «نصرة» في صباها أفادها كثيرًا في تقبُّل الحياة الجديدة الراقية، كما أفادها في أن تجعل زوجها يفهم العمليات الحسابية البسيطة فيما يخص استثماراته وشركته الجديدة مع أخيها:

30 عربة «جيب» أمريكي.

العربة في الدلالة سترسو عليه بـ 5000 جنيه سوداني.

سيقوم بصيانة كلِّ العربات وإعدادها بمبلغ لا يتعدى 300،000 جنيه، سيبيع العربة الواحدة بسعر أقله 30،000 جنيه.

يعني ذلكَ يا أبا السر، وهو يحبُّ هذه الكنية حُبًّا شديدًا:

التكلفة الكلية = 150،000 + 300،000 = 450،000

سعر البيع = 30 × 30،000 = 900،000

الربح المتوقَّع = 450،000

في ضربةٍ واحدة 450،000 ؛ يعني بالقديم أربعمئة وخمسين مليونًا. نعم، المال يجرُّ المال، والفقر إذا لم يَحسُن التعامل معه، فإنه يجرُّ الفقر لا محالة. الإنسان الذكيُّ هو الذي يستطيع أن يخرج من دائرة

الفقـر إلى سـاحة الغنـى الفسـيحة، كالشـعرة مـن العجـين، وألَّا يعـود للفقـر مـرةً أخـرى، والفقـر هـو فقـر العقـل مـن التفكـير، وليـس فقـر الجيـب مـن المـال.

اسـتطاع «فتـح اللـه» عـن طريـق زوجتـه الذكيـة جـدًّا، أن يفعـل مـا يحـقُّ لرجـلٍ عـانى مـن الفقـر مـا عـانى والآن يريـد أن ينعـم بالحيـاة كـما ينعـم بهـا النـاس عـادة. كانـت حياتهـما سـتمضي سلسـةً وطيبـة، لـولا مـا يشـغل بالهـما مـن موضوعـين شـائكين؛ وهـما موضـوع علاقـة ابنتهـما المريبـة مـع «أحمـد زكي»، وموضـوع أسرة صديقهـما «جبريـل كـيري». ولكـن بالنسـبة لـ«فتـح اللـه فـراج» فـإن مـا يشـغله فعـلًا شيءٌ واحـدٌ لا أكـثر، هـو الديـك؛ فقـد داوم هـذا المخلـوق اللعـين عـلى أن يهاجمـه في نومـه وصحوتـه، بـل أخـذ يديـر كلَّ تفكـيره بالطريقـة التـي يرغبهـا الديك، لا كـما يشـاءها «فتـح اللـه فـراج». وكان يحـدِّث زوجتـه كثـيرًا بأمـر هـذا الديـك الغريـب، فقدَّمـت إليـه نصيحـة، وهـي أن تأخـذه لأحـد الشـيوخ بريـف «الخرطـوم»، لأن هـذا الديـك الـذي في رأسـه هـو نفرٌ مـن الجـن، ربمـا أصابـه في القـبر النـوبيِّ كـما أصـاب صديقـه «جبريـل» وأودى بحياتـه.

لم يخـبرا أيًّـا مـن أطفالهـما بغـرض سـفرهما إلى ضواحـي «الخرطـوم». قالـت الأمُّ لـ«مـيرم»: «سـنذهب إلى جـدك بالقريـة، يومـين ونجـي راجعـين، وحنخـلي «فـراج» معـاك في البيـت، مـا تهمـلي فيهـو وتخليه يمشي الشـارع، الجمعـة والسـبت مدرسـتك في إجـازة، مـا فرقـت معـاك.» وأعطتهـا المـصروف، ولكـن في بالهـا أن تقـول لهـا: «إيـاك وأحمـد زكي!» لكنهـا آثـرت الصمـت، تجنُّبًـا للشـجار العنيـف بينهـما، وخاصَّـةً بعـد الحادثـة الأخـيرة.

منـذ أن عرفـت الأمُّ نشـاطها السريـريَّ مـع ابـن أختهـا «أحمـد»، توتَّرت العلاقـة بينهـا وبـين «مـيرم»، وأخـذت تمنعهـا مـن الخـروج مـن المنـزل إلَّا بصحبتهـا هـي نفسـها، أو بصحبـة أخيهـا الصغـير «فـراج» عندمـا يكـون المشـوار قريبًـا جـدًّا. وإن الأمَّ تحدَّثـت مـع ابـن أختهـا بصراحـةٍ ووضـوح،

وأكَّدت لـه إنهـا لا تمانـع أن يتـزوَّج ابنتهـا، هـو في آخـر الأمـر ابـن أختهـا، ولكـن عليـه ألَّا يختـليَ بابنتهـا، تحـت أيِّ ظـرفٍ مـن الظـروف، إلا بعـد أن يتزوَّجـا عـلى سـنة اللـه ورسـوله. بذلـكَ منـع «أحمـد زكِي» نفسـه مـن الحضـور لبيـت خالتـه إلَّا في المناسـبات العامَّـة، مثـل اليـوم الـذي رحلـت فيـه الأسرة إلى «كافـوري».

ولكـن البنـت فكَّـرت أخـيرًا في أمـرٍ صعـبٍ عليهـا، ولكنـه كان المخـرج الوحيـد الـذي يمكِّنهـا مـن لقـاء حبيبهـا «أحمـد»، وهـو أنهـا وافقـت عـلى مواصلـة دراسـتها، أن تقـوم بالجلـوس لامتحـان الشـهادة السـودانية مـرةً أخـرى، حتـى تتمكـن مـن تحقيـق رغبـة والدتهـا في دراسـة الطـب أو الهندسـة أو الصيدلـة، وهـي علـوم تكرههـا مـن عمـق قلبهـا، ولكـن «المضطـر يركـب الصعـب» كـما يـردِّد والدهـا عنـد الخيـارات المسـتعصية. ولـو أن الأمَّ تشـكَّكت في نواياهـا، إلا إنهـا لم ترفـض الفكـرة، وطربـت لهـا كثـيرًا، وقامـت بتسـجيلها عنـد فصـل إعـادةٍ بمدرسـةٍ خاصَّـةٍ لهـا صيـت، يذهـب إليهـا أبنـاء الأثريـاء، بهـا ترحيـلٌ خـاصٌّ مـن بـاب المنـزل إلى بـاب المدرسـة والعكـس، مـمَّا زاد التوتُّـر بـين البنـت وأمِّهـا، فالترحيـل يضبـط حركتهـا ويحـدُّ مـن حريتهـا.

كانـت قـد اعتـادت عـلى حبيبهـا، وأصبحـت ممارسـة الجنـس بينهـما عـادةً ملحَّـة، وخاصَّـةً في أيـام الفقـر، حيـث لم تكـن هنالـكَ مسـاحةٌ لأيِّ متـعٍ أخـرى أو ترفيـه، فـكلُّ مـا يجعلهـا تحـبُّ الحيـاة وتسـتمرُّ فيهـا، هـي اللحظـات القليلـة التـي تقضيهـا معـه، اللحظـات التـي يتركهـا فيهـا تلتصق بصـدره وتسـتنشـق رائحـة عرقـه، وتسـتمع إلى نبـض قلبـه، وذلـكَ أهـمُّ لهـا مـن الدنيـا ومـا ومَـن فيهـا. مـا كانـت تنتبـه للفقـر في تمظهراتـه كلهـا: تلبـس مـا توفَّـر، تـأكل مـا وُجـد، كانـت محرومـةً مـن كلِّ مـا تحتـاج إليـه البنـت مـن زينـةٍ وضروريـات، طالمـا كان هنالـكَ حبيبهـا «أحمـد»، يرغـب فيهـا كـما هـي، ويعشـقها هـي وحدهـا، يأخذهـا إلى بيتـه في الصحـراء

ليستودع الشيء بين فخذيها، وسيتزوَّجها في آخر الأمر، عندما يكمل بناء بيته ويوفِّر مصروفات الزواج.

لكي تكسر حصار الحرمان العنيد الذي ضربته عليها أمُّها «نصرة»، أدمنت المحادثات الطويلة عبر الموبايل، واسكايب Skype، ومشاهدة الأفلام الجنسية التي تتداولها طالبات الفصل الأكبر سنًّا. تعلَّمت الاستمناء الذاتي، شاهدت ذات مرةٍ بطلة فيلمٍ روائيٍّ سجينةً تقوم به في زنزانتها الباردة المعتمة المعزولة، دفعها التعبير الغريب الذي يبدو على عيني البطلة وهي تصل ذروتها، حالة الاسترخاء والهدوء العميقين التي تعقب ذلك، الإحساس بالانتصار على السجن والظلام والسجانين وشهوة الجسَد أيضًا، حيث كانت تقوم بذلكَ وحيدةً، أو بوجود السجَّان خلف القضبان، وتحت عدسات الكاميرات السرية. شاهدت الفيلم عشرات المرات، وقرَّرت أن تكون هذه السجينة: بها رغبةٌ وحشيةٌ في أن تنتصر. على من أو على ماذا؟ لا يهم.

دخَّنت السجائر مع الطالبات في الحمامات والحفلات المباحة التي تنظِّمها المدرسة، وتستغلُّها الفتيات في نزقهن. كان دخان السجائر يهدِّئ أعصابها المضطربة، ولو أنه يجعلها تكحُّ وتحمرُّ عيناها ويصيبها باحتقانٍ في الأنف.

إلى أن تعرَّفت بـ«سُهى»، أو تعرَّفت «سُهى» بها، وهي ابنة سياسيٍّ شديد الثراء وشديد التدين، وهو الشيخ السياسيُّ الطبيب الذي أقنع المؤسسة الدينية بتحريم الصعوط عندما استيقظ ذات صباحٍ ووجد ابنته تنام وتحت شفتها السُّفلى كُرةٌ لزجةٌ بائسةٌ منه، وكان يعلم العلاقة بين سرطان اللثة وهذه المادة النطرونية المخدرة، ولكن وزير المالية الذكيَّ أقنع الجميع بأن ذلكَ سيفقد الدولة المفلسة 17% من الدخل القومي، ويفقر ألفين من التجار الوطنيين، ومنهم خمسون سياسيًّا مشهورًا، وما لا يقلُّ عن مليوني تاجرٍ محلي، فتراجعت الفتوى

الدينيـة مـن التحريـم إلى الكراهيـة، ثـمَّ إلى التحليـل الخجـول.

كانـت البنـت تعيـد الفصـل الثالـث معهـا، تريـد أن تحـرز درجـة نجاحٍ لا أكـثر، لـكي تـدرس الطـب في «ماليزيـا» عـلى النفقـة الخاصَّـة، والدهـا يريدهـا أن تعمـل طبيبـةً في المستشـفى الخـاصِّ الـذي يمتلكـه، أو أسـتاذةً في إحـدى كلياتـه الطبيـة الخاصَّـة التـي لا يرغـب في أن يضـمَّ ابنتـه إليهـا، يجـب أن تتخـرَّج البنـت في جامعـة محترمـة مُعـترَف بهـا عالميًّـا. الطالبـة المتعـثرة ذاتهـا هـي التـي بَسَّـطَتْ لهـا مسـألة دراسـة علـوم الطـب، وفقًـا لمـا فهمتـه مـن أبيهـا: «معرفـة الأمـراض ومسـبِّباتها وعلاجهـا لا أكـثر.»

كان شـعارها هـو «مـن حـقِّ البنـت أن تسـتمتع بحياتهـا الآن، والمسـتقبل بيـدي اللـه.»

عرَّفتهـا «سُـهى» بسـائق حافلـة الترحيـل، «حسـن بـاشري»؛ شـابٌّ أربعينـيٌّ نشـط، وتقـول عنـه «سُـهى» إنـه يحفـظ الأسرار وخـدوم، لا يطلـب مـالًا كثـيرًا، وقالـت لهـا أيضًـا: «بشـبش يوفـر كُل حاجـة، البنقـو والحبـوب والسـجائر والرجـال كذلـك.»

منـذ ذلـكَ اليـوم اسـتطاعت «مـيرم» أن تقـضي سـاعتين مـع «أحمـد»، بواقـع مرتـين في الأسـبوع، مقابـل مئـة جنيـه لسـائق حافلـة الترحيـل. قالـت لهـا الأمُّ مـن بـين أسـنانها، وهـي تعطيهـا المـصروف: «إذا دخـل «أحمـد» البيـت دا في غيابنـا، مـا حتشـوفيهُ تـاني في حياتـك!»

لم تقـل شـيئًا، نظـرت لأمِّهـا في أمِّ عينهـا، أخـذت النقـود، دخلـت غرفتهـا، أغلقتهـا عليهـا، واتصلـت بـ«أحمـد»، أخبرتـه بـأن أمَّهـا وأباهـا سيسـافران بعـد قليـل، وأن السـائق الآن في انتظارهـما، وأنهـا سـتكون في انتظـاره هـو بالمسـاء بعـد أن ينـام «فـراج» الصغـير، وعليـه أن يتدبَّـر أمـره، لأنـه سـيبيت ليلتـه معهـا في غرفتهـا الصغـيرة الجميلـة.

في واقـع الأمـر لم تكـن غرفتهـا صغـيرة، كانـت غرفتهـا أكـبر مـن

الحجرتين اللتين كانت أسرتها كلُّها تشغلهما في «زقلونا»، مساحتها 6×8 أمتار مربعة، وهي شقةٌ مصغَّرة، لها شرفةٌ ترتفع قليلًا عن الأرض، لها نافذةٌ بحجم مساحتها من الزجاج، تطلُّ على حديقةٍ صغيرة. بالغرفة حمامٌ كبيرٌ ملحق به «ساونا» و«جاكوزي»، وسرير واحد «كينج سايز»، خزانة ملابس أشبه بغرفةٍ صغيرة، كنبةٌ وكرسيان وثيران، تواليت إيطاليٌّ حديث، ثلاجة، تلفزيون بشاشة «LCD» مساحتها 80 بوصة، وأشياء أخرى صغيرةٌ وكبيرةٌ ضروريةٌ لبنتٍ ثرية. جُهِّزت الحجرة عن طريق بيت خبرةٍ أوصت به زوجة الخال، لذا هنالكَ أشياء كثيرةٌ لم تستخدمها «ميرم»، بل لم تعرف لها اسمًا أو كيفية استعمال، في واقع الأمر هي لا تحتاج إليها، على الرغم من الدروس التي أعطتها لها زوجة خالها، وتلكَ الشروح التي تطوَّعت بها صديقتها «سُهى» عندما أتت إليها مرةً زائرة.

مملكتها هذه الصغيرة محرَّمٌ على كلِّ أفراد أسرتها دخولها؛ صغيرهم — ما عدا «فراج» — وكبيرهم، شاهدوها فقط قبل أن تأخذ «ميرم» مفاتيحها، جميعًا، للمرة الأخيرة وللأبد، بعضهم بأمرٍ من «ميرم» مثل الأم، وبعضهم تخوُّفًا من الحرج، مثل الأب والأخ «السر»؛ فـ«ميرم» في غرفتها لا تلبس شيئًا على جسدها، منذ طوفان أزمتها الطيني، وتلكَ هي الطريقة الوحيدة التي تحافظ بها على عزلتها، تلكَ العُزلة التي أقرب ما توصف به أنها نوعٌ من الاحتجاج الحاد، وجسَدُها هو صرختها التي تُخيف وتُفزع.

رأت من النافذة العربة تأخذهما بعيدًا. بعد قليلٍ طرق «فراج» الصغير الباب وهو يبكي احتجاجًا على أن أمَّه لم تصطحبه معها. أخذته «ميرم» للمطبخ، فهو يحبُّ البيض محمَّرًا بالزيت، وهي عادةٌ قد اكتسبها من أيامهم الحزينات السابقات، حيث كان أكل البيض يمثِّل رفاهيةً غذائيةً مدهشة. ما زال يمكن امتصاص غضب «فراج»

بوجبةٍ خفيفةٍ منه، فلم ينتقل «فراج» فعليًّا إلى الجوِّ الثريِّ الجديد ويتطبَّع بنهج الأغنياء، أو يدَّعي ذلكَ كما تفعل البنت وأمُّها وأبوها، خاصَّةً عندما يكونون في حضرة أهالي «كافوري» الأغنياء المنعَّمين. ما زال الصغير المسكين وحِلًا في بنية الفقر، نفسيًّا، وفي سلوكه أيضًا، ولو أنه في قلب مدينة من الثراء الفاحش والأثرياء الفاحشين. تستطيع بيضةٌ واحدةٌ محمَّرةٌ بالزيت أن تنسيَه أمَّه لوقتٍ قصير، ثمَّ لوقتٍ أطولَ قليلًا، ثمَّ يندمج في اللعب بما يشاء من لُعبٍ بغرفته. وستأخذه «ميرم» أيضًا للحديقة في العصر، ستلتقي هنالكَ ببعض صديقاتها، ستلهون وتمرحن وتتبادلن الأخبار والنمائم البيضاء والزرقاء والسوداء. لكن حدث ما لم يكن في الحسبان، عندما سمعت جلبةً خفيفةً عند الباب، وصوتًا ينادي في تشوُّق:

- يا أمي «نصرة».

وهي الطريقة التي يعلن بها أخوها «السر» خبر وصوله وأنه مشتاق لأمِّه، وكان نداؤه هذا يعجبها جدًّا في الماضي، وكان محبَّبًا لنفسها، وخاصَّةً في أيام الشدة، حيث يأتي «السر» محمَّلًا بالفاكهة والهدايا، أمَّا اليوم فلم تسمع أقبح وأكثر رُعبًا من هذا النداء الذي كان رحيمًا وجميلًا وطازجًا في الماضي.

وضع حقيبتين كبيرتين غريبتين في غرفته، لم يحمل معه سلاحًا هذه المرة، وهو دائمًا ما يرتدي الزيَّ المدني.

يكبرها «السر» بأربعة أعوام كاملات، ونسبةً لخدمته العسكرية، صار له جسدٌ رياضيٌّ وبنيةٌ ناضجةٌ جعلته يبدو أكبر من عمره الحقيقيِّ بسنوات كثيرة، كان مرحًا كعادته وطيبًا ويحبُّ النكات، وتصفه أمُّه «نصرة» بأنه «حنيِّن».

حمل «فراج» وضمَّه إلى صدره. عضَّه في أذنه. كان مزاج «فراج»

قد اعتدل فجأةً لرؤية أخيه «السر»، وأخذ يمطره بالأسئلة الغريبة والركلات الصديقة، معبِّرًا بذلكَ عن شوقه ومحبَّته لأخيه كثير الغياب.

حاولت «ميرم» بقدر المستطاع أن تكون طبيعية، وألَّا تغرق نفسها في مصير لقائها بحبيبها «أحمد» الذي أصبح مستحيلًا. وضعت الإفطار لأخيها «السر» الذي أعلن أنه جائع ومرهق، لقد جاء من «كردفان»، قضى الليل كلَّه مسافرًا بشاحنةٍ عسكريةٍ متهالكة، وقال إنه لن يعود مرةً أخرى للعمل: «لقد استقلت نهائيًّا، ساعدني خالي، أنا سأقرأ الجامعة يا «ميرم»، ما كلمتك أمي؟»

نعم أخبرتها أمُّها كثيرًا جدًّا، بل أخبرت كلَّ من قابلته وتبادلت معه كلمتين، بأن ابنها العبقريَّ سيعود للدراسة بعدما تبدَّل الحال، لقد كان أوَّل دفعته في كلِّ الفصول التي تيسَّر له حضورها، وعندما ترك المدرسة وانضمَّ للجيش أتى إليها مدير المدرسة بنفسه يرجوها أن تتركه يكمل دراسته، وإنه سوف يعفيه من كلِّ الرسوم المدرسية، ولكن الأسرة كانت تحتاج له أيضًا، تحتاجه كمُنتِج، وإن مشكلة المدرسة ليست الرسوم وحدها، ولكن مصروفات الإفطار والملابس، وثمن الكتب والمذكرات والمواصلات، حيث لا توجد مدرسةٌ ثانويةٌ بـ«زقلونا»، وعليه أن يستقلَّ المواصلات العامَّة إلى «السلمة» رائحًا وغاديًا. الآن يمكن لولدها أن يعود للمدرسة وسيحرز نتائج ممتازة، لم تحتَجْ لجدلٍ كبيرٍ لإقناعه بالعودة للدراسة، فقد كانت الرغبة مكبوتةً في ذاته، ولو أنه كان يحاول أن يستغلَّ وضع خاله، ويتقدَّم للتأهيلية بالكلية الحربية، ويتخرَّج ضابطًا حربيًّا برتبة ملازم. وقد شرع فعلًا في الأمر، فملفُّه النظيف وسيرته الحسنة في جهاز الأمن الوطني ورتبة خاله الكبيرة تؤهِّله لذلك.

كان خاله يريد أن يقدِّم خدمةً كبيرةً لأخته «نصرة» تمكِّنها من اجتياز محنة الفقر والفاقة والاعتماد ولو قليلًا عليه هو، وهذا لا

يقدح في كونه كريمًا ونبيلًا، ولكن لا يدري كيف يكون مستقبل الأيام، وإذا لم تعتمد الأسرة على ذاتها فإنها ستظلُّ في حالة إعاقةٍ دائمة، تعوق نموَّها الخاصَّ وتعوق من تعتمد عليه من خارجها، «والفقر يُعدي»، وهي مقولةٌ سمعها من رجلٍ ثريٍّ ذات مرة.

سينام قليلًا، وفي المساء سيذهب لزيارة أسرة العم «جبريل كيري»، يشتاق للتوأم، وطلب من «ميرم» أن تصحبه ومعها الصغير «فراج»، إلا إنها اعتذرت بأن عليها واجبات مدرسية تريد أن تقوم بها في المنزل. كانت لديه رغبةٌ عارمةٌ في التحدُّث إليها ومحاورتها، يريد أن يعرف تفاصيل أموال والده وحياته الجديدة كما تراها هي، ولكنها كانت تردُّ عليه في جملٍ قصيرةٍ غير مفيدةٍ في الغالب الأعم، كان مزاجها عكرًا وترغب في تدخين سيجارةٍ ملحَّة، وتحتاج للصمت والسكينة؛ أيْ تريد أن تكون نفسَها لا أكثر.

لقد أحسَّ بالتغيُّرات التي حدثت لأخته، جسديًّا؛ حيث إن وزنها زاد بصورةٍ ملحوظة، وعزا ذلكَ لتوفُّر وجودة الطعام، شعرها أصبح أكثر طولًا ونعومة، إلا إنها أصبحت قلقة، قليلة التحدُّث، وبها توتُّرٌ واضحٌ وجلي، كما إنه لاحظ أنها تلبس بصورة متعرية؛ أيْ ملابس البيت القصيرة جدًّا وذات الصدر شبه المكشوف، وكان يراها في الماضي بجلبابها الوحيد الذي هو أقرب للزيِّ الرجاليِّ منه لملابس السيدات. لم يهتمَّ بذلكَ كثيرًا. استأذنتْ ودخلتْ غرفتها.

اتصلت بـ«أحمد زكي»، أخبرته بأن أخاها جاء فجأةً من حيث لا يُتَوقَّع، وأنه جاء نهائيًّا، ليس كالمرات السابقات عابرًا، وعليه إذا كان يرغبها أن يتزوَّجها بأسرع ما يمكن، وأنها لا تحتمل البقاء في هذا البيت، لأنها ببساطةٍ ستفكِّر بالانتحار، وقالت له: «برنامج الليلة قائم، ستبيت معاي في غرفتي.»

لا تدري كيف خطرت لبالها كلمة الانتحار، فهي لم تفكِّر فيها من

قبـل، ولم تحـسّ يومًـا بأنهـا سـتقوم بفعلـةٍ كهـذي، ولكنهـا ربمـا أرادت أن تـسرع بإيقـاع «أحمـد» البطـيء جـدًّا في شـأن الـزواج. أبـدى تخوّفـه مـن أن أخاهـا قـد يكشـف أمرهـما، فهـو سـيبيت أيضًـا بـذات المنـزل، وقـد لا يفـرق بينهـما سـوى حائـط لا أكـثر، وإذا حـدث ذلـكَ فإنهـما قـد يفقـدان بعضهـما البعـض للأبـد، وقـد تحـدث فتنـةٌ بـين الأسرتـين.

عندمـا خـرج «الـسر فتـح اللـه» وفي صحبتـه «فـراج» الصغـير واختفيـا في الطريـق الجانبـيِّ المـؤدِّي إلى شـارع النيـل، دخـل «أحمـد زكي» «الفـلَّا» الفارهـة، ثـمَّ الشـقة حيـث التقطتـه «مـيرم» عنـد بـاب الشـقة في هالـةٍ من العطـر المنعـش، حملهـا عـلى كفَّتيـه كـما يفعـل دائمًـا في بيتـه الصحـراويِّ إلى غرفتهـا، حيـث وضعهـا عـلى السريـر الكبـير. بينـما كان يلتقـط أنفاسـه لاحـظ الـثراء الفاحـش الـذي بـدا عـلى الحجـرة الواسـعة، تلـكَ التجهيـزات التـي لم يـرَ مثلهـا إلَّا في السـينما والمسلسـلات العالميـة.

كان كلُّ شيء جميـلًا وكامـلًا، إلا إنـه افتقـد عنـصرًا مهـمًّا، وهـو الرائحـة التـي تخـصُّ جسـد «مـيرم»، تلـكَ التـي تنبـع مـن مسـامها مُعتـصَرة مـن دمهـا، رائحتهـا الأكـثر إنسـانية مـن كلِّ عطـور الدنيـا وبيـوت أزيائهـا الثرية الزائفـة، رائحـة الفقـر الطيبـة مختلطـةً بالتشـهِّي غـير المـشروط، بـدفء الحاجـة، افتقـد الرائحـة التـي تعلـن عـن إنسـانية الإنسـان، عـن موسـيقى إيقـاع قلبـه، تلـكَ التـي تحمـل حكايـاتٍ وقصصًـا صادقـة: افتقـد حبيبتـه «مـيرم»، عبـق شرورهـا الجسـدية.

قـال لهـا وهـو ينظـر في عينيهـا اللتـين أزالتـا تينـكَ العينـين اللتـين خبرهـما جيِّـدًا: «تغـيرت كثـيرًا في فـترة قصـيرة، ريحتـك أصبحـت قـروش قـروش. ولم يتبـقَّ منـك سـوى عينـين.»

ضحـكا ولعبـا، ولكنـه اكتشـف أيضًـا أن هنالـكَ متغـيِّراتٍ أخـرى في جسـدها، كانـت متوتـرة، وبـدا جسـمها مشـدودًا، بـل أحسَّـه صلبًـا وبـاردًا، لم يكـن ذلـكَ الجسَـدَ السـهل اللـدن الطيِّـع المستسـلم للـذة، المسـتجيب

للمساته وهمسه، بل لدقات قلبه وخواطره غير المرئية. أحس بأن البنت الشجرة أصبحت صخرةً صماء، والماءُ استحال إلى جبلٍ من الجليد. هل هي التي تغيَّرت فعلًا أم إنه هو مَنْ تغيَّر؟ أيْ إن الجوَّ الثريَّ والمكان الغريب قد أثَّرا في نظرته للأشياء وإحساسه بحبيبته. المرة الأخيرة التي التقيا فيها كانت منذ شهرين تقريبًا، وهي ليست فترةً طويلة، نعم لم تكن كما كانت دائمًا، ولكن لم يكن التغيير كبيرًا وشاذًّا ومخيفًا كما هو الآن. نعم: يخاف أن يفقدَها.

سُلْطَانَةُ الْجِنِّ وَالْإِنْس

كانت تستجيب لغزله بمحبَّةٍ ورغبةٍ وجنونٍ وشبق، وعندما تبلغ ذروتها تشعر أن العالم كلَّه ملكها وإنها سلطانة الجنِّ والإنس والملائكة والجماد والنبات والحيوان، وكلِّ ما ليس له نوعٌ وجنسٌ وفصيلةٌ واسمٌ وصفة. هي مستعدة أن تضحِّي بكلِّ ما في الكون من أجل تلكَ اللحظة الفريدة، اللحظة التي أعانتها في الماضي في الانتصار على الفقر والفاقة، وحرَّرتها من سجن الوقت والمكان.

الحياة في «زقلونا» مثل السباحة في بئرٍ عميقة الغور، ضيقة، ذات جدرانٍ ملساء زلقة، يظلُّ الإنسان يسبح في حلقةٍ لا نهاية لها، إلى أن تخورَ قواه وتهِنَ عزيمته، فتبتلعه البئر في جوفها المظلم. كانت «ملكة الدار» تعي ذلكَ تمامًا، ولكنها ليست من الناس الذين يستسلمون سريعًا، بل هي من القلة الذين يسبحون في دائرة الجُبِّ ويطلبون النجدة في ذات الوقت.

كانت في الحقيقة مندهشةً من سلوك «فتح الله» تجاه أسرتها، وترى أن تلكَ «حنِّيَّة» زائدة واهتمام أكثر ممَّا هو متوقع. نعم هو صديق زوجها المرحوم ورفيق مغامراته الغريبة، ولكن كان اهتمامه واقترابه الكبير من أسرتها يبدو مرَضيًا، وأصبح يضايقها؛ فهو الآن قد منعها من العودة للعمل في سوق «زقلونا» كبائعةٍ للشاي، ويقوم بصورةٍ منتظمةٍ بمدِّها بالمصروفات المطلوبة للأسرة، وقد حدَّثها قبل أيامٍ عن نيَّته بناء بيتٍ لها ولأسرتها، بعيدًا عن هذا الحيِّ الذي تفوح منه رائحة الفضلات الآدمية والحيوانية آتيةً من المجرى المفتوح الذي تتجمَّع فيه كلُّ فضلات سكان العاصمة «الخرطوم»، وهو يعاني عن نفسه من رائحةٍ زنخةٍ وجيوشٍ من الذباب اللئيم. يريد أن يشتري لهم بيتًا في منطقة «السلمة» وهي حيٌّ جيِّدٌ ونظيفٌ نسبيًّا. البيت يطلُّ على طريق الأسفلت العام، وسجَّله باسمها شخصيًّا، وأخذ بالفعل في تشييده بمواصفاتٍ جيِّدة.

والشيء الآخر الذي أثار ريبتها، هو الشائعة الغريبة التي تقول إن «فتح الله» قد عثر على الذهب مع «جبريل»، وقد قام بدسِّ السُّمِّ لـ«جبريل» في الطعام لينفرد بالذهب. وهذه الشائعة أصبحت مع مرور الأيام هي الواقع الحقيقيُّ والقصة الفعلية لثراء «فتح الله»، وهي التي فسَّرت اهتمامه بأسرة صديقه المرحوم، نتيجةً لعقدة الذنب التي تؤرِّقه وتمنعه النوم. لكن «ملكة الدار» كانت في حاجةٍ

للمال، في حاجةٍ ماسَّةٍ لكلِّ مليمٍ من أجل تعليم التوأم وابنتها «رشا جبريل»، ومصروفهم اليومي. كانت تخشى شيئًا واحدًا، وهو أن يطلب «فتح الله» يدها للزواج، كما لمَّحت بعض النسوة في الجيران، لأنها كانت سترفضه رفضًا باتًّا، بل وتمنعه من دخول بيتها.

التوأم مندمجتان في اللعب مع «فراج» الذي يصغرهما بعامين، أمَّا «السر» فكعادته عندما يلتقي برشا يملآن البيت ضجيجًا وضحكًا وصخبًا، لا مبرِّر له في الغالب غير التواصل العميق الخشن، وعندما كانا أصغر سنًّا، كانا يتعاركان بالأيدي ويتصارعان كصبيين.

لعبا »البلي« و»بنات بنات« و»دس دس« وكلَّ ألعاب الصبا، كانت طفولتهما مرحةً وثريَّة، نمَوَا كأخوين شقيقين، وظلَّا كذلك إلى اليوم، وقد ساهم الفقر ووضع الأسرتين المتقارب اقتصاديًّا في تقوية الروابط الإنسانية بينهما. أعجبتها فكرة أن يترك «السر» العمل في القوات النظامية، ولكنها أيضًا كانت تقول له إنه أن يعمل في الأمن شخصٌ مثاليٌّ وذو خلق، خيرٌ من أن يعمل به شخصٌ مختلٌّ نفسيًّا وبوعيٍ زائف. كلُّ ما يهمُّ «السر» أنه يريد أن يكمل دراسته ويتخرَّج في الجامعة مثل أنداده الذين تخرج بعضهم ويعملون، وبعضهم ما زال في الفصول الدراسية الأخيرة.

كان الديك الذي لم يعُدْ يبيض بيضًا حجريًّا، يرعى الدجاجات قريبًا جدًّا من مجلس «رشا» و«السر». كانا يحتسيان القهوة. «السر» أيضًا يحبُّ الغناء، وأكَّد لها أنه عندما يعود للدراسة، سينضمُّ لـ«جماعة تصوُّف». قالت له ضاحكة:

- وكورال الجبهة الديمقراطية؟

قال مبتسمًا:

- أنا مؤتمر وطني.

هتفت مندهشة:

- معقولة؟!

قال وهو يخرج بطاقةً من جيبه:

- شوفي البطاقة دي، مش المؤتمر الوطني؟

- لا يهم البطاقة، المهم أنت.

كانت تعي أنه يريد أن يقول لها: لا يوجد شخص »مؤتمر وطني«، فالمؤتمر الوطني ليس فكرًا سياسيًّا وليس دينًا وليس طريقة تفكير أو أسلوب حياة، فهو مجرَّد وظيفة لا أكثر، وظيفة سياسية مؤقتة في الغالب، أيْ ثلة تنتظم مصلحةً ما، أكثر ممَّا تجمعها فكرة، ووقتما انفضَّت المصلحة انفضُّوا.

حدَّثها قليلًا جدًّا عن عمله الأخير بجبال النوبة، وكيف إنه شاهد الموت للمرة الأولى في حياته، كيف تختلط دماء الرجال والنساء والأطفال بدماء الجنود والدبابات والأشجار والطين والحجارة، وأقسم لها إنه سمع الجبل يبكي:

»قد لا تصدِّقين ذلك، ولكنه بكى وسمعه كلُّ المقاتلين والضحايا الذين كانوا يحتمون في كهوفه، قبل أن تحيلهم القذائف إلى رماد.

قرَّر القادة إنه لا يمكنهم السيطرة على الميدان، ما لم يتمكَّنوا من السيطرة المطلقة على الجبل، وهو طوْدٌ شاهقٌ يقبع وسط ميدان المعركة، يبعد عن مدينة «كادُقلي» حوالي 100 كيلومتر أو أقلَّ جنوبًا، تحيط به قريتان كبيرتان مزدحمتان بالسكان، يقيم أهل القريتين في أيام السلم بالسفح، ويزرعون ويرعون ماشيتهم في الأودية التي تحيط به، أمَّا أيام الحرب فإنهم يسكنون في كهوفٍ عميقةٍ في الجبل، ويستطيعون أن يقيموا هنالكَ أيامًا وشهورًا، فهم يحتفظون بالماء

والطعـام المجفَّـف، ولا يخشـون الظـلام والثعابـين.

الرجـال يحملـون السـلاح ويحاربـون الحكومـة وهـي عدوُّهـم الوحيـد والدائـم، إنهـم متمـرِّدون بالسـليقة، ودائمًـا مـا يشـتكون مـن ظلـم السـلطة المركزيـة لهـم، ويتبعـون أوَّل مـن يسـعى لقتالهـا. عـداءٌ مـوروثٌ منـذ السـلطنة الزرقـاء التـي كانـت تقـوم بغـزوات البـشر لاسـتخدامهم كرقيـقٍ وجنـود، وأيضًـا كمـوردٍ لدخـل الدولـة، حيـث يتـمُّ تصديرهـم للعـالم الخارجـي، وبيـع البقيـة في الأسـواق المحليـة.

حـرق الجنـود القريتـين، حتـى لا يعـود إليهـما المتمـردون. ويفضِّـل القـادة أن تُرحَّـل القريتـان تخـوم «كادُقـلي»، حتـى تسـهل إدارتهـما أمنيًّـا.

أنـا مـا حرقـت أيَّ بيـت! كانـت مهمَّتـي أن يبقـى قائـدي المبـاشر حيًّـا أطـول وقـت ممكـن. لسـتُ حارسًـا شـخصيًّا، ولكـن عـليَّ أن أكتشـف مبكـرًا أيَّ تآمـرٍ في قواتنـا نفسـها ضـدَّه، هنالـكَ دائمًـا أفـرادٌ مندسُّـون أو أفـرادٌ يسـهل شراؤهـم، يقومـون بتنفيـذ خطـطٍ تخـصُّ آخريـن، أو تخصُّهـم هـم أنفسـهم. أنـتِ تتفقـين معـي في ذلـك؟

طُلِـبَ منهـم الانسـحاب الفـوريُّ إلى مسـافةٍ لا تقـلُّ عـن ميـلٍ كامـلٍ مـن الجبـل، في اتجـاه الريـح. بالتـالي، توقَّـع الجميـع أمـرًا جلـلًا، ثـمَّ شـاهدوا طائـرات «الأنتنـوف» تحلِّـق عاليًـا. ثـلاث طائـرات تبـدو في أحجـام الصقـور، أخـذت تُسـقِط عـلى الجبـل أحـمالًا ثقيلـة، كانـت مثـل حاويـات المـاء الضخمـة، تتقلَّـب في الهـواء لثـوانٍ معـدودات، ثـمَّ تهـوي عـلى الجبـل مصـدرةً دويًّـا مرعبًـا، لتتحـوَّل إلى كتلـةٍ مـن الجحيـم. ولكـن الغريـب في هـذه القذائـف، أنهـا تسـيل مثـل حمـم الـبركان لتتـسرَّب إلى عمـق الكهـوف، بـين الحجـارة. وعرفـتُ فيـما بعـد أن جمهوريـةً آسـيويةً شـعبيةً قامـت بصناعتهـا خصِّيـصى لحـرب الجبـال في السـودان والدويـلات الصديقـة لهـا ذات البيئـة القتاليـة المشـابهة. إنهـا تتوغَّـل وتتـسرَّب عـبر التشـقُّقات التـي بالجبـل، وعـبر فتحـات التهويـة، لتعانـق أجسـاد المختبئين

تحتها وتحرقهم حريقًا تامًّا. تكفي شرارة واحدة منها لقتل إنسان، حيث إن كلَّ قطرة منها تتسع لتشمل الجسَدَ كلَّه، وتنتقل لكلِّ ما يلتصق به من جمادٍ أو نبات أو حيوان. عندما سقطت القذائف الثلاث وأصبح الجبل الكبير مثل طوْد النار، وسالت الحمم على جانبية فيضانًا من اللهب؛ عندها سمعنا نحيبه، كان الجبل يبكي مثل الطفل، فأصابنا الرعب والحَزَنُ العميقان.»

قرَّر «السر فتح الله» في ذلكَ اليوم بصورة قاطعة ونهائية أن يرجع إلى البيت وإلى الدراسة، وألَّا يعود للخدمة العسكرية مطلقًا، فهو في الأصل لم يدخلها برغبته، كانت بالنسبة إليه مجرَّد وظيفة لا أكثر.

قال لها: «يحتاج الناس هناك إلى قرن كامل عشان يعوضوا خسارتهم البشرية. ماتوا زي الجراد.»

صاح الديكُ صيحتين متتاليتين، ضرب بجناحيه الهواء، وسحب الدجاجات بعيدًا نحو القفص، وأخذ يغازلهن ويعتليهن واحدةً تلو الأخرى. كانت «رشا» تستمع إليه بكلِّ حواسِّها، بينما تمضي الأحداث في مخيلتها مثل فيلم رعبٍ تقليدي. رأت الجبل يذوب، وشاهدت البشر يتحوَّلون إلى رمادٍ في ثوانٍ ولما يكملوا صرختهم بعد، ورأت «السر» يفغر فاه مندهشًا، وسألت نفسها سؤالًا صعبًا: «هل يبتسم الطيار وهو يلقي قذائفه بصورةٍ ناجحةٍ وتصويبٍ جيِّد، هل يحسُّ بلذة النصر؛ أقصد فرحة أداء عملٍ بصورةٍ دقيقة؟ إذا أتيحت له فرصة أن يرى الضحايا وهم يشوون، هل سيقوم بطلعةٍ أخرى ضدَّ أهدافٍ أخرى؟ هل حقيقةٌ أن بعض الطيارين تغمرهم نشوةٌ طاغيةٌ عندما يصيبون أهدافهم، تصل لدرجة الإيراق؟ هل إن البعض سيتفرَّغون قرفًا؟»

كان يمتصُّ دخان سيجارة الـ«برنجي»، يملأ به رئتيه ثمَّ يطلقه في

الهواء. لاحظت «رشا» أنه كان قلقًا جدًّا، كأنما قام بفعلٍ يندم عليه الآن، ولم ترَ من اللائق أن تسأله: هل قتلتَ أشخاصًا؟

قال لها، إنه يفضل دراسة الآداب، يريد أن يصبح كاتبًا، ويكفي أن يسجِّل قصَّة حياته في كتابٍ ليصبح أشهر من «إحسان عبد القدوس»، وكان هذا هو الكاتب الوحيد الذي قرأ له كتابين، وهما: «في بيتنا رجل» و«شفتاه». قرأهما كواجبٍ وظيفيٍّ في مدرسة الاستخبارات، لم يفهم إلى الآن ما هو الهدف وراء التأكيد على هذين الكتابين بالذات، ولكنهم قالوا له: «قد تحتاج أن تتبادل بعض الحوارات مع أنصاف المثقَّفين.»

بعد الغداء استأذنها في الانصراف، طلبت «رؤى» أن يتركَ لهما «فراج»، إلا إنه قال إنه مشتاقٌ إليه، وإنه مضى زمن طويل لم يتحدَّثا فيه أحدهما للآخر، وسيحضره لهما الأسبوع القادم، سيأخذهما للحديقة أيضًا. ولأن «فراج» الصغير أُعجِب بالبيضة الحجرية، قامت «رؤى» بإهدائها له، أخذها وهو يكاد يطير من الفرح، أخفاها في جيب سرواله، وخرجا.

الشمس ساخنة. على الرغم من توفُّر المال لديه إلا إنهما استقلَّا المواصلات العامَّة، الحافلة الكبيرة التي كُتب عليها بخطٍّ جميل: «غباء-الخرطوم». لاحظ أن «قُباء» مكتوبة بحرف الغين.

أجلس أخاه الصغير في الكرسيِّ الوحيد الفارغ، وظلَّ هو واقفًا مع رجلين آخرين، بينما أخذا يسألانه عن أسرته وأبيه، ولِمَ لَمْ يستغل بيتهم في «زقلونا»؛ أيْ أن يؤجِّره؟ أو بإمكانه أن يحوِّله إلى بيت للدواجن، فالدجاج وبيضه هذه الأيام أصبح البديل الأساسيَّ للحوم بعدما ارتفعت أسعارها وصارت: «نار الله الموقدة.»

كان يفهم تمامًا التلميحات التي تتخفَّى وراء كلِّ جملة يقولانها،

فهـو ذو الحـس الأمنـي وذو الدربـة المتقدِّمـة في قـراءة النيـات الحسـنة، وخاصَّـةً السـيئة منهـا، وهـو أيضًـا يعـرف كيـف يضبـط نفسـه ويـردُّ في الوقـت المناسـب، وقـد لا يـردُّ إطلاقًـا ويدَّعـي عـدم الفهـم والبلـه، عندمـا توقَّفـت الحافلـة في أوَّل محطـة ترجَّـلا، أوقـف عربـة تاكسي، صـاح بصوتٍ مبحـوح: «كافـوري!»

كان «فـراج» قـد ألصـق وجهـه بالنافـذة يتفـرَّج عـلى المـارَّة والمشـاهد التـي تمـرُّ أمامـه ماضيـةً بسرعـةٍ للـوراء، عندمـا مـرَّت الروضـة التـي كانـت جميلـةً في المـاضي أمامـه، أحـسَّ بحنـينٍ إلى أصدقائـه الصغـار وصديقاتـه، تذكَّـر المعلمـة «مامـا أسـماء»، وكيـف كانـت تفـضُّ المشـاجرات الصغـيرة بينـه وبـين الصبيـة الآخريـن، حيـث إنـه كان كثير الشـجار، وعـلى الرغم من صغـر حجمـه، إلا إنـه كان يتفـوَّق عـلى خصومـه، بسرعـة حركتـه وإصراره عـلى أن ينتـصر عليهـم. افتقـد هـذه المشـاجرات في روضتـه الجديـدة، كلُّ الأطفـال الذيـن بهـا منعَّمـون وهادئـون وطيِّبـون لا يميلـون للمشـاجرة، يقضـون وقتهـم في اللعـب الإلكـتروني ومشـاهدة أفـلام الأطفـال القصـيرة، هـو نفسـه أعجـب كثـيرًا بـ«تـوم آنـد جـيري» وشـخصية «سـاندي بِـل».

تسـتطيع أن تميِّـز نقـرات أصابـع «فـراج» عـلى بـاب غرفتهـا، فهـي واهنـةٌ وتبـدو بعيـدةً ولكنهـا متواصلـة، حيـث إنـه لا يكـفُّ عـن الطـرق مـا لم تفتـح لـه بـاب الغرفـة، وإذا لم تفعـل فإنهـا ستسـمع صراخـه وبـكاءه خلـف البـاب، وهـذا يؤلمهـا كثـيرًا، فتلتقطـه للداخـل حاضنـةً إيَّـاه في صدرهـا، وكان «فـراج» هـو الوحيـد الـذي يسـتطيع أن يخـترق عزلتهـا غصبًـا عنهـا، لـذا عندمـا سـمعت نقراتـه الأولى، طلبـت مـن «أحمـد زكي» أن يدخـل إلى الحـمام، إلى أن تقـوم بالتخلُّـص مـن ذلـكَ الجنـيِّ الـذي يقـف الآن خلـف البـاب. عندمـا فتحـت البـاب قفـز مباشرةً عـلى صدرهـا شـبه العـاري، وأخـذ يحـكي لهـا عـن التـوأم، وأراهـا هديتـه منهـما، وهـي البيضـة الحجريـة، وقـال لهـا:

- أنا ح أنوم معك الليلة.

لم يخطـر ببالهـا إطلاقًـا أن «فـراج» سـيقضي الليلـة في غرفتهـا. عـلى الرغـم مـن أن لديـه غرفـةً تخصُّـه، إلا إن «فـراج» اعتـاد عـلى النـوم في غرفـة والديـه وفي حضـن آمِّـه بالـذات. قفـز مـن صدرهـا للسريـر، جلـس القرفصـاء في وسـطه عـلى علبـة سـجائر «أحمـد زكي»، تحسَّـسـها بيديـه ثـمَّ رفعهـا مقدِّمًـا إيَّاهـا إلى أختـه سـائلًا:

- بتشربي سجاير؟

أخذتها منه، ووضعتها داخل دولاب الملابس:

- لأ، السجاير حرام، لقيتها واقعة في الطريق وجبتها معاي.

قال لها وهو يمسك بطنه:

- عايز أمشي الحمام!

ادعـت أنهـا لم تسـمعه، ولكنـه نهـض متجهًـا إلى الحـمام، فحملتـه وخرجـت بـه نحـو حجرتـه، أضـاءت مصابيحهـا، وأدخلتـه الحـمام، أغلقتـه عليـه وانتظرتـه عـلى سريـره.

قـضى زهـاء ربـع السـاعة بالحـمام، عندمـا خـرج طلبـت منـه أن ينـام قربهـا في سريـره، رضي بعـد لأي، كان يرغـب بشـدَّةٍ في النوم معهـا بحجرتها، خلعـت ملابسـه، ألبسـته ملابـس النـوم، سـألته مـا إذا كان جائعًـا، ولكنـه طلـب عصيرًا فقـط، شربـه وهـو يتثـاءب، ضَّمتـه إلى صدرهـا، وعـلى إيقـاع أنفاسـها، نـام.

حلـم بالديـك يبيـض في جيبـه، ثـمَّ يصيـح صيحـاتٍ مرعبـات، يـدور حـول نفسـه يـضرب بجناحيـه الهـواء، ثـمَّ يهمـس لـه في أذنـه بكلـماتٍ غـير مفهومـات، فاسـتيقظ خائفًـا، وجـد اللمبـات مضـاءة، والفـراش تحتـه بـاردًا، التلفزيـون الصغـير يعـرض فيلـم كرتـون، البيضـة الحجريـة تقبـع

على المنضدة أمامه، حيث وضعتها أخته «ميرم» عندما أخرجتها من جيبه وهي تخلع ملابسه لتضع أخرى مكانها وهي ملابس النوم. الباب مغلق، لكنه لم يعثر على أحضان أخته الدافئة، ولو أن عطرها ما زال يغمر المكان كلَّه، اكتفى بأن يحتمي بحضن الدبِّ القطنيِّ الكبير، دميته المفضلة، أغمض عينيه ونام نومًا عميقًا.

كانت تدخِّن السجائر، ولكن «أحمد» لا يدري شيئًا عن ذلك، ولديها شهيةٌ عظيمةٌ للتدخين وهي ترى «أحمد» ينفخ الدخان الأبيض في الهواء، فأخذت تناوره وتقيس مدى استجابته لفكرة أن تدخِّن السجائر هي أيضًا، بدأت بملاحظة أن دخان السجائر يثير شهيتها وماذا لو حاولته مرة، ولكن كان رأي «أحمد» أن السجائر ضارَّة بالصحة، وخاصَّةً صحة النساء، لأنه يؤثر على الجنين، «ولكن لا بأس جربي مرة».

عندما امتصَّت الدخان في النفس الأول، لم تستطع أن تقاوم رغبة ابتلاعه كاملًا، تمامًا مثل المحترفين وقدامى المدخنين، وقد لاحظ «أحمد زكي» ذلك، ولكنها استدركت الأمر بأن افتعلت الكحة والاختناق بالدخان وهربت إلى المرحاض، ولكن بدلًا من أن ترمي السيجارة على الأرض أو المِطْفَأة، هربت بها، أغلقت الباب خلفها وأخذت تدخِّن بشراهةٍ إلى أن أتت عليها تمامًا، أسقطت كعبها في المرحاض، كحَّت بشدة، خرجت وألقت بجسدها العاري في حضنه شبه مغمى عليها.

- كويس في المرة القادمة ما حَ تتعبي كتير!

قرَّرا أن يتزوَّجا فورًا، عليه أن يُرسل والدته ووالده إلى والديها في يوم الاثنين، وأخبرته للمرة الأولى بأن أباها قد خصَّص لها الشقة العليا إذا تزوَّجت، والسفلى لأخيها «السر»، ولكن شرطه ألا يستغلاها إلا بعد أن يتزوَّجا، «سنحتفظ ببيت «أم درمان» الصحراوي، وربما نؤجِّره للبعض».

للمـرة الأولى في حياتهـما يبقيـان معًـا، في سريـرٍ واحـدٍ الليـل كلِّـه، كانـت تجربـةً غريبـةً وجميلـةً وممتعـةً لكليهـما، ولـو أن أسـئلته حـول جسـدها كانـت تتعاظـم. لم يسـتطيعا النـوم مبكـرًا، تحدَّثـا في مواضيـع شـتى متنوعـة، شـاهدا فيلـمًا روائيًّـا عـن سـجينةٍ تنتـصر عـلى عُزلتهـا بالاسـتمناء الـذاتي. أعجبـه الفيلـم وأعجبهـا هـي للمـرة الألـف، قالـت لـه إنهـا تشـبه تلـكَ السـجينة، ولكنهـا لم تخـبره كيـف كانـت تقلِّدهـا في لياليها العصيبـة في محبسـها الإجبـاريِّ في بيـت أبيهـا الـثريِّ هـذا.

حدَّثهـا عـن عملـه في التنميـة، وعـن تعقيـدات العمـل المضنـي، ولكنـه أيضًـا قـصَّ لهـا عـن صديقـه الـروائي «أدومـة»، وعندمـا سـمعت الاسـم هتفـت قائلـة: «دا حبيـب رشـا جبريـل؟»

حدَّثتهـا عنـه «رشـا» كثـيرًا في اللحظـات القليلـة التـي يتصافيـان فيهـا، وهـي لحظـاتٌ كثـيرةٌ جـدًّا، وأخبرتهـا بأنهـا تحبُّـه، ولكنهـا أيضًـا اعترفـت لهـا بأنـه مـن نـوع الرجـال الـذي لا ينفـع كـزوج، لأن النسـاء الـلائي حولـه يجعلـن منـه حالـةً أكثر منـه إنسـانًا، وهـي لا تريـد أن ترتبـط بقافلـةٍ مـن البـشر، تريـد رجـلًا لهـا وحدَهـا، وهـذا لا يتوفَّـر في «أدومـة»، ولكـن مـا يعجبهـا فيـه هـو مـا يعجـب الأخريـات: أن تكـون لهـنَّ علاقـة مـع شـخص مختلـف، ولـو كان اختلافًـا وقحًـا. إذا لم يكـن هنالـكَ شـخصان يحملان هذا الاسـم الغريـب، فقـد يكـون هـو ذات «أدومـة» الـذي يتحـدَّث عنـه الآن.

هـي لا تعـرف شـيئًا عـن كتاباتـه، ولم تسـمع بهـا، كـما إنهـا لا تحـبُّ القـراءة، تحـبُّ مشـاهدة الأفـلام الروائيـة الطويلـة، وأيضًـا أفـلام الآكشـن، وبعـض الأفـلام العربيـة والمسلسـلات، فثقافتهـا ثقافـة مشـاهَدةٍ واسـتماع، أمَّـا القـراءة، فهـي أمـرٌ ثقيـلٌ لا تحبِّـذه ولا تميـل إليـه، وليسـت لديهـا المقـدرة البصريـة الكبـيرة في متابعـة الأسـطر والكلـمات الصغـيرة التـي تُرسـم عليهـا، هـي مغرمـةٌ بالصـورة والصـوت وهـذان لا يتوفَّـران في الكتـاب.

كان هـو يعلـم ذلـك، ولكنـه طلـب منهـا أن تسـتمع إليـه وهـو يقـرأ لهـا نصًّـا قصـيرًا جـدًّا كتبـه هـذا الرجـل، وهـو بعنـوان «صـلاة الجسَـد».

كان الليـل قصـيرًا جـدًّا، اسـتيقظا كلَّ ثانيـة منـه، عاشـا كلَّ لحظـة فيـه، أحبَّـا بعضهـما البعـض، خطَّطـا لمسـتقبلهما، أنشـآ أسـماءً لابنتهـما، أطلقـا عليهـا «سـلام»، وإذا كان ذكـرًا فهـما سيسـمِّيانه أيضًـا «سـلام»، هـل بالإمـكان أن يضعـاه الآن؟

كانـت تجاربهـا قليلـةً جـدًّا في الحيـاة، لا تتعـدَّى الفقـر والمدرسـة و«أحمـد زكي»، كلُّ الخباثـات الصغـيرة التـي تقـوم بهـا، والشـيطنات المتفرِّقـة، لا تقـارن بـشيءٍ أمـام معرفتـه وثقافتـه وإلمامـه بنواحـي الحيـاة. كانـت تحـبُّ أن تسـتمع إليـه وهـو يتحـدَّث، وهـو يدخِّـن، وهـو يقبِّلهـا، وهـو يحملهـا عـلى سـاعديه ويـدور بهـا في الحجـرة، وهـو يضمُّهـا إلى صـدره فتسـتنشـق عبـق جسـده المشـحون بالنكوتـين وعطـره الخـاص. كانـت تسـتجيب لغزلـه بمحبَّـةٍ ورغبـةٍ وجنـونٍ وشـبق، وعندمـا تبلـغ ذروتهـا تشـعر أن العـالم كلَّـه ملكهـا وإنهـا سـلطانة الجـنِّ والإنـس والملائكـة والجـماد والنبـات والحيـوان، وكلِّ مـا ليـس لـه نـوعٌ وجنـسٌ وفصيلـةٌ واسـمٌ وصفـة. هـي مسـتعدة أن تضحِّـي بـكلِّ مـا في الكـون مـن أجـل تلـكَ اللحظـة الفريـدة، اللحظـة التـي أعانتهـا في المـاضي في الانتصـار عـلى الفقـر والفاقـة، وحرَّرتهـا مـن سـجن الوقـت والمـكان.

الْبَيْضَةُ الْحَجَرِيَّة

قال له وهو يضربها على زجاج المنضدة: «دي بيضة حجر، أدوني ليها التومات.» فقفز الأب مذعورًا من مرقده كالملسوع، وأخذ يحملق في البيضة وكأنها عفريتٌ يخرج من قمقمه الآن، وبدون أن يشعر صرخ بأعلى صوته في ابنه بأن يعيد البيضة إلى حيث وجدها، أن يعيدها للتوأم وألا يقربها مرةً أخرى. وقف الطفل مندهشًا، ممسكًا بالبيضة في يده ولا يدري ماذا يفعل بها، ولا يدري لماذا تثير الرعب والخوف في والديه، وهي ليست سوى بيضةٍ حجريةٍ أهدتها إليه التوأم.

عندما دخلا الشقة، قابلهما «فراج» فرحًا مادًّا هديته ليريها لأمه، لا يدري لماذا دخلها كلُّ هذا الفزع من البيضة التي دفعها «فراج» دفعًا في كفِّها، لدرجة أنها رمتها بعيدًا عن يدها وكأنها جمرةٌ ملتهبة، لكنها تراجعت تدريجيًّا عندما رأت الدهشة في وجه «فراج» وأخته اللذين كانا في استقبالها عند الباب. لقد خرج «السر» مبكرًا إلى القيادة العامَّة لترتيب أمر حقوق ما بعد الخدمة وشهادات الخبرة وإخلاء الطرف، أبدت البنت ملحوظةً لأمِّها بأن تلكَ ليست سوى بيضةٍ حجرية، لا أكثر، فلِمَ الخوف؟ قالت الأمُّ بصوت مبحوح: «ما كنت أظنها تقيلة، تخيلتها بيضة عادية، من وين جبتها؟ من التومات مش كدا!»

كان «فتح الله» مشغولًا بالتخلُّص من جلبابيه وعمامته الثقيلة، حيث إنه لم يعتد على لبس جلبابين وعمامة، لأنه لم يمتلك سعرها في الماضي ولا يحبُّها الآن، يحسُّ بها حملًا ثقيلًا على رأسه وجسده لا ضرورة له، ولكن البروتوكولات الاجتماعية تحتِّم عليه لبسها، بل لبس أكبرها حجمًا وأكثرها ليونة؛ ليبدو مثل رجلٍ ثريٍّ يُوضع له ألف حساب وحساب. تدرَّب على لبس العمامة بواسطة أخي زوجته الجنرال.

انتزعها من رأسه انتزاعًا، تخلَّص أيضًا من الجلباب الأعلى، وبقي بالجلباب القطنيِّ الداخليِّ القصير، نفض رجليه نفضتين سريعتين أطارتا فردتي المركوب بعيدًا، لتسقط واحدة منهما على الكونسول وتكاد أن تصطدم بمرآته المصقولة غالية الثمن، والأخرى حلَّقت في الهواء قليلًا واستقرَّت على الكنبة الكبيرة المستطيلة التي تقبع مواجهةً لمقعده.

نفخ الهواء في كسل، صاح أنه يريد ماءً باردًا من الزير، وهو قلةٌ فخاريةٌ ضخمةٌ يحتفظون بها في حجرةٍ قصيَّةٍ بعيدًا عن أعين الزائرين المترفين من الجيران، وأنه يريد أيضًا كيس صعوطه وسفنجته.

بدا واضحًا أنه ليس بمزاجٍ طيب. اصطحبته الأمُّ «نصرة» إلى غرفته وأغلقت الباب خلفهما. قال له الشيخ بعد أن تفحَّصه جيِّدًا واستمع إلى قصته مع الديك، ومغامراته في التعدين العشوائي للذهب وسرقة ممتلكات الموتى من النوبة الأقدمين (طبعًا كان «فتح الله» وزوجته حريصين ألَّا يحكيا للشيخ قصة البيض الذهبيِّ والثروات التي جنياها منه) إن الديك هو الشيطان حارس الذهب.

وأكَّد لهما أن هذا الديك لن يفارقه ما لم يتم التخلُّص من الخاتمين بالطريقة السليمة، وهي أن يحضرهما للشيخ، الذي سيقوم بوضع بعض التمائم عليهما، ثمَّ يُرمَيان في النيل في ليلةٍ مظلمةٍ أو أن يعيدهما إلى القبر النوبيِّ المسحور، ثمَّ على «فتح الله» أن يذبح ثورًا أسودَ أو أبيضَ شديد البياض كرامةً وفديةً لنفسه، وأن يحدث هذا في أوَّل يومٍ من الشهر القمري. أوضحا له أن الخاتمين موجودان في بيت أسرة المرحوم ولا يمكنهما الحصول عليهما، كما إن الأسرة لا ترغب في بيعهما في المدى القريب، إنهم يحتفظون بهما للذكرى. ولكن الشيخ أكَّد على أن علاجه من الديك حارس الذهب يكمن في تلكَ الطريقة، ولا بدائل لها حسب علمه ومعرفته وفهمه للجنِّ والإنس.

لحق «فراج» بوالديه في الحجرة، كان مسرورًا جدًّا بعودة والديه، يحاول شتى الحيل ليعرف أين كانا بالضبط ولماذا لم يأخذاه معهما، ولكن أمَّه تبطل محاولته بالعبث في شعره وإغراقه بالأسئلة التقليدية: ماذا أُطعِمَ في غيابها، وكيف قضى ليلته، وهل تحدَّث كثيرًا مع أخيه «السر»، ولِمَ لَمْ ينَمْ في حجرة «ميرم»؟ أمَّا والده فكان يحاول جهده أن يمتثل للنوم، ولا يجاوبه بغير همهماتٍ قصيرةٍ لا معنى لها ولا فائدة تُرجى من ورائها.

كان «فتح الله» يدير حوارًا صامتًا مع الديك، يرجوه أن يتركه لكي ينام، ولو قليلًا، وإنه سيفعل كلَّ ما يأمره به، فقط إن يتركه ينام ولو

لدقائق قليـة. كان الديـك يقبـع عـلى جبهتـه، يضـع كلَّ قائمـةٍ مـن قائمتيـه عـلى عـينٍ مـن عينـي «فتـح اللـه فـراج»، وبمخالبـه يباعـد بـين جفنـي العـين، وبـين فينـةٍ وأخـرى ينقـر عـلى أنفـه، ويصيـح.

عندمـا يئـس «فـراج» الصغـير مـن جـذب انتبـاه والديـه إليـه، أخـرج البيضـة مـن جيبـه وخاطـب والـده:

- شوف عندي شنو؟

وبزاويـة عينـه اليمنـي نظـر الأب للبيضـة، وحـاول أن يغمـض عينيـه مـرةً أخـرى وهـو يقـول لـه بصـوتٍ ناعـس:

- لا تلعب بالبيضة، كلها وخلص.

قـال لـه وهـو يضربهـا عـلى زجـاج المنضـدة: «دي بيضـة حجـر، أدوني ليهـا التومـات.» فقفـز الأب مذعـورًا مـن مرقـده كالملسـوع، وأخـذ يحملـق في البيضـة وكأنهـا عفريـتٌ يخـرج مـن قمقمـه الآن، وبـدون أن يشـعر صرخ بأعـلى صوتـه في ابنـه بـأن يعيـد البيضـة إلى حيـث وجدهـا، أن يعيدهـا للتـوأم وألا يقربهـا مـرةً أخـرى. وقـف الطفـل مندهشًـا، ممسـكًا بالبيضـة في يـده ولا يـدري مـاذا يفعـل بهـا، ولا يـدري لمـاذا تثـير الرعـب والخـوف في والديـه، وهـي ليسـت سـوى بيضـةٍ حجريـةٍ أهدتهـا إليـه التـوأم.

لمـز إليـه الديـك بعـينٍ يُـسرى ماكـرةٍ وغمـز، وعـلى منقـاره ابتسـامةٌ مخيفـة، قائـلًا: «جبـاااااان.» وضحـك وهـو يـضرب بجناحيـه الهـواء، فيتطايـر ريشـه ليمـلأ الفـراغ كلـه، لدرجـة أن حجـب عنـه رؤيـة ابنـه المندهـش، وزوجتـه التـي تحـاول أن تـشرح للطفـل المسـكين أن والـده عنـده صـداع وأنـه مرهـق مـن السـفر لـذا كان ردُّه بهـذه الصـورة، «فلنخـرج للمضيفـة أو غرفتـك ونتركـه ينـام قليـلًا.»

جلسـت «مـيرم» قربهـا، بـل التصقـت بهـا كثـيرًا، كانـت تحـسُّ القلـق الـذي تعـاني منـه والدتهـا، وتشـعر بـأن هنالـكَ سرًّا مؤلمًـا يـأكل أحشـاءها،

ولكنها أيضًا تريد لحياتها أن تمضي، وتريد أن تبدأ مشوارها في عشِّ الزوجية بأسرع ما يمكن، والأفضل الآن، فمشاكل أمِّها وأبيها لا نهاية لها، منذ أن خلقهما الله قلقين ومهمومين ومشغولين بأمور الدنيا، هذا هو حالهما أثرياء كانوا أم فقراء، لا فرق لا فرق، قالت لها:

- «أحمد» ح يرسل أمه يوم الاثنين.

نظرت إليها أمُّها وكأنها لم تسمع شيئًا، كانت مقلتاها فارغتين من أيِّ معنى، حولهما هالةٌ سوداء، عندما أفرجت عن شفتيها لتقول شيئًا، كرَّرت لها «ميرم» الجملة، وهي تحملق في وجهها لترى ردَّة فعلها، قالت لها بصورة حادَّة ونهائية:

- ما في عرس يا «ميرم»، وكفاية النحنا فِيهُ الآن.

قالت لها مستفسرة:

- شنو النحنا فيهُ يا أمي؟

قالت لها بصوتٍ مبحوح:

- أبوك مريض!

قالت بخوف:

- مَالُهُ؟

قالت لها الأمُّ متجنبةً عيني ابنتها اللتين تخترقانها كالحربة:

- أبوك ما بيقدر ينوم، الليل كله يفضل صاحي. وتجيه هلاويس!

قالت في براءة:

- كويس يمشي الدكتور!

قالت الأمُّ وهي تعبث بشعر «فراج» الذي يدير البيضة في كفه:

- مرضُهُ ما مرض دكاترة، مرض «فكية».

قالت «ميرم» وهي تنهض من قرب أمِّها:

- ما في مرض اسمه مرض دكاترة ومرض «فكية»، المرض مرض، والحمد لله مرضه خفيف، أحسن يمشي الدكتور، يوم الأحد ح تحضر أم أحمد وأبوه.

قالت الأمُّ غاضبة:

- الزواج بعد الجامعة يا «ميرم»، ونحنا اتفقنا مش كدا؟

قالت «ميرم» مستنكرة:

- اتفقت مع منو؟ معاي أنا؟ لأ!

ولم تنتظر إجابة أو تعليق والدتها، دخلت حجرتها. أغلقت الباب خلفها بصوتٍ مسموعٍ بل داوٍ، خلعت ملابسها. دخلت الحمام. جلست على المقعد. أخرجت سجائر «برنجي لايت» ذات العلبة الزرقاء من خلف المقعد، أشعلتها وأخذت تمتصُّ الدخان في قلقٍ بينما كانت أدمعها تسيل على خدَّيها، عقلها يعمل مثل ألف ساعة لها ألف بندول تدقُّ في ألف زمنٍ مختلف.

الْأُمُّ وَالْابْن

لم تقل له إن أخته العصامية الآن حُبلى وفي شهرها الأول أو الثاني أو أسابيعها الأولى، أو يومها الأول، المهم أنها حُبلى. لن يكذب حسُّها أبدًا. لم تقل له أيضًا إن «أحمد» ابن خالتها الهُمام الآن في غرفتها، في هذه اللحظة التي يتحدَّثان فيها، دخل عن طريق باب الشرفة المرفقة بغرفتها، شاهدت صورته منعكسةً على نافذة هذه الغرفة الزجاجية، وهو يعبرُ الحديقة في سرعة الأرنب البري، بينما كانا يغطَّان في نومٍ عميقٍ هو وأخوه، ولم تقل له إن أخته تتفوَّق على الشيطان في حيلتها ومكرها؛ وإن الشيطان يستقي منها معرفته.

عندما خرج «السر» في صحبة «فراج» إلى السوق، دخلت إلى حجرة المنامة، وجدت «فتح الله» ما زال يتقلَّب ويتحدَّث إلى ديكٍ مجهولٍ لا تراه، رقدت مواجهةً له وأخذت تعمل بأصابعها على جبهته، تدلِّكها برقَّةٍ وهي تقرأ سورًا من القرآن بدون ترتيب، بدون إعدادٍ مُسبق، كلُّ ما يخطر في بالها تقرأه بخشوعٍ وتنغيم، حانيةً رأسها في وجهه، وقد صمت عن التحدُّث وبدأ يتنفَّس في هدوء، ويتأوَّه أيضًا بهدوءٍ وصوتٍ واهن، ثمَّ علا شخيره، قبَّلته في وجهه، احتضنته ونامت هي الأخرى.

كانت الأمُّ «نصرة» قد أعدَّت خطةً لإعادة ما يمكن إعادته من نقودٍ إلى أسرة «جبريل»، من أرباح استثمار المال في شراء عربات الجيش الخردة وبيعها بعد صيانتها وتحديثها وتحقيق أرباحٍ كبيرة، ذلكَ المشروع الذي ازدهر وأثمر وأصبح يدرُّ نقودًا طيبةً مباركة. وهي تظنُّ أن إعادة المال قد تقلِّل من مهاجمة الجنِّ الحارس للذهب لزوجها، على الرغم من أن زوجها أكَّد لها إنه بعد اتفاقه مع الديك أمام الرجل الميت في مغارة جبل «عضو الكلب»، أصبح المال كلُّه خاصَّته، وليست هنالكَ أية علاقة للذهب بأسرة صديقه. ولكن لا بأس أن يساعدوهم في الله، وبحقِّ الصداقة والعشرة القديمة. وإنه قبل بالاتفاق وفضَّل الموت على الرجوع لمربَّع الفقر، وهي تفهم ذلكَ جيِّدًا، وتفهم ماذا يعني الفقر وإنها تكرهه. لذا قرَّرت أن تعالج مسألة تأنيب ضميرها هي بالذات بطريقةٍ أخرى مقبولة: أن تخصِّص كلَّ أرباح الشراكة بين زوجها وأخيها لمصلحة أسرة «جبريل»، وأن تمضي في إكمال بيت أسرة «جبريل» بـ«السلمة»، والأبعد من ذلكَ أنها ستضمُّ أسرة «جبريل» إلى أسرتها بالمصاهرة، ففي رأيها لا توجد بنت تصلح لابنها «السر» كزوجة خير من «رشا جبريل»؛ فهي متعلِّمة وذكية ومهذبة، وإنهم يعرفونها منذ ميلادها في «زقلونا»، يفهمون طبائعها

وخيرها وشرها، والمثل العامِّيُّ يقول: «جنٌّ تعرفُهُ خيرٌ مِن جنٍّ جديدْ.»

وكم تمنَّت أن تصبح ابنتها «ميرم» نسخةً من «رشا جبريل» في المثابرة والجمال، بل في كلِّ شيء، ما عدا أن تصبح شيوعية، نعم، يعيبها فقط أنها شيوعية. ويُقال إنها لا تصلي ولا تصوم، نعم ابنتها «ميرم» أيضًا لا تصلي ولا تصوم ولكنها ليست كافرة. وإن «رشا» تغنِّي الأغاني التي لا تعجب الحكومة، وقد تُعْتَقل في أيِّ وقت من الأوقات. ولكن الأمَّ تعترف بالجمال الآخذ بالألباب لـ«رشا» والأدب الجمِّ والعلم الغزير و«بشرتها الناعمة»، وهي بالطبع تقصد لون بشرتها الأسود اللامع كالزيت.

ولدها لم ينَلْ حظًّا كبيرًا من التعليم، ولكنه الآن يعود للدراسة وسيتخرَّج طبيبًا أو مهندسًا، وهو ذكيٌّ ووسيمٌ ومحترم، ولا يُوجد ابنٌ أبرُّ منه بوالديه في العالم كله، كما إن فرق العمر بينهما ليس شاسعًا، فهو يكبرها بخمس أعوامٍ ليس إلَّا، وهي تعرف كيف تقنعه بالزواج من «رشا»، ولا تظنُّ أن «رشا» سترفضه، هذا إذا لم يكونا متفاهمين في هذا الشأن، ويخططان للزواج مثلما تفعل ابنتها و«أحمد زكي»، إلا إنها حالما أبعدت الصورة عن مخيلتها، ظللتها سحابة من الحزن.

ابنتها «ميرم» تمثِّل لها مصدر حزنٍ وغمٍّ شديدين، وتحسُّ بأنها دائمًا ما تفشل في التعامل معها، فهي ذات مزاجٍ منحرفٍ وغير نمطي، منذ طفولتها، بل منذ ولادتها، حيث إنها كادت أن تودي بحياة أمِّها، عندما انقلبت في الرحم في الدقائق الأخيرة من الولادة، واندفعت بمؤخرتها للخارج بدلًا من رأسها، ممَّا جعل القابلة تصرخ في جنونٍ بلغتها النوبية القديمة: «وي بيووو.»

لولا وجود المركز الصحِّيِّ قريبًا من الحي، ووجود «فتح الله» و«جبريل» وعربة الكارو التي يجرُّها الحمار القويُّ في ذلكَ اليوم،

لحدث ما لا تُحمد عقباه. «نصرة» لا تنسى ذلكَ اليوم وتلكَ الفعلة التي لم تُعفِ ابنتها من ارتكابها وهي لمَّا تولد بعد، بوعيٍ أو بغير وعي. في كلِّ لحظة تكبر فيها كانت لا تشبه قريناتها وهي تحبُّ من الألعاب الخشنةَ التي تناسب الأولاد، تصطاد الطيور وتتسلق الأشجار والحوائط، وتلعب الكرة أيضًا مع الصبية، ولم تهتمَّ بمظهرها الخارجيِّ إلَّا بعد البلوغ، حيث أخذت أنوثتها تتفوَّق على نزقها، ونما صدرها بصورةٍ طيبة، استدارت أردافها، ونعم صوتها، وأخذت تسلك سلوك الصبيات. كل المعلمين والمعلمات بالمدرسة الابتدائية والثانوية كانوا يتوقَّعون لها مستقبلًا باهرًا في التعليم، إلا إن الفقر أوقفها عن مواصلة الدراسة، وهي لم تقاوم مطلقًا، بل استكانت لوضعها الجديد، وسمعت كلام والدتها، بأنه ليس التعليم هو كلُّ شيء، والفقر قد يمنعكِ من أن تفعلي ما تحلمين به، ولكنه لا يستطيع أن يقفل كلَّ الطرق أمامك، وكانت تشجعها على استمرار ارتباطها بـ«أحمد زكي»، وهو المستقبل الأمثل الذي ينتظرها. الأمُّ الآن تلوم نفسها أيضًا، ولكن في هذا الوقت لا حيلة لها، تصرَّفت كما يجب عليها أن تتصرَّف، ولكن خذلها «أحمد زكي» وخذلتها ابنتها عندما أصبحا يتعاملان كزوجٍ وزوجة، ولولا ستر الله لحبلت ابنتها سفاحًا من ابن أختها.

استيقظت على كحَّته، كان وقت صلاة المغرب قد حان، توضَّأ، أحضرت له المصلاة وأخذ يصلِّي. كعادته كان يقرأ سورًا من القرآن بأخطاء جمَّة في النطق لم تستطع أن تخلِّصه منها، وتركته بها عندما وضعها بين خيارين: إمَّا أن يترك الصلاة وإمَّا أن يقرأ بالطريقة التي يعرفها، ففضَّلت أن يحافظ على صلواته طالما كان الله يدري ماذا يقصد «فتح الله» بلحنه.

عندما مرَّت قرب باب ابنتها سمعت موسيقى صاخبةً تتسلَّل من الداخل، نقرت لها الباب، انخفض صوت الموسيقى، نقرت الباب مرةً

أخـرى، فتحـت ابنتهـا البـاب، كانـت في فسـتان نـومٍ خليـع، وبوجههـا قنـاع مـن كريـم مرطـب للبـشرة، قالـت لهـا الأمُّ بـدون مقدمـات:

- سيكون الزواج في خلال أسبوع، جهزي نفسك.

قالت البنت وكأنها كانت تعلم بقرار أمِّها منذ شهور:

- أنا جاهزة يا ماما.

وعـادت للداخـل وهـي تغلـق البـاب خلفهـا، ويعلـو صـوت الموسـيقى مـرةً أخـرى. وقفـت الأمُّ قليـلًا عنـد البـاب، لـوت شـفتيها في حركـة تعجُّـب. مضـت إلى حجـرة ابنهـا «الـسر». دفعـت البـاب فانفتـح بهـدوء، كان «الـسر» وأخـوه الصغـير ينامـان في سـلامٍ قـرب قـرب. أيقظـت «الـسر» برفـق. جلسـت قربـه عـلى السريـر، ثـمَّ حدَّثتـه بهـدوء، حتـى لا يسـتيقظ «فـراج» الصغـير. أخبرتـه بـأن أبـاه مريـضٌ، ربمـا أصابـه شـيطانٌ أو جـنٌّ في رحلتـه التـي وجـد فيهـا الذهـب، وأنـه سـيعالج بـإذن اللـه عنـد أحـد الفقهـاء تخـوم «الخرطـوم»، وأن أختـه يجـب أن تتـزوَّج الآن، عـلى الرغـم مـن رغبـة الأمِّ في أن تكمـل البنـت تعليمهـا أولًا، ولكـن البنـت تريـد الزواج وليـس هنالـكَ في رأسـها غـيره، ربمـا بعـد أن تتـزوَّج سـتواصل دراسـتها إذا شـاءت هـي ورغـب «أحمـد»، وفي نظرهـا أن تتـزوَّج في بحـر أسـبوعٍ وأن تبقـى بالشـقة العُليـا، وهـي تقريبًـا جاهـزة، و«أحمـد» ليـس بالغريـب عـن الأسرة، فهـو ابـن أختهـا الكـبرى، زواجًـا بسـيطًا جـدًّا، عقـدًا وكرامـةً لا أكـثر.

لم يكـن «الـسر فتـح اللـه» مهيَّئًـا لـكل هـذه المعلومـات الجديـدة بالنسـبة إليـه في لحظـةٍ واحـدة، يعـرف أن «أحمـد زكي» يرغـب في الـزواج مـن أختـه، كانـت معلومـةً معروفـةً لـدى الأسرة الممتـدة، وهـي مـن المسـلَّمات التـي أخـذ أفـراد الأسرة يردِّدونهـا بمناسـبةٍ ودون مناسـبة، ولكنـه لم يعلـم شـيئًا عـن علاقـةٍ حقيقيـةٍ بـين أختـه و«أحمـد»، لدرجـة

أنـه نـسي الأمـر برمتـه، وكان يـرى أن مـن مصلحـة أختـه أن تواصـل تعليمهـا، فأختـه ليسـت مثـل بنـات هـذا الزمـان المنحـلات، فهـي ملتزمـة، ويجدهـا في البيـت كلـما حـلَّ بـه، لم يسـمع عنهـا أيـة انحرافـات في وسـط الشـبان، لم يرَهـا بعينـه حياتـه كلَّهـا في صحبـة رجـلٍ غـيره وأخيـه وأحيانًـا نـادرة أبيـه، وليسـت لهـا صديقـاتٌ لهـنَّ سـمعةٌ سـيئةٌ أو منحرفـات، فهـي مثـالٌ للأخـت المحافظـة البـارَّة، يمكنهـا مـن خـلال عصاميتهـا هـذه أن ترقـى أعـلى سـلَّم التعليـم، بـل تسـتطيع أن تـدرس خـارج السـودان دون أن يخـشى عليهـا شـيئًا، لا يـدري سـببًا للعجلـة في أمـر زواجهـا، ويمكنـه أن يتحـدَّث إليهـا في هـذا الشـأن وهـو واثـقٌ بأنـه يسـتطيع أن يقنعهـا، فالـزواج تترتَّـب عليـه مسـئولياتٌ أسريـةٌ وأطفـالٌ ويسـتحيل معـه التعليـم المنتظـم، وهـي مـا زالـت صغـيرة، في بدايـة العشرينـات مـن عمرهـا: «مـش كـدا يـا أمـي نـصرة؟»

لم تقـل لـه إن أختـه العصاميـة الآن حُبـلى وفي شـهرها الأول أو الثـاني أو أسـابيعها الأولى، أو يومهـا الأول، المهـم أنهـا حُبـلى. لـن يكـذب حسُّـها أبدًا. لم تقـل لـه أيضًـا إن «أحمـد» ابـن خالتهـا الهُـمام الآن في غرفتهـا، في هـذه اللحظـة التـي يتحدَّثـان فيهـا، دخـل عـن طريـق بـاب الشرفـة المرفقـة بغرفتهـا، شـاهدت صورتـه منعكسـةً عـلى نافـذة هـذه الغرفـة الزجاجيـة، وهـو يعـبُر الحديقـة في سرعـة الأرنـب الـبري، بينـما كانـا يغطَّـان في نـومٍ عميـقٍ هـو وأخـوه، ولم تقـل لـه إن أختـه تتفـوَّق عـلى الشـيطان في حيلتهـا ومكرهـا؛ وإن الشـيطان يسـتقي منهـا معرفتـه.

قال لها:

- ح أتكلم مع «أحمد زكي» في موضوع تأجيل الزواج.

قالت له وفي فمها ابتسامةٌ طيبة:

- من الأحسن يتزوَّجوا، وبعدين الله كريم.

حاولت أن تجعله يفهم شيئًا، ولا تدري أفهم أم لا، ولكنه توقَّف عن النقاش، بما يعني أن السكوت علامة الرضا. استيقظ «فراج» بعينين مغمضتين، مشى نحو المرحاض متعثِّرًا، أبدت الأمُّ ملحوظة أن الغداء جاهز، وتفضِّل أن يلتقي الجميع عند المائدة، وكانت تعلم أيضًا أن هذا الجميع لا يشمل ابنتها «ميرم»، ف«ميرم» تأكل وحدها، وتنام وحدها، وتفعل كلَّ شيء بعيدًا عن الآخرين، وخاصَّةً أفراد أسرتها جميعهم.

كانت الغرفة مضاءةً بآخر أشعة الغروب الفاترة التي تتسلل في مثل هذه الأوقات عبر نافذة الشرفة الزجاجية الكبيرة، التي تفتح في اتجاه الغرب مباشرة. وهو جالس على المصلاة، ألَّفَ دعاءً فوريًّا:

«اللهم أعوذ بك من شرِّ الشيطان الرجيم، والحاسدين وأولاد الحرام وبنات الحرام، وشياطين الدهب، والرجل الميت في مغارة جبل عضو الكلب.»

كرَّره مراتٍ كثيرة إلى أن دخلتْ الغرفة ووجدتْه يدعو به. كان ينادي بصوتٍ عالٍ وكأنه يخاطب أصمَّ سيجيب دعاءه حالما يسمعه، وبزاوية عينه اليسرى كان يرمق الديك وهو يرقد على المخدة، ويبدو في حالة نعاسٍ شديد. أضاءت لمبة النيون الكبيرة، فغرقت الغرفة في ضوءٍ ساطع، قالت له وهي تجلس على حافة السرير ليس ببعيدٍ عن رجليه، وقريبًا جدًّا من الديك الذي عندما أحسَّ بها، تحَّول من أعلى المخدة، وقفز على سطح تربيزة كبيرة بها مرآةٌ للتزيُّن وأخذ يحملق في وجه «فتح الله».

- البت.

قال دون أن يرفع عينه إليها:

- ما لها؟

قالت بصوتٍ منخفضٍ شبه مخنوق:

- أحسن تتزوَّج.

قال وهو يرفع رأسه تدريجًا وينظر نحوها، متجنِّبًا أن تقع عيناه في عيني الديك المحمرَّتين، اللتين هما أشبه بجمرتين موقدتين:

- طبعًا أحسن، أنا قلت لك الكلام دا من زماان.

قالت وهي تنظر في الأرض:

- يوم الإتنين ح يجي أبوه وأمه وجيرانهم للخطوبة.

قال دون تردُّد:

- للخطوبة والعقد والعرس ورحيل العروس مرة واحدة، كله في يوم واحد، خير البر عاجله، الشقة جاهزة وما في شي تاني.

كان بإمكانها أن تستمتع بالمال الكثير والحياة الرغدة والذهب والسكن الراقي الفاره والطعام، فالمال يجلب متعًا في الحياة كثيرةً ومختلفةً يصعب الحصول عليها في حالة الفقر والعوز. والمال أيضًا يجعل الحياة سهلة ويغيِّر الأولويَّات والتفضيلات، بل الاهتمامات بصورةٍ عامَّة، بل إن له تأثيرًا مباشرًا على اللغة والروابط الاجتماعية، والنظرة إلى العالم وتفسيره، ولكن «نصرة» لم تحسَّ بكثيرٍ من ذلكَ في الحقيقة منذ أن أصابتها دودة الثراء الفاحش، لم تنعم براحة البال أو تصالح الضمير. وكانت الطريقة التي حصلت بواسطتها على المال، وابنتها، هما ما يمثلان لديها القلق الأكبر. وبينها وبين نفسها، إنها تحمِّل ابنتها فشلها الشخصيَّ في التمتع بمباهج الحياة، لأنها ومنذ أن قرَّرت إعادة المال لأسرة المرحوم من الأرباح التي يحصلون عليها من استثمار الذهب، ومنذ أن أخبرها زوجها بقصة الديك والرجل الميت في مغارة جبل «عضو الكلب» وكيف إنه تحمَّل مسئولية الاحتفاظ

بالمال مقابل قبول الديك، أصبح المال ماله هو بالذات، أمَّا البنت فبتمرُّدها تقود الأسرة إلى فضائحَ أخلاقيةٍ كبيرة، وقد فشل مشروع تقويمها تمامًا، وفشلت محاولة إدخالها للجامعة، وفشلت محاولة ترشيد علاقتها بـ«أحمد زكي»، بل فشلت في أن تجعلها مسلمةً محافظةً عن طريق بعض المرشدات من الأخوات التقيات العارفات بالدين، ولم تُفِدْ كلُّ حيلهن بتخويفها بعذاب القبر والجحيم الذي ينتظر النساء الضالات اللائي يفرِّطن في عذريتهنَّ ويفسدن أجسادهنَّ، ولو أن باب التوبة مفتوح، حيث بإمكان العبد الرجوع إلى الله وقتما شاء، وإن الله يقبل توبة التائب، وهو أحبُّ إليه حينها من العبد المستقيم. كما لم يستطعن أن يقنعنها بالخير الذي ينتظرها في الآخرة إذا استقامت، حيث تصبح إحدى حوريات الجنة المكرَّمات المقيمات في نعيم الخُلد، وهنالك ستحظى بنكاحٍ لا يشبه نكاح الدنيا، فهو أعظم متعةً للأجساد، وأشبع للشهوة، وأرحم للروح، وقلن لها إن نكاح الجنة يدوم 70 سنة من المضاجعة المستمرة، وستحظى بخمرٍ ألذَّ وأطيب. ولكن حدث العكس، فكادت «البت» الشريرة أن تفسد إحدى الأخوات التقيات عندما سألتها:

- هل أنت ستصبحين حورية في الجنة يوم القيامة؟

فردَّت لها الأخت بالنفي لأنها لا تضمن لنفسها الجنة، فلا يضمن الجنة سوى عشرة من المسلمين والرسول محمد، فسألتها:

- كيف تضمنينها لي أنا، وأنت لا تضمنينها لنفسك؟

فترددَّت الأخت قليلًا قبل أن تجيبها، بأن عليها أن تعمل صالحًا وتتبع سواء السبيل بما أتى في القرآن الكريم من مكارم الأخلاق والحديث وما تناقله السلف الصالح وأمَّن عليه علماء المسلمين، والبقية هي إرادة الله فيما يختار لها؛ جنة خير أم جحيمًا مقيمًا.

فقالت لها «البت» النزقة:

- خير لي متعة مضمونة في الدنيا من جنة مجهجة في الآخرة.

وسألتها سؤالًا مباشرًا:

- هل جربت نكاح الدنيا؟

قالت الأخت الطيبة التقية وقد بدا عليها الخجل:

- لا، أنا ما متزوِّجة!

ثم أضافت وهي تتجنَّب النظر إليها في عينيها:

- وأنت؟

ابتسمت البنت وهي تقول بغنج:

- أنا ... ما ... متزوِّجة!

ضحكت الأخت التي ما كانت تتوقع تلكَ الاجابة بالذات، لأنها كانت تعرف جيِّدًا قصتها مع «أحمد زكي»، المقصود أنها سمعت بها كثيرًا، بمعنى أن ما يحدث بينها وبين «أحمد زكي» يعرفه الكثيرون، ولكي نوضِّح الأمر أكثر: إن الأخت تشكُّ في أن البنت تحمل في بطنها طفلًا من «أحمد زكي» في هذه اللحظة سفاحًا. بمعنى آخر: تظنُّ الأخت التقية -وإن ليس كلُّ الظنِّ إثم — أن البنت مشروعٌ لداعرةٍ صغيرة. إذا أمكنني أن أقول ذلكَ بلغةٍ قريبة: إن الأمَّ أخبرت الأخت المؤمنة التقية بأنها تشكُّ في سلوك ابنتها. أمَّا إذا شئنا أن يصبح المقصود أكثر وضوحًا؛ أقصد بيننا: إن الأخت التقية شاهدت عُلبة سجائر «برنجي» في غرفة البنت، بل إنها رأت بأمِّ عينيها في المرحاض الخاصِّ بالبنت واقيًا ذكريًّا مستخدمًا مهملًا. للأسف، إن البنت تمضي نحو الفضائح مثل سيلٍ جارف، وتكنس أمامها كرامة وسمعة الأسرة ورفاهيتها بالجري وراء متعها الخاصَّة، متَّبعة فساد روحها الآثمة ونزق

جسدٍ ضالٍّ لا يشبع ولا يرتوي ولا يخشى في سبيل اللذة لومة لائم. ولكن: هل الزواج هو الحل؟ الأمُّ وحدها تستشعر الكارثة، أمَّا الأب فكان يعرف تفاصيلها ويحسُّ بخرابها. ولكنه في هذه الأيام بالذات، عليه أن يتحمَّل مسئوليةً أكبر، مسئوليةً وجوديةً معقدة، وهي أخذ الأسرة إلى البرِّ الآمن. عليه تحمُّل كلِّ الآلام، حتى لا ترجع الأسرة إلى مربَّع الفقر. وعندما يكون لديه المال الكافي والوضع الاجتماعي القوي؛ أيْ في اللحظة التي يعرف فيها أن المال الذي لديه لا يمكن أن يعبث به ديكٌ أو شيطان، حينها سينتبه للأشياء الأخرى، ومنها بالطبع ما يخصُّ الأسرة وفسق البنت، وسيكفر بالديك ويتمرَّد على ميثاق الرجل الميت في كهف جبل «عضو الكلب».

مِنِفِسْتُو الدِّيكِ النُّوبِيِّ

نَحْـنُ الأبْنَـاءُ السَّـفَلَة ...

أن تؤمن بالديك، أن تقبَله.

من هو الديك؟

ألا يخطر في بالكَ ذلكَ السؤال؟

مِن أين لكَ بالسؤال، طالما الديك هو من يجيب عن السؤال؟

مَـن يكتـب الميثـاق، ومَـن يقـرأ الميثـاق، ومَـن يسـمع بـه، ومَـن يمـضي في طريقـه، ومَـن يعيـب بـه، ومَـن هـو الميثـاق ذاتـه؟

مِــن داخــل الكهــف في سُرة الرجــل الميــت في مغــارة جبــل «عضــو الكلــب»، كتــب الديــك ميثــاق الديــك:

الرجـل الميـت في مغـارة جبل «عضـو الكلب» هو الإنسـان الحيُّ الوحيد، لأنـه لا يـأكل ولا يـشرب ولا يُخرج ولا يتنفس ولا ينمو ولا يصغر ولا يبكى ولا يضحك ولا يتألم ولا يفرح، ولكنه الفاعل الأول للعمل الإنسانيِّ على وجه الأرض.

أن تقبَلني.

أن تتخير بيني وبين الفقر.

أن تختـارني؛ أنـا الديـك. وأن يشـهد اختيـاركَ الرجـل الميـت في مغـارة جبـل «عضـو الكلـب».

أو أن تختـار الخاتـم كـما اختـاره «جبريـل» ودفـع ثمنـه بالمـوت؛ وأظـنُّ أن ذلـكَ ليـس عـدلًا، والديـوك أيضًـا تصـاب بتأنيـب الضمـير، ولـو أنـه ليـس للرجـل الميـت بمغـارة جبـل «عضـو الكلـب» ضمـير، إنـه ميـتٌ حـي، ميـتٌ يقسـو ويقتـل ويجـرح ولا يتـألم ولا يبـكي، رجـلٌ لا يحـزن، يقبَـل ولكنـه لا يغفـر أبـدًا، لأن مـن يقبَـل لا يغفـر، وتلـكَ هـي الحُريـة.

النقطـة الأخـرى؛ أن تقبـل الديـك: أقـول لـكَ، بصفتـي الديـك ذاتـه، أنـا لسـتُ مثـل سـائر الجـنِّ والشـياطين، أنـا مثـل الديـك، الديـك النـوبيِّ الثائر، هـل تعـرف منفسـتو الديـك النـوبي؟

هل تعلمتَ ما معنى الديك النوبي؟

هل أحببتَ الديك النوبي؟

أنا لستُ كالجنِّ ولستُ كالشيطان.

لستُ كالرب.

ولستُ كالعبد.

لأنني الجنُّ والشيطان والربُّ والعبد، أنا الملوك والمملوك والملكة.

ستعرفني أكثر.

أنتَ قبِلتني من أجل الذهب.

وأنا لم أقبلكَ ولن أقبلك: يقبلكَ الرجل الميت في مغارة جبل «عضو الكلب».

لن يقبلكَ القبر.

لن يقبلكَ الجد.

لن تقبلكَ الأرض الصحراء الوعرة.

سيقبلكَ جحيم التاريخ.

جحيم البيت الأول في تاريخ البشرية.

ستقبلكَ خزائن المستقبل.

لن أقبَلك: أعرف أنكَ تعرف الجنيَّ الفاسق ذا المِفْعَال الضاري، من ينكح المخدوم مقابل مالٍ ومعرفةٍ وفضِّ السرِّ المجهول عن المستقبل، أقول لك، إن ذاكَ الجنَّ لكاذب.

منفستو الديك: منفستو التاريخ المأكول المصهور المُباع من أجل لقمة عيش.

من أجل شرفة قصر.

من أجل حياةٍ مثل الوجع لا يحزنكَ أن تفقدها.

والـربُّ النـوبيُّ هنالـك، الـربُّ النـوبيُّ يسـجِّل بأحبـارٍ مـن نـارٍ تاريـخ الإنسـان الظـالم.

تاريخ الابن الخائن.

تاريخ الأبناء السفلة.

منفسـتو الديـك: منفسـتو الديـك النـوبيِّ الثائـر، منفسـتو الديـك النـوبيِّ الثائـر في حـقِّ الأبنـاء السـفلة.

منفستو الأبناء السفلة:

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة.

مَـن بعنـا سروال الجـدِّ الأعظـم، وتركنـا خصيتـه للطير الجـارح والإعصار، وأولمنـا الجـرذ ليقتـاد فضيحـة اسـت الملـك الغاضب من خسَّـتنا.

نَحْنُ الأبْنَاءُ القَتَلَة.

لم نحترم الرحم الخالق، لم نحترم النطفة.

لم نحترم هشاشة عظم التاريخ، ولا صلادة صوت القبر.

لم نحترم الطين الأول، فكرة أن يبني الإنسان المجد الأبقى:

كيف يفسِّر الشخص الأوَّل معنى الله بريشته على كهف الأبدية.

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ ...

الأبْنَاءُ ...

السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ

السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ ...

السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأَبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نَحْنُ ...

الأبْنَاءُ ...

السَّفَلَة ...

نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة نَحْنُ الأبْنَاءُ السَّفَلَة ...

نقطة.

قال الديك، وهو ينظر في عيني «فتح الله فراج»:

- هل قرأت المنفستو؟

قال له «فراج» وفي فمه ابتسامة بائلة:

- شُنُو المنفستو؟ أنا أمِّي لا أقرأ ولا أكتب.

الْعَرُوسَان

أمَّــا فرحــة «أحمــد» الكــبرى فهــي أنــه تــزوَّج ســيدة حياتــه، وفي الحقيقــة حبيبتــه الوحيــدة، والمــرأة التــي يتمنــى أن يقــضي عمــره كلَّــه معهــا، ويتمنــى أن يمــوت قبلهــا، حتــى لا يعيــش بدونهــا يومًــا، المــرأة التــي هــي زوجتــه منــذ ســنواتٍ طــوال، تزوَّجهــا بشريعــة الحــبِّ المتبــادَل، والرغبــة والتشــهِّي، وجنــون الجسَــد. تزوَّجهــا منــذ اللحظــة التــي شــاهد فيهــا اســمه واســمها مكتوبــين بالطبشــور عــلى حائــط البيــت وبينهــما قلــبٌ يخترقــه ســهم. نعــم، بهــذه الســذاجة والعفويــة عــبَّرت عــن حبِّهــا لــه، وكافأهــا هــو بالــزواج.

عبر الرسائل النصية القصيرة، دَعَتْ صديقاتها كلَّهنَّ لزفافها، وودَّعَتِ المعلمات والمعلمين والسائق الطيب «باشري»، ودَعَتَهُم أيضًا للكرامة التي ستقام في حديقة المنزل. نسبةً لمرض والدها وذكرى وفاة صديقه «جبريل أدومة كيري» الذي لم يكمل سنته الأولى، فلن يكون هنالكَ احتفالٌ من أيٍّ نوع، سيكتفون بالعقد ووجبة الغداء.

لن تكون هنالكَ فرحة معلنة، لن يكون هنالكَ ما يجعل الناس تسأل عن حقيقة علاقة «جبريل» المرحوم بـ«فتح الله فراج»، وهل المال الذي تتزوَّج به وفيه وعليه ومنه ابنته الآن يخصُّ «فتح الله فراج» وحده؟ أهو ماله في الأصل؟

سيكون زواجًا سريعًا جدًّا حتى لا يلتفت الناس لمعاناة «فتح الله فراج»، الذي لم يكن مرضه مَخفيًّا تمامًا عن قلةٍ من الآخرين؛ فسائق العربة سمعه مرةً يدير حوارًا مع ديكٍ وهميٍّ من جانبٍ واحد، وشاهده أكثر من مرةٍ يقبض شيئًا في الهواء ويصارعه، بل إنه أقسم صادقًا لزوجته إن «فتح الله فراج» لديه سرٌّ ما يخفيه عن الجميع، ولأن السائق كان أمينًا فإنه اكتفى بمشاركة زوجته وحدها الرأي. ويبدو أن الأمر بقي عند الزوجين فقط، أو ربما تحصَّلت عليه قلةٌ من الأشخاص المقرَّبين جدًّا من الزوجين.

زوجة أخي «نصرة»، قالت ذات مرةٍ لزوجها إنها تشكُّ في عقلية زوج أخته، ربما كان المال كثيرًا على عقله الصغير، فالكثيرون لا يتحمَّلون المال الفجائي، فالمال يأتي بحرَّاس المال، وهم الجنون، وإن الثروة التي تصيب غير مستحقيها تمسخهم وتذهب بعقلهم، وقالت له: «سمعته يصرخ كَرْ كَرْ كَرْ.» ولم تشاهد قربه أو حوله أو في بيته أيَّ ديك أو دجاجة؛ فـ«فتح الله فراج» لم يلمس أو يرَ أو يقترب من دجاجةٍ منذ أن مَنَّ اللهُ عليه بكنزٍ من الذهب في صحراء النوبة بالولاية الشمالية، في قبرٍ قديمٍ لملكةٍ منسيةٍ لا اسم لها في التاريخ المدوَّن. لن

تكـون هنالـكَ سـيرة، أو ضريـرة[1]، أو حتـى زغـرودات منفلتـاتٌ يعـبرّن عـن سـعادةٍ عميقـةٍ أو عابـرة. لـن يكـون هنالـكَ تمارين لتعليـم العـروس الرقـص، لأنـه مـن غـير المعقـول أن ترقـص عـروسٌ ومأتـم صديـق والدهـا المرحـوم «جبريـل كـيري» لم يكمـل عامـه الأوَّل، وكيـف ترقـص عـروسٌ ويظـنُّ البعـض أنهـا حامـلٌ بجنـينٍ كبـيرٍ في بطنهـا؟

الحفـل لم يكـن حفـلًا، ولـو أن السـعادة كانـت باديـةً عـلى الجميـع، كلٌّ لـه أسـبابه، فـالأب والأم فَرِحـان بتخلُّصهـما مـن البنـت النزقـة المجنونـة قنبلـة الفضائـح الموقوتـة، البنـت سـعيدة بأنهـا نالـت حبيبهـا «أحمـد زكي» أخـيرًا وبشروطهـا وإرادتهـا، وبأنهـا غـادرت التعليـم للأبـد، ولم يهمَّهـا كثـيرًا مـاذا يقـول النـاس عنهـا إذا أنجبـت طفلهـا الأوَّل بعـد سـبعة أشـهرٍ بالتـمام وهـو كامـل النمـو، ولا أظـنُّ أنـه سـابقٌ لأوانـه إذا ذكرنـا هنـا أن «مـيرم» قـد خيَّبـت ظـنَّ الجميـع حاسـدين وشـامتين ومعيِّبـين، وغيرهـم مـن أصنـاف البـشر الذيـن حولهـا ويهتمـون بحكايتهـا، عندمـا أنجبـت بعـد سـنةٍ كاملـةٍ مـن زواجهـا مـن «أحمـد»، وليـس في أقـلَّ مـن تسـعة أشـهرٍ كـما يظـنُّ الظانُّـون، وكـما تعتقـد أمُّهـا ذاتهـا، وربما الشـيطان نفسـه لا يتوقَّـع غـير ذلـك. أمَّـا فرحـة «أحمـد» الكـبرى فهـي أنـه تـزوَّج سـيدة حياتـه، وفي الحقيقـة حبيبتـه الوحيـدة، والمـرأة التـي يتمنـى أن يقـضي عمـره كلَّـه معهـا، ويتمنـى أن يمـوت قبلهـا، حتـى لا يعيـش بدونهـا يومًـا، المـرأة التـي هـي زوجتـه منـذ سـنواتٍ طـوال، تزوَّجهـا بشريعـة الحـبِّ المتبـادَل، والرغبـة والتشـهِّي، وجنـون الجسَـد. تزوَّجهـا منـذ اللحظـة التـي شـاهد فيهـا اسـمه واسـمها مكتوبـين بالطبشـور عـلى حائـط البيـت وبينهـما قلـبٌ يخترقـه سـهم. نعـم، بهـذه السـذاجة والعفويـة عـبَّرت عـن حبِّهـا لـه، وكافأهـا هـو بالـزواج. ربمـا كانـت في الثامنـة عـشر مـن عمرهـا.

ولكـن هنالـكَ مـا يؤلمـه جـدًّا، ولـن يسـامح نفسـه في يـومٍ مـا عـلى

(1) احتفاليةٌ في الفرح السوداني.

اقترافه؛ إنه سيسكن في بيتٍ بُني مِنْ مالٍ مشكوكٍ في مصدره، وهو لا يخجل أن يقول لنفسه، ولنفسه فقط في سرِّه، ولسرِّه فقط: «مالٌ حرامْ.» لولا أن حبيبته «ميرم» كانت تصرُّ على البقاء بهذا المنزل الفخم، لما تردَّد لحظة في السكنى في بيته الصغير الفقير بصحراء قاحلة شمال مدينة «أم درمان»؛ بيته الذي لم يكتمل مرحاضه بعد. سيتبرَّزان في العراء ولكن بحبٍّ وكرامة. وأمَّا بينه وبين نفسه، فإنه يؤمن بأن المال الحرام لا بدَّ أن يذهب في يومٍ ما من حيث أتى، لذا سيحتفظ ببيته، وسيبقى هنا كضيفٍ فقط: «من لا يسعده القليل فلن يسعده الكثير أيضًا.»

تزوَّجا في هدوء.

مثل مرور عصفورٍ صغيرٍ عبر حديقةٍ يانعةٍ ذات صباحٍ باكر. لم يترك انطباعًا قويًّا في ذاكرتَي المكان والزمان. لم تحيِّه الأشجار والأزهار والزنابق الناعسة الصغيرة وهي تفتِّح عيونها للشمس الدافئة، بل لم تنتبه إلى أن عصفورًا صغيرًا ذا أرياشٍ زاهيةٍ قد عبر فوق هامتها مغرِّدًا. لم تهمس في أذنيه الريح. لم يشتهِهِ قِطٌّ، ولم يصوِّبْ طِفلٌ نزقٌ تجاهه نبلته. بل لم يعرف العصفور الصغير ما هي وجهته بالضبط.

تزوَّجا في هدوء.

الْخَاطِبَات

الوقت عصر، كانت أختها الكُبرى الملقبة بـ«أم أحمد» تتقدَّم وفد النساء الخاطبات، ثمَّ تليها زوجة أخيها السمينة التي تثقل سواعدها بالذهب الأصلي، أمَّا هي وابنتها «ميرم» التي تلبس كعروس في أيامها الأولى بعد العودة من شهر عسل قصير في القاهرة، فكانتا تمضيان في وسط النساء، وذلكَ إكرامًا لأختها الكُبرى والنساء اللائي وفدن لمجاملتها وأداء الواجب، قلة منهنَّ من «كافوري» ولكن الغالبية العظمى من «زقلونا» جنوب وشمال، هنَّ جاراتها القدامى وصديقات أيام الشدَّة.

أعدَّت «ملكة الدار» كلَّ شيءٍ بإتقانٍ لاستقبال الضيوف، وكانت قد أزالت الراكوبة وبنت مكانها مظلةً كبيرةً بالزنك الأمريكي ومواسير الحديد الصلب، وصنعت لها أرضيةً من البلاط المزايكو الزهري الجميل، واشترت سرائر من النيكل وكراسي من البلاستيك المقوَّى، ومراتب إسفنج وستائر جديدة، ليبدو المنزل مناسبًا لاستقبال الضيوف. كما إنها حبست الديك والدجاجات بالقفص خلف الحجرات، وتم ربط الكلب قريبًا من قفص الدجاجات في البقعة التي كانت تقف فيها عربة الكارو والحمار قديمًا قبل بيعهما. بالطبع قد تحصَّلت على النقود من «نصرة» وزوجها «فتح الله فراج» اللذين كانا يصرَّان على أن تكون مناسبة الزواج في البيت الجديد بـ«السلمة»، ولكن البيت لم يكتمل بعد، وما زال تحت التشييد، كما إن «ملكة الدار» كانت تصرُّ على بيتها القائم الآن بـ«زقلونا»، البيت التي عاش وتوفي فيه زوجها «جبريل أدومة كيري». أمَّا التوأم فتبدوان مثل عروسين صغيرتين، في كامل زينتيهما. العروس «رشا جبريل» قد تمَّ تجهيزها لتبدو أجمل وأينع في عين الخاطبات اللائي عندما شاهدنها أخذن يرددن: «ما شاء الله!» استحسانًا وإبعادًا للعين والحسد، وإن كان أكثرهنَّ يُخفين غيرةً لا حدود لها. كانت سعيدةً وجميلةً ولها عينان

واسـعتان، وفـمٌ متسـعٌ أيضًـا، وشـعرٌ قصـيرٌ ممشـوطٌ بطريقـةٍ جميلـة، ومرسـلٌ عـلى عنقهـا، شـديد السـواد.

الْعَرُوس

كان الأمـر مفاجئـًا مفاجـأةً تامَّـةً لـ«الـسر فتـح اللـه»، وظـنَّ للوهلـة الأولى أن الأمَّ غـير جـادة وأنهـا تداعبـه لا أكـثر، ولكنهـا أكَّـدت لـه أنهـا تريـده أن يتـزوَّج «رشـا جبريـل»، فالبنـت تناسـبه جـدًّا، وبهـا كلُّ مـا يتمنى الرجـل وتتمنـى أسرتـه. طلـب مـن أمِّـه أن تمهلـه بضـع أسـابيع حتـى يتمكـن مـن مناقشـة الفكـرة مـع «رشـا» نفسـها، وأن يختـبر نفسـه مـا إذا كان لديـه شـعورٌ عاطفـيٌّ حقيقـيٌ تجاههـا، أم إنهـا مجـرَّد أخـوة وصداقـة طفولـة، والأهـم: هـل ترغـب «رشـا» في الـزواج منـه، وربمـا كانـت مرتبطـةً ولهـا حبيـب، وتخطِّـط لحياتهـا بصـورةٍ طيبـةٍ بعيـدًا عـن خزعبـلات أمِّـه. هـو لا يعـرف كيـف يخالـف رأي أمِّـه، فهـو في قـرارة نفسـه يراهـا دائمًـا عـلى حـق، وأنهـا لا تقـوم إلَّا بمـا هـو صحيـحٌ ومفيـدٌ لـلأسرة، ليسـت هنالـكَ امـرأة في حياتـه ولا يعـرف فتـاة واحـدة معرفتـه بـ«رشـا»، فالأمـر بالنسـبة إليـه لا يفـرق كثـيرًا، إذا قبلـت بـه «رشـا» سـيتزوَّجها وهـو خـير اختيـار، وإذا لم تقبـل بـه سـيظل صديقهـا وأخاهـا. قالـت لـه أمُّـه:

- و«رشا» موافقة!

سألها:

- كيف عرفت ذلك، هل تناقشت معها؟

قالت له الأم:

- هـي موافقـة، هـل تظـن أن «رشـا» تلقـى أحسـن منـك؟ لا توجـد بـت ترفضك.

قال وقد ضجر من مراوغة أمِّه والتفافها على سؤاله:

- هل هي قالت لك بفمها؟

قالت الأم:

- مـا في بنـت تقـول عايـزة راجـل بفمهـا، البنـات يقلنـه بالصمـت

والسكات، أو حتى بالغضب، البنات يا «السر» عندهم لغة ما بتفهمها غير النسوان، ثق فيما أقوله لك.

وعندما خطرت في بالها ابنتها وكيف كانت تطلب ببجاحةٍ الزواج من «أحمد زكي»، خجلت من نفسها ومن كذباتها الصغيرة لابنها «السر»، وأرادت أن تصلح الأمر ولو مع نفسها، فأضافت وهي تختلق ابتسامةً غامضة:

- إلا البنات اللميضات.

وتحت هذا العنوان تقبع هي أيضًا سواسيةً مع ابنتها، فهي أيضًا تزوَّجت «فتح الله فراج» بطلبها هي الخاص، ولو أن غالبية أفراد أسرتها اعترضوا بشأن عدم معرفة أمِّه وأصلها وفصلها، وأنه ليس لـ«فتح الله» بيتٌ محدَّد، حيث كان مشردًا كلَّ حياته، وليس له عملٌ محدَّد، وأنه فوق ذلكَ كلِّه أمِّيٌّ لا يفكُّ الخط، إلا إن قلبها الذي تعلَّق به هو الذي حسم الأمر لصالح أن تكون زوجةً لـ«فتح الله فراج» الفقير الوسيم، الذي كان يسكن في العمارات التي تحت التشييد مع فقص دجاجاته، وليس له رفيق سوى ذكرى أبيه الميت، وكان أمِّيًّا وهي متعلمة، إلا إن أسرتها أيضًا كانت فقيرةً جدًّا، ولو أن بها عددًا كبيرًا من الأبناء الذكور، إلَّا إنهم كانوا فاشلين في الحياة، ويعمل معظمهم في الجيش كجنود، ولو أن أحدهم استطاع أن يصعد سُلَّم الجندية إلى رتبةٍ كبيرة، وبقدرة قادر استطاع أن يتقرَّب إلى الرئيس عندما عُيِّنَ حارسًا لجلالته، وكان وفيًّا جدًّا وماهرًا جدًّا في إظهار محبَّته وولائه ووفائه غير المشروط للسيد الرئيس، فأصبح محل ثقة جلالته الشخصية، وانهالت عليه الترقيات والمخصَّصات، ومُنح أرضًا قريبةً من قصور أسرة السيد الرئيس، ووُهِب منحةً أسعفته لبناء قصرٍ منيفٍ جميل، وهو الذي يسكنه الآن. ولو أنه على مستوى الوظيفة ما زال حارسًا؛ أي الفرد الذي يقوم بأداء الأعمال الشخصية

جـدًّا عندمـا يكـون سـيادته في سـفرٍ خـارج القـصر أو خـارج بيتـه، مثـل دخـول المرحـاض قبـل سـيادته للتأكـد مـن أن لا أحـد مـن البـشر أو الجـنِّ ينتظـره بالداخـل، وتهيئـة المـكان لصلاتـه، وإلباسـه جزمتـه. ويقـوم أخوهـا أيضًـا باسـتبدال شرابـات جلالتــه، ورمــي تلــكَ المتعفنــة بعيــدًا، وحــكِّ ظهـره حينـما يصـاب بـالأكلان «الهـرش» وهـو غالبًـا مـا يُصـاب بـه لعلـةٍ لا يعلمهـا أحـد، ولسـببٍ مـا لم يصـارح طبيبـه أيضًـا، فهـو لا يثـق فيـه. وأحيانًـا يقـوم بدلـك رجليـه إذا جلـس جلسـةً طويلـةً في شـأنٍ مـا، يشـعل لـه سـجائره ويقـوم بإطفائهـا، يعـدُّ لـه الصعـوط، وغـير ذلـك، ثـمَّ أصبـح يحـكي لـه النـكات، حتـى البذيئـة جـدًّا، ويقـرأ لـه الجرائـد الصفـراء، حيـث إن سـيادته لا يقـرأ غـير القـرآن الكريـم، وعنـد أداء الصلاة فقـط. ثـمَّ صـار أكـثر قُربًـا منـه عندمـا وفَّـر لـه الفُكيـان والسـحرة والشـيوخ مـن أوليـاء اللـه الصالحـين وأوليائـه غـير الصالحـين، والمُدَّعـين الذيـن عرفهـم عندمـا كان يبحـث مسـألة الإنجـاب، لأنـه لم يُـرزق بذريـةٍ أيضًـا كـما جلالتـه ذاتـه. فالرؤسـاء مثلهـم مثـل البـشر العاديـين، يحتاجـون لصديـق حميـم للترفيـه والخدمـات اليوميـة الإنسـانية البسـيطة جـدًّا والحقـيرة جـدًّا؛ فـكان أخوهـا المحظـوظ هـو صديـق الخدمـات التافهـة والحقـيرة لسـيادة الرئيـس.

وهـذا الأخ بالـذات — وعـلى الرغـم مـن أنـه في ذلـكَ الوقـت، حينـما شـاءت أن تتخـذ «فتـح اللـه» زوجًـا لهـا مـع رفضـه مـن قبـل معظـم أفـراد الأسرة — كان جنديًّـا فقـيرًا وليـس لـه ثقـلٌ في الأسرة، إلا إنـه لم يعـترض عـلى زواجهـا مـن «فتـح اللـه»، بـل وقـف في صفـه، وكانـت وجهـة نظـرة غريبـة، حيـث إنـه «رقـد بالخـيَّرة» ورأى فيـما يـرى النائـم بِخَـيَّرةِ زواج أختـه؛ «فتـح اللـه» العريـس المرتقـب يلبـس جلبابًـا كبـيرًا أخـضر اللـون، وعـلى رأسـه تـاجٌ مـن الذهـب: «عرفـتُ أن اللـه سـيفتحها لـ«فتـح اللـه فـراج» ويفتحهـا علينـا نحـن معـه. ربنـا يضـع سره في أضعـف خلقـه. مثـل

«فتح الله» المشرد الأمّي المجهول، قد يكون عند الله أعظم من ملوك الكون كله.» بهذا الإيمان الراسخ بمستقبل «فتح الله فراج»، تزوَّجت «نصرة» حبَّ حياتها، أوَّل من عشقت، وتظنُّ بينها وبين نفسها أنه سيكون الأخير أيضًا.

قالت «نصرة» لابنها الذي يراقب في وجهها تحوُّلات السنين، ويكاد أن يقرأ الحوار السريَّ العنيف الذي يدور في رأسها، ويشاهد التسجيل السينمائيَّ للأحداث وهي تمرُّ في وعي أمِّه المرتبك وحُلم يقظتها. قالت الجملة التي تضمن لها حقَّها في المجاهرة باختيار «فتح الله فراج»، وفي نفس الوقت إدانة ابنتها «اللميضة» الملهوفة على التزواج مثل طائر سفود.

- البنات اللميضات والعارفات حقوقهن.

في تلكَ اللحظة سمعا صوت «فتح الله فراج» ينادي من الداخل، طالبًا جرعة ماء، فهَمَّ ابنه «السر» بالذهاب للزير، إلا إن «نصرة» أخبرته بأن عليه أن يشرب الماء مختلطًا بـ«المحاية»، وهي مشروبٌ مسحورٌ أوصى به الفكي. وطلبت أيضًا من ابنها ألَّا يقلق وأن يذهب إلى حجرته، ويستخدم وقته بما يريحه، وأنها سوف تقدر على مساعدة الأب وحدها، وإذا احتاجت ليد الآخرين فسوف تقول لهم. «خذ معك أخوك «فراج»، وامشوا للترفيه. هل معك قروش كافية؟»

رَشَا جِبْرِيل

يمكـن القـول بصـورةٍ أكـثر دقـة، إن العلاقـة بينهـما كانـت فكريـة في المقـام الأول؛ أيْ علاقـة مثاقفـةٍ ومسايسـةٍ وتبـادل كتـب، واهتـمامٍ مشـتركٍ بالتصـوُّف والثـورة في نفـس الوقـت، فـ«أدومـة» مـن الذيـن يؤمنـون بفكـرة التصـوُّف العالمـي، وإن المتصوِّفـة ارتبطـوا بالديانـات الكبـيرة والصغـيرة، بـل بالأفـكار الفلسـفية ذات الشـعبية العاليـة مـن أجـل الحفـاظ عـلى معتقدهـم الأسـاسي، وهـو «الواحـدي» القائـل بـأن كلَّ مـن في الكـون ومـا في الكـون هـو ذات الـشيء، بالتـالي لا يوجـد فـرق بـين الجحـش والإنسـان والشـجرة والصخـرة والريـح والمجـرات واللـه ... إلـخ.

قالت «رشا» لأمِّها بصورةٍ قاطعةٍ ونهائية:

- أنا لا يمكن أتزوَّج «السر» أو أفكِّر مجرَّد تفكير فيه!

كانت تحسُّه كصديقٍ أو أخ، قَصَّتْ عليه عن حياتها وتفاصيل أيامها في أوقاتٍ كثيرةٍ ولقاءاتٍ لا حصر لها، ولو أنها لم تتطرق معه لحياتها العاطفية، حيث تعتبر أنها تخصُّها هي فقط والطرف الآخر، إلا إنه كان يعرف كلَّ شيء غير ذلك. وهي أيضًا مرتبطةٌ بصورةٍ هلاميةٍ مع «أدومة»، إلا إنها أيضًا تعي خوفه من المرأة كزوجة، وكان واضحًا جدًّا معها في هذا الشأن، ويميل للصداقة ويفضِّلها على كلِّ مسمًّى للعلاقة غيرها، وهي أيضًا تخاف من الارتباط به كزوج، فما يسمِّيه صداقاتٍ مع النساء تتعدى على لياقة غيرتها، ولقد قالت له ذات مرة: «أنا لا أتزوَّج جماهير، أريد رجلًا خاصًّا بي.»

يمكن القول بصورةٍ أكثر دقة، إن العلاقة بينهما كانت فكرية في المقام الأول؛ أيْ علاقة مثاقفةٍ ومسايسةٍ وتبادل كتب، واهتمامٍ مشتركٍ بالتصوُّف والثورة في نفس الوقت، فـ«أدومة» من الذين يؤمنون بفكرة التصوُّف العالمي، وإن المتصوِّفة ارتبطوا بالديانات الكبيرة والصغيرة، بل بالأفكار الفلسفية ذات الشعبية العالية من أجل الحفاظ على معتقدهم الأساسي، وهو «الواحدي» القائل بأن كلَّ من في الكون وما في الكون هو ذات الشيء، بالتالي لا يوجد فرق بين الجحش والإنسان والشجرة والصخرة والريح والمجرات والله ... إلخ. وهي الفكرة التي كانت مسيطرة على وعيه في روايته الوحيدة الموسومة بـ«الطواحين»، التي أطلق عليها هذا الاسم على موسيقى كتاب الحلاج «الطواسين». وكانا متفقين على أن التصوُّف هو أعظم دينٍ أرضي، وهو الذي ينبِّه بأن البشرية من عصورها الأولى كانت ذات وعيٍ بالكون كبيرٍ وسليمٍ وواقعي، ثمَّ أصيبت بالجهل فيما بعد، وظلَّت تتخبط في البحث عن سُبل الحقيقة والإفهام. وهما دائمًا ما يربطان بين التصوُّف والثورة

مـن ذات مبـدأ الوحدانيـة، فعندمـا يتعفـن بعـض الجسَـد، مـن الأحسـن التخلُّـص منـه بالبـتر، أو علاجـه أيضًـا إذا كان ذلـكَ ممكنًـا، فالوحدانيـة حركـةٌ ديناميكيـةٌ في الـذات الواحـدة التـي تشـهد التحـوُّل في وضعيـةٍ أقرب للسـكون أو أشـبه بالسـكون. فالمتعجِّـل لا يـرى في الصخـرة غـير صمتهـا وثباتهـا، تمامًـا كمـن يـرى البيضـة شـكلًا بيضاويًّـا مـن صنـف الجـماد. وقـد دارت بينهـما نقاشـاتٌ طويلـةٌ وعميقـةٌ جـدًّا، وربمـا كانـت هـذه الحـوارات هـي البـذرات الأولى لـ«جماعـة تصـوُّف» الغنائيـة بقيـادة «رشـا جبريـل». لذلـك لم تشـكِّل لديهـا علاقـةٌ تسـيطر عليهـا الأجـواء الفكريـة البحتـة بعيـدًا عـن العاطفـة، أو إنهـما لم يهتـمَّا بهـا بمـا يكفـي؛ علاقـةٌ مـن هـذا النـوع لا تشـكِّل أيـة عقبـة أمـام أن تتـزوَّج «رشـا» ممَّـن تريـد وترغـب؛ أيْ شـخصًا آخـر غـير «أدومـة»، فإنهـما مفكِّـران أكـثر مـمَّا هـما عاشـقان، ولـو أنهـما في وقـتٍ مـا اعتقـدا غـير ذلـك.

وهـذا لا يعنـي أنهـا كانـت سـترفض «أدومـة» إذا طلـب يدهـا. وتبقـى المسـألة في أن يكـون هـذا الـزوج هـو «الـسر فتـح اللـه فـراج» وليـس غـيره! لا تـرى أن هنالـكَ شـيئًا يعيبـه، غـير إنهـا لا تملـك شـعورًا عاطفيًّـا تجاهـه هـو الآخـر. أليـس بالأمـر غرابـة أن يطلـب يدهـا للـزواج بواسـطة أمِّهـا، بينـما لم يلمِّـح لهـا مجـرَّد تلميـح بذلـكَ عندمـا كان معهـا في البيـت، أو خـلال مكالماتـه التليفونيـة الكثـيرة التـي دارت بينهـما مؤخـرًا؟ بعـض الرجـال يحسُّـون بالخجـل الشـديد، ويكونـون شـجعانًا في كلِّ شيءٍ مـا عـدا مسـألة طلـب اليـد للـزواج، وذلـكَ نتيجـة للنضـج البطـيء عنـد الرجـل. ولكنهـا لا تظـنُّ أن «الـسر» مـن ذلـكَ النـوع، فالحيـاة عركتـه وصنعـت منه رجـلًا جريئًـا وواعيًـا ويعـرف مـاذا يريـد، وبإمكانـه أن يفاتحهـا مباشرة، قـد يكـون هـذا الخيـار خيـار أمِّـه وأمِّهـا لا أكـثر، ولا يـد للـسر فيـه. هـي لا تتـزوَّج بهـذه الطريقـة. كانـت واضحـةً أو ربمـا حـادَّةً بعـض الـشيء.

عندمـا اتصـل بهـا كانـت في الجامعـة، تقـوم ببروفـة عـلى المـسرح

الصغير استعدادًا لليلةٍ غنائيةٍ لـ«جماعة تصوُّف»، يتمرَّنون على أنشودة مطلعها:

«معروفٌ عني

أنكَ فِيَّ كأني

معروفٌ عنكَ

أني منكَ إليكَ

أحبُّكَ شئتَ

أبيتَ

أرَضتَ

سموتَ

لأنكَ أني

وأني ذاتكَ أنتَ»

وطلبت منه أن يأتي إليها في الجامعة يحضر البروفات، يمرِّن صوته قليلًا، وبعد ذلكَ يتناقشان في الأمر. كانت «رشا» في الفصل الجامعيِّ الأخير، ولكنها تحاول أن توفِّق ما بين أنشطة «تصوُّف» والتحصيل العلمي، وتعمل جاهدةً أن تمتدَّ حياة «تصوُّف» فيما بعد الجامعة، زمانًا ومكانًا، لذا سعت لاكتساب عضوية من «جامعة السودان» كلية الموسيقى والدراما. شاباتٌ وشبابٌ موهوبون ولهم ثقافة موسيقية معقولة، ولكن خبراتهم في العمل والأداء الجماعيِّ محدودة، لذا كانت تكثر من البروفات وتقضي معظم وقت فراغها بينهم على مسرح الجامعة أو على شاطئ النيل، في تمارين صوتية مفتوحة، ومحاولة لاكتشاف ودراسة نقاط التلاقي والتضادِّ بين طبقات الأصوات المختلفة للمجموعة، وتوفيقها أو «هرمنتها» Harmonizing.

قال إنه سيحضر معه أخاه الصغير «فراج». أخته «ميرم» قامت بالتطوع بمدِّه بمعلومات عن «رشا»، كانت في مجملها معلوماتٍ سلبية، وهي تشير بوضوحٍ لوجهة نظرها في مسألة زواجه من «رشا». كانت ترى أن «رشا» لا تناسبه، فهي كبيرةٌ في العمر بالنسبة إليه، من المفترض أن يتزوَّج سيدةً تصغره على الأقل بخمسة عشر سنة كما يفعل الرجال عادة، لأن النساء سريعات النمو، بالتالي يشخن مبكرًا. كما إن «رشا جبريل» تعرف مئات الرجال، على حسب قولها، وأخبرته بصورةٍ خاصَّةٍ عن علاقتها بـ«أدومة» صديق زوجها «أحمد زكي»، واستخدمت لفظةً نابيةً وغير لائقةٍ اجتماعيًّا في وصفها. طلبت منه أن يتركها تختار له عروسًا عندما يكون مستعدًّا لذلك، ولِمَ العجلة وهو ما زال صغيرًا في العمر وأمامه سنوات دراسةٍ طويلةٌ قادمة، ومن الأحسن ألَّا يثقل ظهره بالأطفال والمسئوليات الأسرية، وأضافت: «ستناسبك ابنة وزير ثري، كانت صديقتي في المدرسة الخاصَّة اسمها «سُهى». أبوها وزير متدين وتقي وثري، وهو يمتلك كُلية طبٍّ خاصَّةً ولديه عددٌ كبيرٌ من المستشفيات. بنوتة جميلة ورقيقة وناعمة زي الحرير، وستدرس الطب في «رُوسيا»، وعندما تتخرَّج ستدير أعمال والدها. ماذا تفعل بزولة مثل «رشا»؟ فقيرة وجربانة!»

لن يأخذ كلَّ ما قالته أخته عنها في الحسبان، ولكنه أيضًا لا يلقي به كلَّه جانبًا، فإنه لن يتزوَّجها بين يومٍ وليلة، ستكون هنالكَ فترة خطوبة، وهي قد تطول، وبإمكانهما أن يقرِّرا في شأن أن يتزوَّجا أو ينفصلا. هو يريد أن يرضي أمَّه وأباه الآن، «رشا» في نظره بنت فاضلة وستكون زوجةً مثالية، وكلام أخته قد لا يخلو من الغيرة: «وما فائدة الزواج من ابنة وزير ثري؟ ولدينا نحن من المال الكثير؟»

قالت له «رشا جبريل» إنه بإمكانهما أن يمرَّا على التوأم في البيت بـ«زقلونا» ويأخذانهما معهما، ثمَّ يأتون إليها في الجامعة، ومن ثمَّ

يمضـون إلى المنتـزه العائـلي بـ«المقـرن» وهـو المـكان الـذي تحبُّـه التـوأم ويغـرم بـه «فـراج» غرامًـا شـديدًا.

عندمـا أخـبرت «أدومـة» بـأن هنالـكَ فكـرةً تـدور في رأس العائلتـين بأن يتـمَّ زواجهـا بـ«الـسر فتـح اللـه فـراج»، لم تبـدُ عـلى وجهـه علامـة غـيرة أو أيُّ تعبـيرٍ قـد تفـسِّره بأنـه عـدم رضـا بالخـبر، ولكنـه أبـدى دهشـته مـن كيـف إنهـا سـتتزوّج رجـلًا يعمـل بالأمـن، أليـس هـو الأخ الأكـبر لـ«مـيرم» زوجـة صديقـه «أحمـد زكي»؟ وهـي تدعـو للحريـات والخـير والجـمال. كان جـادًّا بصـورةٍ بالغـة الغرابـة، وقـد عـرف منهـا مـن قبـل أن «الـسر» قـد تـرك العمـل بالأمـن، إلا إنـه علَّـق في حينهـا، بـأن العمـل بمثـل هـذه الهيئـات مـرةً واحـدةً تبقـى للأبـد. مـا كانـت تظـنُّ أنهـا في الحالـة المزاجيـة التـي تمكِّنهـا مـن أن تـشرح لـه مـن هـو «الـسر فتـح اللـه فـراج»، إذا عمـل في الأمـن أو الشرطـة، أو كان مـشردًا في أزقـة «أم درمـان»، أو كان عضـوًا في اللجنـة المركزيـة للحـزب الشـيوعي. ولكـن غاظهـا أكـثر عـدم اكتراثـه لحقيقـة أنهـا سـتتزوَّج غـيره، وهـي حبيبتـه عـلى الأقـل إلى الآن، وتناولـه لقضيـةٍ تعتبرهـا جانبيـةً ومسـألة اختيـارٍ لا غـير. هـي تعـرف أنهـما لـن يتزوَّجـا، وتعـرف لـه رأيًـا متطرفًـا في الـزواج، لقـد قـال لهـا ذات مـرة: «إذا كان هنالـكَ عـدوَّان للـروائي فهـما: الـزواج والwriter's block.» ولكنهـا مـا كانـت تظـنُّ أن الخـبر يمـرُّ بهـذا الـبرود، كانـت تفضِّـل معركـةً صغـيرةً تافهـة، عـلى القبـول بالأمـر الواقـع، كتلـكَ المعـارك المشـكوك في جديتهـا التـي عـادة مـا يفتعلهـا «أدومـة» معهـا عندمـا يحـسُّ بـأن رجـلًا مـا يقـترب منهـا، ليسـت تافهـةً تمامًـا ولكنهـا قـذرةٌ وتـدلُّ عـلى الغـيرة الممزوجـة بالشـكِّ والأنانيـة، وهـي عـلى كلٍّ تفضِّلهـا عـلى الصمـت وادعـاء أن الأمـر لا يهـمُّ مـن قريـبٍ أو بعيـد. في الحقيقـة، بـدأ الارتيـاب يـدبُّ في أوصالهـا عـن حقيقـة الحـبِّ الـذي بينهـما، أيُّ نـوعٍ مـن الحـبِّ هـذا؟ أجابَتْـه بجملـةٍ قصـيرة: «النـاس تختلـف يـا أدومـة.»

عرَّفَتْه للمرة الأولى بـ«أدومة»، هما يعرفان أحدهما الآخر من خلال أصدقاء مشتركين مثل «أحمد زكي» وآخرين، كما إن «السر» قد شاهد صورة «أدومة» في بعض الصحف السيارة، ربما منذ سنةٍ مضت. لم يقرأ له شيئًا يُذكر، ولا حتى الموضوع الذي عليه صورته، فهو ما كان يهتمُّ بأمور الأدب والثقافة، كما إنه لم يصادف أن كُلِّف بعملٍ وسط المثقفين، فقد كانوا يستخدمون المثقفين أنفسهم في الوشاية بزملائهم المثقفين، فهم أقدر على قراءة نيات بعضهم البعض وتفسيرها تفسيرًا صائبًا يقود إلى اغتيالٍ أو اعتقالٍ مُبَرَّرٍ ومدعومٍ بالأدلة الدامغة.

«أدومة» قابل التوأم من قبل في «زقلونا»، تعرَّفتا عليه اليوم بسهولة. حملهما على كتفيه في آنٍ واحد، كلًّا على ذراع، فقد كانتا نحيفتين وسعيدتين. عندما وضعهما على الأرض حمل «فراج» وأنزله بهدوء، وهي طريقته في تحية الأطفال ذوي الأحجام الصغيرة. استأذن الجميع. ركبوا حافلة من أمام «جامعة الخرطوم» إلى منتزه «المقرن». مضى هو نحو المركز الثقافيِّ الألمانيِّ ماشيًا على قدميه، كان يردِّد نصًّا قد ارتجله للتو:

«المرأةُ مثلُ الريحِ،

إذا أطلقتَها ذابتْ في ريحٍ أعظمَ وتركتكَ بغيرِ هواء،

وأنا بغيرِ البنتِ لا أسوى فقاعة،

والمرأةُ دوني تسوى جوقةَ أشجارِ الغاباتِ وصحراءَ الملكوتِ الأعظم.

المرأةُ غيري نصفُ إله،

والنصفُ الآخرُ: بَحْرٌ.»

ذُكِرَ في الإنجيل أن الحقيقة تطلقكَ حُرًّا. للمرَّة الأولى يكتشفان أن الحاجز بينهما كان كبيرًا وثقيلًا جدًّا، بل أحسَّا بأنهما غريبان عن بعضهما البعض عاطفيًّا بصورةٍ لم تخطر ببال أحدهما. مرَّ «السر»

بمواقـفَ كثـيرةٍ عصيبـةٍ في حياتـه، ولكنـه تجاوزهـا بنجـاح، لم يكـن كـما تظـنُّ أمُّـه أو تظـنُّ «رشـا» أو الـراوي الـذي قـال في مـكانٍ مـا إنـه ليـس للـسر علاقـاتٌ بالنسـاء أو تجـارب في الحيـاة ثريـة، أو ربمـا إنـه اسـتطاع أن يخفـي ذلـكَ الجانـب مـن حياتـه بصـورةٍ طيبـة، ولكـن تظـلُّ تلـكَ التجارب باهتـة، وليـس هنالـكَ مـا هـو مميـزٌ أو بـاقٍ أو له أهميـة سردية.
كان اللقـاء بينهـما لقـاءً حاسـمًا ونهائيًّـا، وهـو لقـاء المصـير فيـما يخـصُّ مسـتقبلهما معًـا. انتهـى كلُّ شيءٍ بـأسرع مـمَّا كانـا يتصـوَّران، انتهـى إلى بوابـةٍ لا تفـضي إلَّا إلى لا شيء. عـلى الرغـم مـن أن «الـسر» مـا كان مسـتعدًّا لهـذه النتيجـة ولا هـي أيضًـا، فـإن «الـسر» يظـنُّ أن «رشـا جبريـل» قـد قبلـت بـه فعـلًا، ولا يجـد تفسـيرًا لقبولهـا الخطوبـة في الأصـل، واسـتقبالها للخاطبـات، ولكنهـا قالـت لـه إنهـا كانـت تحـاول أن تقنـع نفسـها بـأن الأمـر يمكـن أن يحـدث، كـما إن أمَّهـا وأمَّـه كانتـا متحمِّسـتين للأمـر، وإن أمَّـه بالـذات تعتـبر تلـكَ معركـة حياتهـا. كان الإصرار قويًّـا وعنيفًـا وكاسـحًا، ولم يـترك لهـا مسـاحة غـير أن تقبـل بالخطوبـة، والخطوبـة ليسـت هـي الـزواج، إنمـا فـترة للتفكـير والمراجعـة، وكان هـذا هـو شرطهـا وقبلـت بـه أمُّـه وأمُّهـا. وكانـت «رشـا» تفكِّـر بعمـقٍ طـوال تلـكَ الفـترة، ولكنهـا لم تسـتطع أن تتخيَّـل نفسـها زوجـةً لـه.

- مستحيل، نحن أخوان وحنظلّ أخوان!

نعـم، فهـم «الـسر» هـذه الجملـة جيِّـدًا، بمعنـى: إننـي لا أحبُّـك. وهـو لا يلومهـا، فهـو أيضًـا لا يحبُّهـا، ولكنـه يرغـب فيهـا أن تصبـح زوجـةً لـه لصفاتهـا الطيبـة، ومـن أجـل إصرار أمِّـه الغريـب عـلى الأمـر، يريـد أن يحقِّـق لأمِّـه إحـدى أمنياتهـا، ويعـرف أن الحـبَّ قـد يـأتي بعـد الـزواج أيضًـا. هـل لأنهـا تحـب شخصًـا آخـر؟ هـل رفضتـه مـن أجـل «أدومـة» أو غـيره! لم يبحـث كثـيرًا في الإجابـات، ولكنـه بـدا غريبًـا جـدًّا أمامهـا عندمـا أصرَّ قائـلًا:

- سنتزوَّج يا «رشا»! سأتزوَّجكِ أنا متأكد.

كانت قد فوجئت به تمامًا؛ لم يكن هذا هو «السر» الذي تعرفه، تحدَّث بعنفٍ وبصورةٍ بشعة، بطريقةٍ أقرب للأوامر العسكرية. فكَّر في أنها في الحقيقة لم تعرفه جيِّدًا، أو لم تعرف أن له شخصيةً أخرى. أم إنه يحبُّها فعلًا، وليست تلكَ إلَّا ثورة الغيرة وعلامة تعبِّر عن رفضها له؟ أم إن «السر» عندما ترك الجندية كوظيفةٍ أصبح جنديًّا في روحه، وانمسخت نفسه الطيبة الجميلة إلى آلة أوامر؟ ردَّت وهي تحملق فيه:

- ما فهمتك!

- قلت ليك ح نتزوَّج وبس.

- يعني بالقوة والرجالة مثلًا؟

قال وفي فمه ابتسامةٌ تثير الشفقة:

- ما عارف!

هل كانت تلك آخر مرة يلتقيان فيها، لا بالطبع، فقد حضرت زواجه بعد عامين من «سُهى» ابنة الوزير الثري، التي طلَّقها بعد أن أنجب منها طفلًا أطلق عليه اسم المرحوم والده «فتح الله فراج» وسافر إلى دولةٍ عربيةٍ ثريةٍ في هجرةٍ نهائيةٍ لم يعد منها مرةً أخرى للسودان، فبعد تلك الحادثة الغريبة التي ستُحكى في الفصل القادم، أحسَّ «السر» بأن عليه ديونًا كثيرةً سيقوم بسدادها، وخطايا شاسعاتٍ عليه تكفيرها، وأن تلك كانت بداية؛ فالمرة الأخيرة التي شاهدته «رشا» فيها بعد زواجه، كانت في يوم زواجها هي في «جُوبا» يوم استقلال الجنوب.

حِكَايَةُ السِّر

حـدث شيءٌ هـزَّ قناعتـه مـن العمـق وغـيَّر نظرتـه في أشـياء كثـيرة، وربمـا غـيَّر مجـرى حياتـه للأبـد. مثـل تلـك الـشِّراك الحياتيـة التـي مـا إن يقـع فيهـا الإنسـان إلا ولا يعـود هـو ذات الشـخص الـذي كانـه مـن قبـل. اللحظـة الفاصلـة الكائنـة مـا بـين ذلـك الشـخص وبينـه، ولكنـه لا يميِّزهـا إلا بتضافـر إرادة نجـم النحـس ونجـم السـعد في ذات مـدار الوجـود الخـاصِّ بالكائـن. مثـل لعبـة رمـي الـنرد.

كعـادة حـدوث الأشـياء في هـذه الأسرة، فـإن خالـه هـو الـذي دبَّـر لـه السـفر إلى الدولـة العربيـة الثريـة للعمـل ضمـن موظفي السـفارة في قسـم الملحـق العسـكري ضابطًـا للأمـن. حيـث بـدا واضحًـا أن العسـكرية قـد أفسـدت طبيعـة «الـسر» وأنـه لا ينفـع في الدراسـة، والسـبيل إلى نجدتـه هـو أن يعـود إلى الجنديـة مـرةً أخـرى. فليكُـنْ في وظيفـةٍ أمنيـةٍ أكـثر نعومـة، في بـلادٍ لا حـروب فيهـا ولا مخاطـر تهـدِّد الحيـاة. حـدث ذلـك بـكلِّ سـهولةٍ ويـسر، بطلـبٍ عـبر التليفـون تـم إنهـاء خدمـة ضابـط الأمـن السـابق الـذي قـد انتهـت صلاحيتـه تمامًـا بعـد أن أُقِيـل الوزيـر الـذي كان قـد رشَّـحه للعمـل بالسـفارة قبـل سـبع سـنوات وانضـمَّ لصـفِّ المعارضـة. ففقـد الضابـط المسـكين في لحظـةٍ خاطفـة، كلَّ مؤهِّلاتـه لشَـغل الوظيفـة الطيبـة الحلـوب. ومسـألة إحالتـه للمعـاش كانـت رهـان وقـتٍ ليـس إلا. ولم يكـن هـو مسـتغربًا ذلـك، بـل العكـس، كان يـرى أن الأمـر طبيعـيٌّ جـدًّا وهـو ينتظـر بديلـه ليسـلِّمه المَهـام، ويبحـث هـو عـن عمـلٍ آخـر في ذات الدولـة العربيـة، فأثنـاء عملـة بالسـفارة أنشـأ قاعـدة صداقـاتٍ ومعـارفَ جيـدةً يمكنـه الآن اسـتثمارها مـن أجـل الحصـول عـلى وظيفـةٍ جديـدة: ليـس حاقـدًا أو كارهًـا أو حزينًـا، فالـدوام للـه وحـده.

أمَّـا في حالـة «الـسر» فـإن الوظيفـة تناسـبه تمامًـا، بـل مفصَّلـة عـلى مقاسـه، فهـو قـد عمـل في الأمـن والعسـكرية منـذ طفولتـه، في أماكـن تشـتعل فيهـا الحـروب، وعمـل أيضًـا في الخرطـوم بـين الطـلاب والعـمال والمثقفـين، وعمـل أيضًـا في الجزيـرة وسـط المزارعـين والعاطلـين عـن العمل والشـيوعيين الناقمـين عـلى كلِّ شيءٍ حتـى أنفسـهم. ولديـه خـبرة جيـدة في معرفـة نيَّـات البـشر وكشـف مـا سـيقومون بـه ومـا يبطنـون مـن شرٍّ أو خـير الأعـمال. ولكـن، يظـلُّ المؤهِّـل الأكـبر والأكـثر رسـوخًا وعلـمًا ومنطقًـا هـو أن خالـه مـا زال يعمـل في مكتـب الرئيـس كأقـرب شـخصيةٍ مـن سـيادته؛ الشـخصية التـي يرتـاح لهـا جلالـة الحاكـم نفسـيًّا ويصبـح بـين ظهرانيهـا كـما لـو أنـه مع نفسـه، حيـث لا يشـعر بالحـرج مـن أن يتجـوَّل

في لباسه الداخليِّ ويطلق بعض ضرطات في الهواء، أو ينام مع إحدى زوجاته في الغرفة الأخرى تاركًا بابها مفتوحًا أو مواربًا؛ أي الشخصية التي يسقط في حضورها كلُّ البروتوكولات الرسمية والأمنية والاجتماعية والشخصية، وأحجبة المكان والزمان.

لم ينسَ «السر» «سُهى» وولده «فتح الله»؛ فهو يحبُّ ولده وأيضًا يحبُّ زوجته، إلا إن إصرار زوجته على حُريَّتها المُطلقة هو الحجاب السميك الذي لم يستطع تجاوزه. فقد اعتادت أن تكون حرةً في بيت أبيها الوزير الثري. نعم يحدث ذلك دائمًا دون علمه ووراء ظهره، ولكنها كانت تجد المكان والزمان الخاصَّيْن اللذين تمارس فيهما حريَّتها، ولكن وجود «السر» الدائم معها في ذات البيت، وحيث إنها لا تعمل أيضًا (جمَّدت دراسة الطبِّ في ماليزيا بعدما حبلت ببنتها) و«السر» يرغب في زوجةٍ أكثر تقليدية؛ أي امرأة تهب حياتها له وللبيت وليس لنفسها، وهذا لم يكن ممكنًا في حالة زوجته «سُهى» فهي لا ترغب في زوج — على حسب تعبيرها — يكتم نفسها. وعندما طلب منها أن تسافر معه للدولة العربية، قالت له بصورةٍ واضحة: «أنا خُلقتُ لأحيا في السودان.»

وفهم أنها تختار حريَّتها، ولم يستطع مقاومة رغبته في الابتعاد عن السودان، منذ أن فشل مع «رشا» قبل بضعة أعوام. كان يريد أن يذهب لأيَّة بقعةٍ أخرى في العالم؛ فوجد اقتراح خاله جيِّدًا ومعقولًا. وهو الآن يعمل في السفارة بجهدٍ وبحبٍّ ويحاول أن يقدِّم خير ما عنده. أوَّلًا: يريد ألَّا يخذل خاله، وثانيًا: هو يحبُّ العمل الأمنيَّ، كما إنه ليست لديه خلافاتٌ سياسيةٌ مع الحزب الحاكم، بل في كثيرٍ من الأحيان يعتبره هو الخيار الأمثل لحكم السودان، نسبةً للمسحة الإسلامية فيه وهي توافق هواه كثيرًا، ويرى أن تلك الإخفاقات الصغيرة في النواحي الاقتصادية والاجتماعية، ليست سوى معضلاتٍ

متوارثـةٍ مـن أنظمـة الحكـم في السـودان منـذ الاسـتقلال، ولـو أنـه لم يجـد مـبرِّرًا كافيًـا للقسـوة القصـوى التـي تتعامـل بهـا السُـلطة عـلى الأرض مـع المواطنــين في مواقــع القتــال، إلا إن للحــرب منطقهــا كــما علَّمــه قادتــه العســكريون.

حــدث شيءٌ هــزَّ قناعتــه مــن العمــق وغــيَّر نظرتــه في أشــياء كثــيرة، وربمــا غــيَّر مجــرى حياتــه للأبــد. مثــل تلــك الــشِّراك الحياتيــة التــي مــا إن يقــع فيهــا الإنســان إلا ولا يعــود هــو ذات الشــخص الــذي كانــه مــن قبــل. اللحظــة الفاصلــة الكائنــة مــا بــين ذلــك الشــخص وبينــه، ولكنــه لا يميِّزهــا إلا بتضافــر إرادة نجــم النحــس ونجــم السـعد في ذات مــدار الوجــود الخــاصِّ بالكائــن. مثــل لعبــة رمــي الــنرد. طلــب منــه خالــه أن يقــوم بعمــلٍ سريٍّ للغايــة ومهــم، وهــو أيضًــا شــخصي. في الواقــع كان عمــلًا أمنيًّــا روتينيًّا، وهــو أن يأخــذ نُســخةً مــن مفتــاح شــقةٍ يمتلكهــا أحــد الدبلوماســيين الكبــار بالســفارة، غــير مُعلــنٍ عنهــا؛ أيْ شــقةٍ سريــةٍ مــن المفــترض ألَّا يعلــم بموقعهــا أحــد، وهــذا ليــس عمــلًا صعبًــا أو مُعقَّــدًا لرجــلٍ عمــل حياتــه كُلَّهــا في التجسُّــس عــلى الآخريــن وفحــص نيَّاتهــم. اســتغرق منــه العمــل قرابــة الشــهرين، ثــمَّ أخــبر خالــه بأنــه فعــل ذلــك، وتعــرَّف عــلى موقــع الشــقة، بــل مــرَّ أمامهــا مرتــين دون علــم أيٍّ كان: «فــماذا تريــد منــي أن أفعــل بعــد ذلــك؟»

حسـنًا، يوجـد تمثـالٌ نـوبيٌّ قديـمٌ صغـيرُ الحجـم مـن البرونـز، في مـكانٍ مـا في شـقة هـذا الدبلومـاسي، عليـه أخـذه والاحتفـاظ بـه في مـكانٍ آمـنٍ إلى حـين إخطـارٍ آخـر. في اتصـالٍ مـن خالـه بعـد أيـامٍ قلائـل، عـرف أن الدبلومـاسيَّ سيسـافر في تاريـخٍ محـدد، وعليـه أن يذهـب في ذلـك اليـوم بالـذات لأخـذ التمثـال.

لم يجـد التمثـال، بحـث في كلِّ مـكانٍ بالشـقة، ولم توجـد خزنـةٌ مغلقـة، كانـت الشـقة بسـيطةً جـدًّا، ولـو أنهـا نظيفـةٌ وبهـا حجـرة نـومٍ واحـدة،

ومطبـخٌ صغـيرٌ وحـمام، ليـس بهـا مخـزن، وغرفـة المعيشـة ملحقـةٌ بالمطبخ. تبـدو الشـقة الصغـيرة كـما لـو أنهـا غرفـة عمليـاتٍ سريـةٍ خاصَّـةٍ جـدًّا. عـلى كلٍّ هـي لا تليـق بدبلومـاسيٍّ رفيـع المسـتوى كسـكن أو حتـى مجـرَّد غرفـة راحـةٍ بعيـدةٍ عـن ضوضـاء العمـل وزحمتـه اليوميـة. يمكـن أن يحصـل عـلى واحـدةٍ أكـثر جـمالًا وسريـة.

كرجـل أمـنٍ كان حريصًـا جـدًّا عـلى أن يخفـي أثـره، وأن يصـوِّر بكامـيرا جوَّالـه كلَّ بقعـةٍ قبـل فحصهـا، حتـى يعيدهـا بعـد الفحـص إلى حالهـا كـما كانـت قبلـه دون أيِّـة أخطـاء. ولم ينـسَ أن يضـع قفـازاتٍ مـن القـماش في كفَّتيـه، وأن يلبـس حـذاءً غـير بـارز السـطح ولا يـترك أثـرًا. وظـلَّ مـا يقـارب السـاعتين في البحـث وإعـادة البحـث، حيـث إن الشـقة كانـت صغـيرةً ويمكـن ضبطهـا والعمـل فيهـا بسـهولةٍ وبدقَّـةٍ وترتيـب. وكان في كامـل الأهبـة للعمـل حتـى الحصـول عـلى التمثـال، لأن خالـه لا يمكـن أن يعطيـه معلومـةً خاطئـة، فهـو يؤمـن بينـه وبـين نفسـه أن خطـأ خالـه هـو أيضًـا صـواب. ولكنـه فجـأةً أحـسَّ بـأن هنالـكَ خطـأً مـا، عندمـا سـمع خُطًـى تقـترب مـن البـاب حـوالي التاسـعة مسـاءً، وكان حينهـا في غُرفـة النـوم، وبحسِّـه الأمنـيِّ وبرشـاقةٍ لم يفكِّـر كثـيرًا في مـا سـيقوم بـه، حيـث إنـه أدخـل جسـده كلَّـه تحـت السريـر الضخـم، وصَمَـتْ.

كانـا رجلـين. اسـتطاع أن يميِّـز صـوت الدبلومـاسيِّ الـذي كان يجـب أن يكـون في هـذه اللحظـة في جزيـرة «كريـت» باليونـان. فخالـه لا يخطـئ. الآخـر أيضًـا سـودانيٌّ تعـرَّف عـلى لكنتـه العربيـة، ولكنـه لم يتعـرَّف عـلى شـخصيته، حيـث لم يكـن صوتـه مُعتـادًا. يتحدَّثـان بصـورةٍ متواصلـةٍ ويضحـكان بأعـلى مـا لديهـما مـن صـوت. يـدور الموضـوع حـول شـخصٍ وصفـاه بـ«الأهبـل الأكـبر أبـو ريالـة»، وكان ذلـك الرجـل في زيـارةٍ للدولـة التـي يقيـمان فيهـا قبـل أسـبوع. واسـتطاع «الـسر» أن يتعـرَّف عـلى الرجل موضـوع نقـاش الرجلـين؛ مـمَّا جعلـه يضحـك بصـورةٍ مكتومـة، فقـد كان

وصفهما له دقيقًا جدًّا. والغريب في الأمر أن الدبلوماسيَّ كان في صحبته طوال فترة زيارته، وهما في ذات الحزب السياسيِّ الحاكم، وأنه تحدَّث عن الرجل في اجتماعٍ خاصٍّ بالسفارة واضعًا إيَّاه في مرتبة صحابة الرسول، بل إن المهامَّ التي يقوم بها الرجل لم يمتحن الله بها رسوله وصحابته في الماضي، نسبةً لتعقُّد أمور الحياة الآن، ولكلِّ زمانٍ رجاله: «وأنت رجل هذا الزمان!»

ثم أصبحا جادَّين وهما يتحدَّثان عن «الصنمين» البرونزيين اللذين أحضرهما معه الشيخ «أبو ريالة»، وكيف إنه يريد سعرًا خاصًّا له وسعرًا آخرَ للشركاء بالخرطوم، ولكنهما اتفقا على أن يضعا الشحنة الأخيرة مع التمثال المتبقي من الشحنات السابقات، وأنهما سيحتفظان بالنقود كلِّها مناصفةً بينهما، وأنَّ: من لديه الجرأة فليقم بتقديم شكوى ضدَّهما.

وبدا واضحًا أن الذي في صُحبة الدبلوماسيِّ هو وسيطٌ لبيع الآثار التي يتمُّ تهريبها عن طريق الحقيبة الدبلوماسية من داخل السودان وربما من المتحف القومي الذي سمع أحدهما قد أشار إليه في حديثه، ويتمُّ بيعها في هذه الدولة عن طريق وسطاء. ثمَّ سمع صليل بعض الزجاجات، ووصله شميم الويسكي، ومن ثمَّ أخذ الدبلوماسيُّ يعزف على عودٍ كان قد شاهده «السر» في حجرة النوم، وأخذا يغنِّيان. إلى أن بُحَّت أصواتهما. وأصبحا يتحدَّثان بلسانين ثقيلين. ثمَّ توقَّف الغناء. وظنَّ «السر» أنهما ناما، لولا أن السرير الذي يرقد هو تحته وهُما عليه، أخذ يهتزُّ بصورةٍ مريبةٍ هابطًا وصاعدًا. ثمَّ سمع ما لا يشكُّ في أنه همسات مضاجعةٍ بين شخصين بالغين، واستمرَّ الحال لفترةٍ من الزمن كانت طويلةً نسبيًّا. ثمَّ اختفى كلُّ شيءٍ تدريجيًّا، وبعد قليلٍ سمع شخيرهما عاليًا، فخرج ببطءٍ من تحت السرير، ليجد زجاجات الويسكي الفارغة، والعود مرميًّا على الأرض، وبقية المزة على المنضدة.

كما إنه قد شاهد ثلاثة تماثيل على الأرض أيضًا. كانا عاريين، ويحضن الدبلوماسيُّ الرجل الآخر الذي يعطيه ظهره وهما نائمان ويشخران، كانا سمينين وشحيمين.

لا يدرى لِمَ تذكَّر في هذه اللحظة أشياء كان قد شاهدها في ميدان القتال: الأطفال المشويين، قنابل الأنتنوف البرميلية، الطود وهو يصرخ. مرَّ على مخيلته القائد وهو يحمِّس جنوده ويحثُّهم على قتل الكفار المتمردين، من أجل دولة الإسلام والدين. الجنود زملاؤه وهم يموتون. لا يدرى لِمَ تذكَّر مئات الثوار من يساريين ويمينيين وطلابٍ ومزارعين قد وشى بهم هو نفسه عندما كان يعمل في الأمن، وبعضهم تمَّت تصفيته. كان يحسُّ برأسه يدور في رعب، وآلاف العيون تنظر إليه تحملق في وجهه.

جلس على الكرسيِّ قبالتهما. صبَّ لنفسه كأسًا كبيرة من الويسكي. اجترعها بهدوء. أخرج جوَّاله وصوَّرهما عدة صورٍ بدمٍ باردٍ وتروٍّ. أرسل الصور إلى بريده الإلكتروني. نهض ومشى نحو الباب. كاد أن يخرج من الحجرة، أخذ التماثيل الثلاثة، قرَّر بينه وبين نفسه أنه سيعيدها للمتحف القوميِّ في اليوم الذي تكون فيه حكومةٌ وطنيةٌ تحترم تاريخ وإرث البلد، ولكن ليس قبل ذلك، لأنه يخشى أن ترجع التماثيل مرةً أخرى إلى السوق إذا أعادها الآن.

وهو خارجٌ تذكَّر شيئًا أو إنه انتبه إلى شيء؛ فعاد أدراجه في هدوء. ذهب نحو المطبخ. حرَّر أنبوبة الغاز من الموقد وفتحها بكامل طاقتها. حملها باهتمامٍ بالغٍ وبسرعة. أدخلها غرفة النوم. أغلق المكيِّف. ثمَّ خرج وهو يغلق الباب خلفه.

كان«السر» ضمن المجموعة الأمنية التي وجدت الجثتين، وكانت تتكوَّن من شرطة مباحث البلد الذي هم فيه، ومبعوث السفارة مع الملحق العسكري وعربة إسعاف. حدث ذلك بعد ثلاثة أيام من

اليوم الذي مات فيه الرجلان مخنوقين بالغاز. حيث لُوحظ اختفاء الدبلوماسيِّ متأخرًا جدًّا، فقد سافر بالفعل، ولكنه رجع في نفس اليوم دون علم أحدٍ ليقضيَ إجازته في خلوته. واتضح لفريق المباحث بعد التحرِّي أنه دائمًا ما كان يفعلُ ذلك، وبيَّن الطبيبُ الشرعيُّ أن الرجلين كانا عشيقين، وقد سالت بينهما مياهٌ ذكوريةٌ كثيرة. تمَّ قفل الملف بكلِّ هدوءٍ بطلبٍ من حكومة السودان وأسرتَيِ المرحومين: فإكرام الميت دفنه وقصَّةِ موته معًا.

سِفْرُ الْبَيْت

بنظـرةٍ متفحِّصـةٍ لهـذا البيـت الهـادئ السـاكن مـن الخـارج، تتضـح أمـورٌ أخـرى ذات أهميـةٍ يُقـدَّر حجمُهـا وفقًـا لزاويـة النظـر إليهـا، فبالعـض يسـكن عنـد الزاويـة العميـاء، وعندهـا تكـون الرؤيـة متفائلـةً لأن وقوفـه في ذلـك الموضـع يعطـي وجهـه وعقلـه للضـوء، وبذلـك يمتلـك الـروح التـي تـرى. والبعـض ينظـر إليهـا مـن الزاويـة المبـصرة، وهـذا أيضًـا يكـون مصابًـا بـداء التفـاؤل، عندمـا يعطـي ظهـره للضـوء مكتفيًـا بعلاقـةٍ موهومـةٍ بالظـل، فتتلبَّسـه روح النـور. أمَّـا الذيـن ينظـرون للأمـر وهـم في الزاويـة العمشـاء التـي مـا بـين الظـلِّ والضـوء، فإنهـم لا يـرون الظـلَّ ولا يـرون الضـوء، بـل أكثرهـم لا يـرى الزاويـة نفسـها. إذن علينـا سرد مـا في البيـت، حتـى تكتمـل صـورة الفـراغ المسـكون بالبـشر مـن أركان البيـت الأربعـة: الأمُّ والأطفـال الثلاثـة «أحمـد زكي»، و«سُـهى»، و«مـيرم».

بعد مغادرة «السر فتح الله فراج» إلى بلدةٍ عربيةٍ ثرية، في رحلةٍ أطلق عليها صفة «الأخيرة»، أو رحلة اللاعودة، وكان والده «فتح الله فراج» قبل ذلك قد غادر إلى ما يُشبه الدار الآخرة، وهي أيضًا رحلةٌ في اتجاهٍ واحدٍ تأخذ المسافر إلى مصيرٍ لا إرادة له في تغييره، وليست به خيارات، وتستحيل إدارته ذاتيًا، حين مضى إلى استراحة انتظار الملوك في جزيرة «ناوا». بقي في البيت الكبير ثلاثة أسر، إذا اعتبرنا أن الأمَّ والصغير «فراج» أسرةٌ قائمةٌ بذاتها، وهما يشغلان الطابق الأرضي، ثم «زكي» وزوجته «ميرم» وهما يحتلان الطابق الأوسط، وزوجة «السر» أو طليقته وطفلها «فتح الله السر» وهما يقيمان في الطابق الأعلى. وعلينا أن نوضِّح أيضًا أن «سُهى» زوجة «السر» رفضت دعوة والدها لها بالعودة إلى قصره المُنيف الذي لا يبعد كثيرًا عن بيت أسرة فراج، وذلك بعدما تم انفصالها عن «السر»، حيث إن العلاقة الطيبة والمتينة ما بين «ميرم» و«سُهى» أجبرتهما على أن تظلَّا قريبتين من بعضهما البعض، وأن تبقى «سُهى» في شقة طليقها «السر فتح الله» هي وطفلها، وقبلت الأمُّ بل كانت تفضِّل أن تبقى «سُهى» بطفلها قريبةً منها، نسبةً لمحبَّتها لطفل ابنها ورغبتها في أن ينمو تحت يدها وبرعايتها، وكان الطفل يقيم معها بصورةٍ شبه دائمة، ومعها طفل ابنتها الذي يكبر «فتح الله» بسنةٍ تقريبًا، و«فراج فتح الله» ابنها الذي أصبح طويلًا وبدأ ينضج ويخلق العوالم التي تخصُّه، تاركًا أمَّه للطفلين الصغيرين الشقيين يؤنسان وحدة الجدة ويسامرانها.

بنظرةٍ متفحِّصةٍ لهذا البيت الهادئ الساكن من الخارج، تتضح أمورٌ أخرى ذات أهميةٍ يُقدَّر حجمُها وفقًا لزاوية النظر إليها، فالبعض يسكن عند الزاوية العمياء، وعندها تكون الرؤية متفائلةً لأن وقوفه في ذلك الموضع يعطي وجهه وعقله للضوء، وبذلك يمتلك الروح التي ترى. والبعض ينظر إليها من الزاوية المبصرة، وهذا أيضًا

يكـون مصابًـا بـداء التفـاؤل، عندمـا يعطـي ظهـره للضـوء مكتفيًـا بعلاقـةٍ موهومـةٍ بالظـل، فتتلبَّسـه روح النـور. أمَّـا الذيـن ينظـرون للأمـر وهـم في الزاويـة العمشـاء التـي مـا بـين الظـلِّ والضـوء، فإنهـم لا يـرون الظـلَّ ولا يـرون الضـوء، بـل أكثرهـم لا يـرى الزاويـة نفسـها. إذن علينـا سرد مـا في البيـت، حتـى تكتمـل صـورة الفـراغ المسـكون بالبـشر مـن أركان البيـت الأربعـة: الأمُّ والأطفـال الثلاثـة «أحمـد زكي»، و«سُـهى»، و«مـيرم».

سـنبدأ بـ«أدومـة»، ولم تكـن فكـرة إدخـال «أدومـة» في هـذا البيـت مـن بنـات أفـكار صديقـه «أحمـد زكي»، ولكنهـا كانـت مـن بنـات إبليـس خاطـر «مـيرم». ولم تمـضِ الخطـة طويـلًا، حيـث إن «سُـهى» اعترضـت عليهـا بجملـةٍ واحـدةٍ بسـيطة: «نعـم، «أدومـة» وسـيم، ولكنـه صغـيرٌ في العمـر.» ويبـدو إنهـا اكتفـت بفشـل علاقتهـا مـع «الـسر» الـذي لم يكـن ناضجًـا بصـورةٍ طيبـةٍ وفقًـا لنظريتهـا الخاصَّـة بالرجـال، فعندهـا الـزوج يجـب أن يكـون رجـلًا وليـس طفـلًا، لأن عليـه أن يتحمَّـل ثـلاث مسـئوليات: إشـباع العقـل، والبطـن، والجسـد. وكان «الـسر» لا يفعـل غـير واحـدة فقـط، وهـي إشـباع الجسـد، وبذلـك يمكـن أن يحـلَّ محلَّـه جهـاز «الفايبريـتر» vibrator الذكـوري. وفي حالـة «أدومـة» قـد يكـون بإمكانـه إشـباع اثنـين: الجسـد والعقـل، وتظـل البطـن فارغـة، فالكُتـاب دائمًـا مـا يكونـون فقـراء، هـذا إذا لم يكـن أيضًـا مصابًـا بعجـزٍ جنـسي، مـن يـدري، في رأيهـا أن اللـواط شـائعٌ في طبقـة المثقفـين، وهـي أيضًـا لا ترغـب في الـزواج مـن هـذه العينـة مـن الرجـال الذيـن يتحدثـون كثـيرًا ولا يفعلـون سـوى القليـل، تحـبُّ الرجـل العمـليَّ الموضوعـيَّ مثـل أبيهـا.

وظلـت هكـذا بـدون زوج، وكان هـذا اختيارهـا المحـض، وعلينـا أن نوضِّـح أنـه لم يتقـدَّم لخطبتهـا شـخصٌ آخـر بعـد طلاقهـا مـن «الـسر فتـح اللـه فـراج»، ربمـا هنالـكَ رهبـةٌ مـا مـن البعـض؛ أيْ إنهـم يخشـون الاقـتراب منهـا نسـبةً لوضعيـة والدهـا الغريبـة المُعقـدة، فهـو سـياسيٌّ

وثـريٌّ وأكاديمـيٌّ ورجـل ديـنٍ في آنٍ واحـد، مـن ذلـك النـوع المُرعـب؛ أيِ الأثريـاء الذيـن تحصَّلـوا عـلى أموالهـم مـن منجـم السياسـة الناهـض عـلى دم الشـعوب؛ أيِ الذيـن لا يمكـن الفصـل بينهـم وبـين الآلـة السـلطوية الحاكمـة، وبذلـك يصبـح أشـبه بمكتـبٍ حُكومـيٍّ سريٍّ، أو عربـةٍ رئاسـيةٍ مصفحـة، أو خزينـة وثائـقٍ عامَّـة، أو خطبـة إسـلامٍ سـياسي. ولكنـه يظـلُّ دائمًـا أبعـد مـن أن يكـون إنسـانًا عاديًّـا: يذهـب للمرحـاض، ويـأكل البصـل، ويـشرب المـاء، ويسـتمع لأغنيـات «عثـمان حسـين»، وتُطلَـب ابنتـه للـزواج.

تختلـف الصديقتـان في فهمهـما للحيـاة، ونظرتهـما للعـالم، وتتفقـان في أشـياء صغـيرة، ولكنهـا كثـيرةٌ ودقيقـةٌ جـدًّا ومهمَّـة مـن أجـل الحيـاة اليوميـة، فـ«سُـهى» عندهـا قدسـية خاصـة لحريتهـا الشـخصية وهـي لا تتنـازل عنهـا مهـما كلَّـف ذلـك، وحسـب تعبيرهـا: «ليـس مـن أجـل رجـل أو أب أو رب.» وهـي النقطـة ذاتهـا التـي مهَّـدت لانفصالهـا الأبـدي عـن زوجهـا «الـسر فتـح اللـه فـراج» الذكـوريِّ المؤمـن. بينـما تـرى «مـيرم» أن حريتهـا الشـخصية بـل حياتهـا كلَّهـا مرتبطـةٌ بـ«أحمـد زكي» وموهوبـة لـه، في حالـةٍ أقـرب للتوحُّـد، وهـي لا تخجـل مـن أن تعلـن مـرارًا وتكـرارًا أنهـا تفعـل كلَّ مـا يطلبـه منهـا «أحمـد زكي»، وقالـت ذات مـرةٍ لأمِّهـا: «إذا كفـر أحمـد زكي باللـه ورسـوله، أنـا برضـو بكفـر بـدون سـؤال.» ولكـن أمَّهـا كانـت تفهـم ذلـك مـن بـاب: «المـرأةُ عـلى ديـنِ بعلِهـا.»

أمَّـا الأشـياء الصغـيرة التـي تجمـع «مـيرم» و«سُـهى»، فهـي حبُّهـما للحيـاة؛ لمتـع الحيـاة الصغـيرة جـدًّا، عشـقهما لمـا تسـمِّيانه التفاهـات والترهـات والضلالات والفسـق النبيـل، وهـو لا يـضرُّ أحـدًا وليـس موجَّهًـا ضـدَّ أحـد ولا يجـب أن يكـون اهتـمام أحـد غيرهـما هـي و«أحمـد زكي». ومـن خـلال علاقـة المرأتـين عـرف «أحمـد زكي» الكثـير عـن زوجتـه «ميرم»؛ عـرف تفاصيـل كانـت غائبـةً عنـه، تفاصيـل عـن حياتهـا السريـة، والعلنيـة

أيضًا. سوف لن نخوض في ذلك كثيرًا، فللأسرار حُرمتها، ولكن كان على المرأتين أن تخبرا «أحمد زكي» ببعض الحقائق لكي تستمرَّ أشياؤهما الصغيرةُ صغيرةً وباقية. وإذا أمكن أيضًا، سيكون هو جزءًا مهمًّا من هذه الأشياء، فلقد كان في يومٍ ما هو أحد الموضوعات الصغيرة للبنتين، عندما كانتا في المدرسة الثانوية الخاصَّة في ذلك الحين. ذات يومٍ فاجأنه بسرِّهن، حدث ذلك في الأسبوع الأوَّل لطلاق «سُهى» من «السر» ومغادرته إلى حيث يقيم، حيث كان يصعب ذلك مع وجود «السر فتح الله» في حياتهما؛ لقد وصفتاه في مراتٍ كثيرةٍ بـ«المتطرف الموهوم».

لم يكن الأمر مفاجئًا لهما؛ أن يتقبل «أحمد زكي» كل شيء، بل قال لهما إنه كان قد لاحظ بعض الأشياء. حسنًا، منذ ذلك اليوم تغيَّرت عادات الأسرة؛ أولًا صارت الأسرتان تقريبًا أسرة واحدة في برامجها المسائية، حيث إنهم، بعدما يرسلون الأطفال إلى الجدة «نصرة»، يبدؤون برامج المساء، وهي برامج أشبه ببرامج بيوت «العزابة» الأثرياء، يضعون فيلمًا جديدًا في الـ«بروجكتر»، ويعرضونه على حائط في الحجرة، ثم قاموا بتهيئة شاشة كبيرة جيِّدة، حيث إن المرأتين تحبَّان السينما، ويحبُّها لحدٍّ ما «أحمد زكي»، ولكن الذي يحبُّه «أحمد» أكثر، هو برامج الشرب، بجهاز استولت عليه «سُهى»، وكان قد استورده أحد شغيلة والدها، لتقطير الخمور في المعامل للإغراض العلمية بإحدى جامعاته. ربما بعلم والدها وإغاضئه النظر، فالبنت ذات شخصيةٍ قويةٍ وتفعل ما تشاء، ويفضِّل والدها تجنُّب معركةٍ خاسرةٍ معها، أو ذلك بغير علمه، وتصرف فردي من شخصٍ يعرف كيف يأخذ ثمن الجهاز من والدها بصورةٍ أو بأخرى. المهم في الأمر إنها تصنع الآن عرقًا من التمر أو بعض الفاكهة ذا جودةٍ عالية، في شقتها، والأهم إنه يعجب «أحمد زكي» وأراحه كثيرًا من المغامرات

الليلية في الأحياء الشعبية البعيدة، وتعريض نفسه للشرطة أو بعض المخاطر غير المتوقعة التي يقوم بها السُّكارى، وخلَّصه من العرق الرديء الصنع المخلوط في غالب الأحيان بمواد ضارة بالصحة. وما يعجبه جدًّا، تلك الفضيلة الفاسقة الأخرى، وربما كانت في بادئ الأمر مفاجأةً صادمةً له، وهي أن المرأتين تدخِّنان البنقو، يوفِّره لهما سائقٌ كان في المدرسة التي التقيتا فيها، تدعوانه «بشبش الرهيب». حسنًا، طالما كلُّ شيءٍ يحدث في بيته وفي سريةٍ تامَّةٍ وكانتا لا تضرَّان أحدًا، بل تصبحان كراهبتين في صلاةٍ وتامل، كما إن «ميرم» وهي مسطولة تصبح هادئةً وقليلة الكلام، ويعجبه ذلك بالتأكيد. الفصل الذي يكرهه جدًّا هو الفصل الذي يلي هذه الحفلة الأسرية الخاصَّة، عندما يحين وقت الذهاب إلى غرف النوم، وهو فصلٌ لا يمكن تجنُّبه، إطلاقا، ولا بدَّ له أن يحدث، حيث تبقى «سُهى» وحيدة، تشغِّل موسيقى راقصة، ولكنها لا تهتزُّ طربًا، بل تبقى في صلاتها، منكفئة الرأس، وكان يظن إنها تبكي، إلا إن «ميرم» قالت له إن «سُهى» لا تبكي أبدًا، على الأقل هي لم ترَها تبكي في يومٍ من الأيام في كلِّ الوقت الذي تعرَّفت فيه عليها، إنها في صلابة الفولاذ وذكاء النار. ولو أن «زكي» كان يظنُّ إن وراء تلك القوة يكمن ضعفٌ رهيب، إلا إن الأيام أثبتت له العكس، فلقد كانت نسخةً طبق الأصل من والدها، الفرق بين الاثنين فقط أن والدها كان جشعًا وشرهًا مُحبًّا للمال، ويتَّهمه البعض بسرقة مال الشعب. أمَّا هي فكانت تحبُّ الحياة، وبها رأفةٌ ورحمةٌ تجاه الأشخاص الذين في مواقفَ إنسانيةٍ حرجةٍ ويستحقون المساعدة، مثل ذلك اللص الظريف في روايات «موريس لبلان» الفرنسي، فهي دائمًا ما تحتال على والدها الثريِّ لتحصل منه على المال وتقوم بصرفه على كثيرٍ من الذين يستحقونه أو في حاجةٍ إليه، بسريةٍ وهي متنكرةٌ في زيٍّ امرأةٍ بسيطةٍ موظفةٍ طيبة، ثم بعدما قابلت «أحمد زكي» وعرفت عن عمله في منظمة «بلان سودان Plan Sudan» مع الأطفال، أخذا

يعملان معًا في صمتٍ مع أطفال الشوارع وجماعة «شارع الحوادث» التي تضمُّ مجموعةً من الشابات والشباب الأخيار المتطوِّعين في رعاية المرضى المعوزين.

الركن الرابع من هذا البيت، هي الأمُّ أو الجدة «نصرة»، التي يمكننا أن نطلق عليها لقبًا طويلًا بعض الشيء، أشبه بعناوين قصص الروائي الكولومبي المرحوم «جابرييل جارسيا ماركيز»: «الجدة الثرية الحزينة الوحيدة التي ترعى الأطفال». وهي الآن تدير كل أموال ومؤسسات زوجها المرحوم «فتح الله فراج فتح الله». وغني عن القول إنها لا تفرِّط في أن ينال أبناء صديق زوجها المرحوم «جبريل كيري» نصيبهم من الثروة، وذلك يجعلها متوازنة نفسيًّا، ويهبها الشعور بإنسانيتها ونقاء ضميرها، ونظافة المال وطهارته أيضًا. ويظلُّ فقدها لزوجها هو مصدر حَزَنها الأكبر، فلقد كانت تحبُّه جدًّا، وإنها تكتشف كلَّ يوم أنها كانت تحبُّه أكثر، وهنالكَ فكرةٌ تسيطر على وعيها ولاوعيها، وهي إنه كان بإمكانها ألا تتركه يموت، إذا اجتهدت أكثر مع بعض الفُكيان والسحرة وقارئي الرُّقية الشرعية من المطبِّبين القرءانيين، أو ربما الأطباء النفسانيين، ولو خارج حدود الوطن، في أوروبا أو أمريكا أو مصر. ولو أن أحدًا ممن أصيبوا بداء الديك لم ينجُ في تلكَ الحقبة من الموت بذات الطريقة وذات الأسلوب، إلا إنها قد لا تعرف ربما أن البعض نجا، أو أن مطبِّبًا ما بإمكانه أن يجعله ينجو، فإن زوجها كان يحبُّ الحياة، يحبُّها بالصورة التي تجعله يعيش للأبد إذا أحسن التصرف، وما خوفه من الفقر إلا لارتباطه بالموت. في ظنِّه أن الفقراء يموتون أولًا، أمَّا الأثرياء فلا يموتون ما لم يستنفذوا كلَّ فرص النجاة من الموت. لكن قدَّر الله وما شاء فعل، فاللحظات الأخيرة من حياته كان الموت أفضل منها، وإنها مثلها مثل الجميع قد تمنَّت له في صلاتها الموت المريح أو الشفاء والحياة بدون آلام، فاستجاب الله

للخيـار السـهل، وأخـذه إلى الـدار الآخـرة، إنهـا مشـيئة الـرب.

للجـدة «نـصرة» عالمهـا، مـع سـيدات الأعـمال والمـال ونسـاء الطبقـات العُليـا مـن المجتمـع. وعلينـا أن نوضِّـح أيضًـا أنهـا عـلى الرغـم مـن التزامهـا الأخلاقـي تجـاه أسرة المرحـوم «جبريـل كـيري»، إلا إنهـا كانـت تتَّصـف بـشيءٍ مـن البُخـل، أو فلنسـمِّه بالحـرص الزائـد عـلى الاحتفـاظ بأكـبر قـدرٍ مـن المـال وتنميتـه، وكادت أن تصـدق تلـك النظريـة التـي تقـول إن الحصـول عـلى المـال هـو قدرهـا هـي بالـذات، نتيجـةً لمـا حصـل لهـا مـع الجـدة المباركـة الملكـة «أمـاني» في طفولتهـا، وعليهـا الحفـاظ عليـه مـن أجـل رفاهيتهـا هـي ورفاهيـة الأجيـال القادمـة مـن أسرتهـا، ولـو أن العمـل في المـال أصبـح يعطيهـا نوعًـا مـن المتعـة، نوعًـا مـن الإشـباع الـذاتي، كلـما كسـبت مـالًا جديـدًا شـحنها ذلـكَ بالإثـارة وحـبِّ المغامـرة والعمـل، واندفـق الأدرينالـين في أوعيتهـا الدمويـة وصعـد إلى قبـة رأسـها الـذي بـدأ يفقـد الشـعر ويصـاب بالصلـع المبكـر. ربمـا كانـت تلـك النشـوة هـي دافعهـا الأكـبر في تنميـة المـال وازدهـاره، وليـس الدافـع مجـرد فكـرةٍ أسـطوريةٍ نسـيت تفاصيلهـا، ولا الحفـاظ عـلى نصيـب الأجيـال القادمـة مـن الأسرة وتأمـين مسـتقبلهم مـن الفقـر الـذي لا تحبُّـه. فلنقـل: مـن أجـل كلِّ هـذه الأشـياء مجتمعـة.

عـلى الرغـم مـن حَزَنَهـا العميـق بفقـد زوجهـا، ومغـادرة ابنهـا بغـير رجعـة ومأسـاة طلاقـه مـن الثريـة الحسـناء «سُـهى»، إلا إنهـا كانـت تجـد في الأطفـال سـلوتها، في رعايتهـم وإطعامهـم وغسـلهم وعمـل كلِّ مـا يفرحهـم، مسـتقطعةً وقتًـا ثمينًـا كانـت تقضيـه في إدارة شـئون المـال والثرثـرة المحبَّبـة مـع النسـاء الثريـات والمدَّعيـات الـثراء. ولم تكـن في غيبوبةٍ عـمَّا يـدور في الشـقتين اللتـين تعلـوان شـقتها؛ أيْ في الطابقـين العلويـين، ولكنهـا لم تحـبَّ أن تعكـر صفوهـم، وإن ذلـك لا يضرُّهـا في شيء، بـل قـد يجعـل الحيـاة أسـهل بالنسـبة لهـم: «دعيهـم يلهـون». ولكـن مـا يخيفهـا

ويقلـق مضجعهـا ومنامهـا، هـو فكـرة أن العلاقـة بـين «أحمـد زكي» زوج ابنتهـا وابـن اختهـا وطليقـة ابنهـا قـد تذهـب إلى وجـر الفتنـة والحرمـة. الجـدة «نـصرة» لا تثـق في «أحمـد زكي» وهـي عـلى درايـة بـكلِّ تاريخـه مـع ابنتهـا أيـام الفقـر وأيـام الـثراء أيضًـا. لا تظـنُّ أنـه كان عفيفًـا في علاقتـه مـع «مـيرم».

«ومـاذا سـيمنعه مـن ذلـك، أحُبُّـه لـ«مـيرم»؟ لا، ليسـت «مـيرم» سـوى بنـت غبيـة صغـيرة مغـرَّر بهـا، وإن ثقتهـا العميـاء في «أحمـد زكي» قـد تغريـه للغـدر بهـا.» هـل تثـق في طليقـة ابنهـا «سُـهى»؟ «لا، لا، إنهـا تكـبر ابنتـي، وإنهـا أكـثر وعيًـا وإدراكًا وقـد تكـون انتهازيـةً مثـل أبيهـا، جنـا الفـار يطلـع حفـار. يمكنهـا ببسـاطة أن تحـوز قلـب زوج «مـيرم»، وحينهـا سـتموت «مـيرم» كمـدًا وألمًـا وحزنًـا عـلى حبيبهـا الوحيـد. عـليَّ أن أنبِّـه «مـيرم» إلى الخطـر الـذي يتربَّـص بهـا.»

قالت لها «ميرم» وهي تضحك:

- أمـي أمـي، دا مسـتحيل، مسـتحيل يحدث، دا شيء لا يمكـن تخيُّله.

قالت الأم:

- إذا حدث في يوم من الأيام، ماذا تفعلين؟

قالت «ميرم» وهي تقترب من أمِّها أكثر:

- سـأكون سـعيدة جـدًّا، ومـا المشـكلة إذا اقتسـمنا الرجـل؟ هـو يكفينـا. هـل أقـترح عليهـا، هـل تقبـل يـا أمـي، هـل يقبـل «أحمـد زكي»؟ واااي، دي فكـرة مجنونـة ليـه مـا فكرنـا فيهـا مـن زمـاان!

قالت الأمُّ غاضبةً بعصبيةٍ ومن بين أسنانها تخرج الكلمات مسننة:

- أنـت بنـت بليـدة وغبيـة ومجنونـة، ولكـن اليـوم الـذي تخطـف فيـه بـت الوزيـر راجلـك، ح تفهـي كلامـي جيـدًا.

بالطبـع، لم تخطـف «سُـهى» بنـت الوزيـر زوج «مـيرم» ابنتهـا. ولم يكـن هنالـك أيُّ شـكٍّ في أن علاقـة «أحمـد» بـ«سُـهى» علاقـة صداقـة نزيهـة، بـل أخـوة صادقـة، وعمـل خـير في شـوارع وأزقـة ومستشـفيات الخرطـوم وأم درمـان. وعندمـا حدَّثتهـما «مـيرم» بمـا قالتـه أمُّهـا «نـصرة»، في ليلـةٍ مـا وهـم يتعاطـون المـزاج ويشـاهدون فيلـمًا كوميديًـا أمريكيًّـا جديـدًا، ضحـك ثلاثتهـم بأعـلى مـا أوتـوا مـن أصـواتٍ مشروخـةٍ مـن أثـر الكحـول. وعلَّـق «أحمـد زكي» عـلى الأمـر الغريـب بأنـه: لا بـدَّ أن خالتـه «نـصرة» قـد بـدأت تُصـاب بالجنـون. وأمَّنـت المرأتـان عـلى ذلـك. بـل اتفقـوا عـلى عرضهـا مُبكـرًا عـلى طبيـبٍ نفسـاني. اقـترح «أحمـد زكي» أن يتـمَّ عرضهـا عـلى الدكتـورة النفسـانية «ناهـد جـبر اللـه»، فهـي صديقـة الـروائي «أدومـة»، ويُعـرف عنهـا مهارتهـا وتبحُّرهـا معرفيًّـا في عـلاج هـذه الحـالات الغريبـة؛ فالشـكُّ بهـذه الطريقـة العجيبـة وغـير المفهومـة، قـد يكـون نوعًـا مـن الإحبـاط الشـديد أو سـوء الطويـة، وهـو دليـلٌ عـلى نيـةٍ سـيئةٍ مبيَّتـة.

عندمـا انتهـى الفيلـم الكوميـدي الأمريـكي، كانـت السـاعة تقـارب الثانيـة صباحًـا، ذهـب ثلاثتهـم إلى غُرفـة نـوم «سُـهى»، لأن سريرهـا الأكـبر حجـمًا، مـن المقـاس الـذي يطلـق عليـه بائعـو الأثـاث: سُـيوبر لارج Supper Large .

الدِّيكُ يَتَمَظْهَر

إن زوجها ضحَّى من أجل مستقبلٍ مشرِّفٍ للأجيال القادمة، ومن أجله هو أيضًا، بل في المقام الأوَّل من أجل نفسه بالذات، فهي تعرف عن زوجها حُبَّه للمال ولنفسه، وهذا ليس عيبًا فمن لا يحبُّ نفسه كيف يحبُّ الآخرين، ونفسه أقرب من كان إليه، ومن لا يحبُّ المال كيف يمكنه أن يحبَّ غيره، لأن الغير لا يقتربون منكَ وأنتَ فقيرٌ معدم، حتى إذا متَّ في عشقهم أو تغنَّيت به. فحبُّ المال من الإيمان، وهذا مذكور في بعض الأحاديث المقدسة، وإذا لم تخُنها الذاكرة لقد تمَّ ذكره في القرآن الكريم، وتم اقترانه بالبنين، أيْ العترة. كما إنه بحبِّه لنفسه وللمال لم يضرَّ أحدًا بسلوكه هذا، وها هو يتحمَّل مسئولية محبَّته بقبوله الكريم والحُرِّ جدًّا بالديك.

للمـرة الأولى يُـرى الديـكُ مُجسَّـدًا دمًـا ولحـمًا في البيـت، ويشـاهده جميـع أفـراد الأسرة. كان يقـف عـلى رأس «فتـح اللـه فـراج» الأب المكلـوم الـذي يبـدو وكأنمـا أُغمـي عليـه مـن السـهر، حيـث إنـه سـقط في الأسـبوع الثـاني مـن الأرق المتواصـل، سـقط كالميـت. لـولا إنـه كان يشـخر بأعـلى صوتـه لحسـبه أفـراد الأسرة مـن الهالكـين. كان الديـك كبـيرًا جـدًّا، لـه منقـارٌ أقـرب لمنقـار النـسر، عينـاه كبيرتـان ومحمرَّتـان، لـه أريـاشٌ جميلـةٌ وزاهيـةٌ ولامعـةٌ مثـل الحريـر. أوَّل مـن شـاهده كانـت «نـصرة»، عندمـا دخلـت حجـرة زوجهـا وفي يدهـا المبخـرة تصدر دخانًـا كثيفًـا أوصى الفقيه أن يتبخَّـر بـه «فتـح اللـه فـراج» كلَّ يـوم بعـد غروب الشـمس مبـاشرة، لأن الشـمس تغـرب بـين قـرني شـيطان، وهـي ذاتهـا اللحظـة التـي يكـون فيهـا الشـيطان «متدروخًـا» ومرتبـكًا مـن الشـمس، بالتـالي يسـهل التخلُّـص منه. في اللحظـة التـي شـاهدتْه فيهـا، ظنَّتـه ديـكًا حقيقيًّـا. وضعـت المبخـرة على الأرض وهمَّـت بضربـه، ولكـن عندمـا حملـق الديـكُ فيهـا بعينـين محمرَّتين شرسـتين، تسـمَّرت في مكانهـا وصرخـت، مـمَّا جعـل كلَّ مـن في البيـت يهرع إليهـا، فتفحَّصهـم الديـك واحـدًا واحـدًا. هبـط مـن أعـلى رأس «فتـح اللـه فـراج» الـذي مـا زال نائمًـا ويصـدر شـخيرًا منتظـمًا، نـزل بـتروٍّ وبثقـة، ربمـا بخيـلاء. نفـض جناحيـه في عنـفٍ فبـدا مثـل طائـرةٍ مروحيـةٍ عملاقـةٍ تهـمُّ بالهبـوط عـلى أرضٍ متربـة. صـاح ثـلاث مـراتٍ متتاليـاتٍ أدخلـن الخـوف في نفـوس أفـراد الأسرة الذيـن وجـدوا أنفسـهم في موقـفٍ صعـب التفسـير ومحـيِّر. ثـمَّ اختفـى فجـأةً وكأنـه لم يكـن في الوجـود، مثـل كابـوسٍ جماعـيٍّ عَـبَرَ مناماتهـم ولم يـترك مـن أثـرٍ سـوى الرعـب. كان أفـراد الأسرة في انهيـارٍ تـامٍّ، وخاصَّـةً بالنسـبة للذيـن لا يعرفـون حكايـة الديـك؛ تقريبًـا جميعهـم مـا عـدا الأمِّ التـي كانـت أكـثر تماسـكًا، ولـو أنهـا الأكـثر رُعبًـا، وقـد قـرَّرت في الحـين قـرارًا لا رجعـة فيـه، وهـو أن تنفـذ وصيـة ووصفـة الفـكي وتعيـد الخاتمـين إلى القـبر النُّـوبي، ولكنهـا مثـل القـارئ تـدرك أنهـما خدعـا الفـكي بـأن قصَّـا لـه قصـةً مختلقـةً عـن سـبب حصولهـما عـلى الذهـب، ربمـا إذا

حكيا لـه القصـة الحقيقيـة لطلـب منهـما إرجـاع الذهـب أو قيمتـه لأسرة «جبريـل كـيري» أو إلى القـبر النـوبي أو رميـه في البحـر أو حتـى تركـه في جـرةٍ كبـيرةٍ مسـحورةٍ في بيـت الفـكي، فخداعهـما للفـكي أثـار فيهـا شـكوكًا في صحـة الفتـوى ذاتهـا وفاعليتهـا، كانـت مرتبكـة، تختـار في ذات اللحظـة الـشيء وضـده، تهـدم فكـرةً ثـمَّ تبنـي مـن حطامهـا فكـرةً تهدُّهـا أيضًـا، فكانـت أمـام خيـارٍ صعـب، أو في الحقيقـة خيـارات كثيرة متناقضـة صعبـة ومعقَّـدة. أمَّـا خيـار الفقـر، فالفقـر كـما تعلمـه «نـصرة» أشـكال وألـوان، أقلـه شراسـة التخـلي عـن جـزء كبـير مـن ثروتهـا؛ أيْ الاحتفـاظ بالأربـاح وإعـادة أصـل المـال، وهـذا معكـوس الفكـرة التـي تعمـل عليهـا في قتـل صـوت الضمـير عندهـا، حيـث كانـت تنـوي القيـام بالاحتفـاظ بأصـل المـال وقضـاء الديـن مـن الأربـاح أو التنـازل عـن كلِّ ثروتهـا مقابـل راحـة زوجهـا مـن شـيطنة الديـك. أمَّـا الخيـار الـذي لا تـدري أهـو الأمثـل أم لا، فـأن تقبـل باختيـار زوجهـا «فتـح اللـه فـراج»؛ أيْ القبـول بالديـك، أن تقبـل تضحيتـه مـن أجـل رفاهيـة أسرتـه والاحتفـاظ بالوضـع الاجتماعـيِّ الرفيـع الـذي ينعمـون بـه الآن، وتحـارب الديـك وغـيره مـن الشـياطين عـن طريـق الفُكيـان والسـحرة مهـما كلَّفهـا مـن مـال؛ فالديـك أرحـم مـن الفقـر.

فالديـك مجـرَّد شـيطان؛ أيْ مخلـوقٌ مقـدورٌ عليـه في وقـتٍ مـا بسـبيلٍ مـا، والـذي يبقـى حيًّـا للأبـد هـو اللـه وحـده. أمَّـا الفقـر في ظنِّهـا الخـاص، فابتـلاءٌ مـن اللـه، وقـد فقـدَ الـربُّ ذاتـه السَـيطرة عليـه، فأصبـح مـن واجـب كلِّ شـخصٍ التخلُّـص مـن الفقـر بطريقتـه الخاصَّـة. لـذا قـال خليفـة المُسـلمين «عمـر» رضي اللـه عليـه وأرضـاه: «لـو كان الفقـر رجـلًا لقتلتـه.» ولكنهـا أيضًـا فكَّـرت فكـرة غريبـة: مـاذا لـو مـات زوجهـا، أليسـت تلـكَ نهايـة لسُـلطة الديـك، أليـس بالمـوت تنتهـي العقـود؟ هـل سـينتقل الديـك إلى فـردٍ آخـر مـن الأسرة؟ هـل بإمـكان الفقيـه أن يقتـل الديـك ويريـح «أبـو الـسر»؟ إن الفكيـان يسـتطيعون حـرق الجـن. نعـم، لمـاذا لا

تذهب لسحرة جبال النُّوبة أو النيل الأزرق وهم الأقدر على التعامل مع الشياطين والجن؟ كانت الأفكار تتلاطم في عقلها بسرعة البرق، وبضجيج هزيم الرعد، وقوة العاصفة، وغموض البحر.

سألتها البنت، وهي تسرع الخطى نحو الخارج:

- أمي الديك مشي وين؟

وكأنما كانت أمُّها تعرف كلَّ شيء. نعم ... نعم، ألا تعرف أمُّها كلَّ شيء عن طريق رمي الودع وقراءة الكف والوجه والتخمين وضرب الرمل، عن طريق ذكائها الحاد؟ لا ... لا، أمُّها لا تعرف شيئًا؛ فكانت «ميرم» تخدع أمَّها ببساطةٍ كلَّ يومٍ ووقتما شاءت، وتغشُّها بكلِّ بساطةٍ في دورتها الشهرية منذ أن عرفت «أحمد زكي» وإلى اليوم، وتتستَّر على ما بحجرتها بالعُري، ولم تستطع أمُّها رغم خبرتها فوق الطبيعية أن تخترق سياج العُري، دعك من معرفة ما بعد ذلكَ السياج. بينما أخذ «السر» يردِّد بعض الآيات القرآنية في خشوعٍ كمن يصلِّي بالجهر، كان الطفل «فراج» يُمسك برجل أمِّه بشدة ويخفي وجهه بين ثنيات ثوبها الطويل، والأمُّ تهتف في ذاتها: «نعم، السحرةُ، السحرةُ.»

وهي سمعت عن الساحر الذي يستخدمه رئيس الجمهورية نفسه، وهو الذي حفظه من كلِّ الشرور وأبقاه في الحكم وسيبقيه مدى الحياة، ويُقال إنه لولا إن الساحر خاف الله لجعله ينجب أبناءً يرثونه. ولو أن الرئيس ما كان همُّه مخالفة مشيئة الرب، وكان يريد الأطفال بأية صورة من الصور، ولو ضدَّ إرادة الله، كان يريد أن يثبت فحولته، ويضمن مقام العرش من بعده لنطفةٍ طاهرةٍ نقيةٍ تحمل اسمه، وأن يدفع للفكي مقابل ذلكَ كلَّ غالٍ ونفيس. إلا إن الفكي قال له صراحة فيما معناه: «لم يُكْتَبْ لكَ في اللوح المحفوظ أن تنجب أطفالًا ذكورًا أو إناثًا ولا حتى أخناثًا مردة. فإذا أنا قمتُ بكسر ما

قد صار وما يصير وما رُفعت عنه الأقلام وجفَّت الصحف وقال الله سبحانه وتعالى فيه كُنْ فَكَانَ؛ إذن لانقلبت نواميس الكون وقامت الساعة. لأن الحجارة ستتكلم، والأشجار ستجري مثل الغزلان. والنساء ستنجب بغير ذكور، وذلكَ قلبٌ لكلِّ شيءٍ قائمٍ وقيامة كلِّ هالكٍ آبدٍ. وأنا سوف أكون في الدرك الأسفل من الجحيم لأبد الآبدين. أعفِني سيدي الرئيس، عليك الله!» وبكى الفكي حتى بدت نواجذه المسوسة.

لقد كلمها عنه أخوها الضابط الكبير في الجيش، الذي يستطيع أن يُطلق على نفسه بكلِّ بجاحة: «فردة الأخ الرئيس القائد». أخوها الذي يعرف قيمة الصالحين والأولياء والفكيان والسحرة، جنبًا لجنبٍ مع قوة السلاح والمال والسُّلطة. أخوها صاحب الحكمة الشائعة بين المسئولين الكبار: «أعطِني فكيًّا حقيقيًّا وسلاحًا جيِّدًا أعطِكَ الحُكم للأبد.» وتلكَ هي الحكمة التي قرَّبته جدًّا من الرئيس، وببعض التصرُّف يمكن القول إنَّ أخاها هو مستشار الرئيس في الشئون التي لها علاقة بالسحر والتمكين والفحولة المكتسبة، حيث إنه في ذلكَ الوقت لم تكن «الفياجرا» قد أصبحت ضمن الوجبات الرئيسية لسيادته، كما يحدث في الآونة الأخيرة. ولن نخوض في ذلكَ كثيرًا. الذي يهمُّنا أن «نصرة» تفهم أن الحُكم يعني المال؛ أيْ الثراء، تقصد الثراء الفاحش. وهي لم تدرس ذلكَ في مدرسة أو تقرأه في كتاب، بل تعلَّمته من الحياة حولها، فكلُّ الوزراء والسياسيين أثرياء، ولم يكونوا كذلك قبل أن تصيبهم جرثومة السُّلطة المباركة، وينكحهم فحل الوظيفة النافذ.

وما هم فيه الآن شبيهٌ بذلك، بسبب كرامة أو لعنة الذهب، بالتالي يمكن الحفاظ على ثروتهم باتباع ذات سُبل الحاكمين في الاحتفاظ بكرسيِّ الحكم. فهي تريد أن يدوم هذا الثراء للأبد، لآخر طفلٍ في سلالة «فتح الله فراج»، حتى يشهد قيام الساعة من شُرفة قصر أو حديقة فيلا فاخرة. وتضحية زوجها لن تمرَّ مرور الكرام وتذهب

هـدرًا. إن زوجهـا ضحَّـى مـن أجـل مسـتقبلٍ مـشرِّفٍ للأجيـال القادمـة، ومـن أجلـه هـو أيضًـا، بـل في المقـام الأوَّل مـن أجـل نفسـه بالـذات، فهـي تعـرف عـن زوجهـا حُبَّـه للـمال ولنفسـه، وهـذا ليـس عيبًـا فمـن لا يحـبُّ نفسـه كيـف يحـبُّ الآخريـن، ونفسـه أقـرب مـن كان إليـه، ومـن لا يحـبُّ المـال كيـف يمكنـه أن يحـبَّ غـيره، لأن الغـير لا يقتربـون منـكَ وأنـتَ فقـيرٌ معـدم، حتـى إذا مـتَّ في عشـقهم أو تغنَّـيت بـه. فحـبُّ المـال مـن الإيمـان، وهـذا مذكـور في بعـض الأحاديـث المقدسـة، وإذا لم تخُنهـا الذاكـرة لقـد تـمَّ ذكـره في القـرآن الكريـم، وتـم اقترانـه بالبنـين، أيْ العـترة. كـما إنـه بحبِّـه لنفسـه وللـمال لم يـضرَّ أحـدًا بسـلوكه هـذا، وهـا هـو يتحمَّـل مسـئولية محبَّتـه بقبولـه الكريـم والحُـرِّ جـدًّا بالديـك.

- نعمْ، السحرةُ، السحرةُ.

سألها ابنها عندما سمعها تفكِّر بصوتٍ عالٍ:

- السحرة يا أمي «نصرة»، ياتو سحرة؟

أعملت فيه ذكاءها قائلة:

- أبـوك مسـحور يـا ولـدي ومحسـود، ومأكـول. مسـحور مـن الجـن الحـارس للذهـب ومحسـود مـن بنـي البـشر الفقـراء الجيعانـين المعفنـين، ومأكـول في أفـواه النـاس النمامـين، القطيعـة تـأكل لحـم الـزول زي النـار. أبـوك لازم يكتـب ليـهُ فـكي كبـير، فـكي حقيقـي، فـكي يـروب المُويـة عدييل.

قال لها وهو يحسُّ بالحزن:

- أمـي ليـه الفـكي، نحـن في القـرن الواحـد والعشريـن، فـكي شـنو، نوديـه المُستشـفى، التجـاني الماحـي أو أي دكتـور نفسيات، أبـوي دا بكـون مخلـوع مـن المـال بـس يعنـي مصـدوم.

قالـت لـه بصـوتٍ منخفـضٍ حتـى لا يسـتيقظ والـده الـذي يسـتلقي كالميـت:

- يـا «الـسر»، انـت مـا بتفهـم، الديـك داك مـش شـفتو بعينـك؟ ياتـو دكتـور يعالـج مـن ديـك الجـن، يـا ولـدي، الرئيـس ذاتـو بيمـشي للفـكي، الدكاتـرة كُلهـم بيمشـوا للشـيوخ، وفي الحديـث الشريـف «الما عنـدُو شـيخ شـيخوُ الشـيطان».

قال لها:

- يـا أمـي أجدادنـا النوبـة قبـل أربعـة ألـف سـنة كانـوا بيعملـوا عمليـات في المـخ، وبيعالجـوا أصعـب الأمـراض، و ...

قاطعته أمُّه «نصرة» قائلة:

- هـم ذاتهـم كانـوا بيسـتخدموا الجـن، وإلا كيفـن بنـوا الأهرامـات ونحتـوا الحجـارة التقـول بالمـوس واسـتطاعوا يحتفظـوا بأرواحهـم إلى يـوم القيامـة في جزيـرة «نـاوا»!

كان الطفـل «فـراج» يـزداد انكماشًـا عـلى سـاقي أمِّـه كلـما سـمع كلمـة جـن وسـحرة وشـياطين وفُكيـان و«نـاوا»، إلى أن أحسَّـت بـه الأمُّ فحملتـه عـلى كتفهـا وخرجـت بـه تاركـةً «الـسر» يقـرأ بعـض الآيـات عـلى رأس والـده في حـزنٍ عميـق، في الحقيقـة مـا كان يخلـو مـن بعـض الخـوف، فلـم يشـكَّ لحظـةً في أن الديـك مـا هـو سـوى نفـرٍ مـن الجـن، ولكـن مـا يحتـاج إليـه والـده بالفعـل هـو تأهيـلٌ نفسي، لـكي يتخطَّـى صدمـة الـثراء الفجـائي، حينهـا يسـتطيع أن يقـاوم كلَّ جنـون العـالم طالمـا كانـت صحتـه النفسـية في كمالهـا.

سِفْرُ صَاحَبَةِ الرَّبَابَة

غنَّى وهو يبكي بحرقة، ولم يتوقَّف عن الغناء. إلى أن وضعت «أجاك» كفة يدها في فمه، وأوقفت لسانه عن الحركة. صوته جميلٌ جدًّا وحميمٌ وصادقٌ وحلوٌ، ولكنه كان أيضًا متوحشًا وجارحًا في أوقاتٍ كثيرة؛ فخافت عليه من شيءٍ ما في ذلك، لذا أوقفته عن الغناء، أو إنها كانت تريده أن يحتفظ بهذا الكنز الذي اكتشفته هي للتو؛ خشيت أن يستهلكه كلَّه في ذلكَ اليوم، في تلكَ اللحظة بالذات. لكن الغريب في الأمر أنها في أوقاتٍ أخرى طلبت منه أن يغنِّي، فغنَّى لها. إلى أن أصبح لا يبكي أثناء الغناء. لا يثنيه شيءٌ عن التشوُّق إلى الرَّبابةِ، فهي هدفه الأسمى وحبُّه المسحور، وحُلمه وجنونه؛ الرَّبابة التي تزوره في الليل، وتغنِّي له وتتحاور معه، وتتركه يعزف عليها أغنياتٍ جميلاتٍ ومُدهشات. هي الرَّبابة ذاتها التي عندما بلغ الحُلم كانت فتاة ليلته الفاصلة.

بالإضافـة إلى حادثـة سَـبْيِه، فـإن «غـزال» يعتـبر أنَّ نقطـة التحـول الأخـرى في حياتـه كانـت في اليـوم الـذي قابـل فيـه «أجـاك» الطويلـة. وهـي عجـوزٌ دينكاويـةٌ فارعـة القـوام. عـلى الرغـم مـن أن اسـمها «أجـاك» يعنـي البقـرة بلغـة «الدينـكا»، إلَّا إنهـا أشـبه بشـجرة التـك فارعـة القـوام، ذات بـشرةٍ ناعمـةٍ لينـةٍ، ووجـهٍ أملـسٍ عليـه تجاعيـد صغـيرة. بالإضافـة إلى غليـون البامبـو الـذي لا يفـارق فمهـا إلَّا عندمـا تبـدأ في الغنـاء، فهـي دائمًـا مـا تُـرى في صُحبـة رَبابتهـا المصنوعـة مـن وعـاءٍ نصـف دائـريٍّ مـن الطلـس يُسـتخدم كحاويـةٍ لمناولـة المـاء، يسـمونه «كُوُرِيَّـة»، مُغلَّـف بجلـد كلـب السـمِعِ الـبري. أمـا أوتـارُ الرَّبابـة فهـي مـن ذيـل الزرافـات — كـما هـو شـائعٌ في تلـك النواحـي مـن العـالم، وتلـك البلـدان الإسـتوائية المطـيرة التـي أنشـأها اللـه في أماكـنَ مجهولـةٍ مـن الكـون — مشـدودةٌ عـلى عـودٍ مـن الأبنـوس القـوي.

المـرة الأولى التـي شـاهد فيهـا «أجـاك» كان في أيـام قدومـه الأولى، حيـث أخـذه إليهـا «جبريـل كـيري» لـكي تتحـدَّث إليـه بلغتـه وتطمئنـه بأنـه سـيلقى منـه معاملـةً طيبـة، تمامًـا كـما لـو كان ابنـه، وعليـه ألَّا يحـاول الهـرب، لأن ذلـك سـيعِّرضه للمـوت، فالمـكان كُلُّـه محـاطٌ بالوحـوش وكلاب السـمِعِ والأُسـود الضاريـة، وأضافـت مـن عندهـا السـحاير. وأن عليـه أن يتعلـم اللغـة العربيـة، وهـو حـرٌّ في أن يسـلم أو لا يسـلم، ولكنـه إذا رغـب في الإسـلام بعـد أن يعرفـه، فذلـك خـيرٌ لـه في رأي «جبريـل».

في الحقيقـة مـا كان يعـرف شـيئًا عـن الجـزء الخـاص بالإسـلام، ولم تسـتطع العجـوز أن تجعلـه يفهـم، فهـو لم يصـل في بلـده إلى العمـر الـذي يذهـب فيـه إلى الكنيسـة الصغـيرة التـي في قريتهـم، والتـي لا يعـرف عنهـا شـيئًا غـير أنهـا بيـت الـربِّ الـذي لم يـرَه يومًـا فيـه، لا داخـلًا إليـه ولا خارجًـا منـه، ومـا كان يعـرف ربًّـا غـير ذلـك الـربِّ المجهـول الـذي قيـل إنـه يسـكن بيـت الـربِّ بقريتهـم، وكغـيره مـن الأطفـال كان يظنُّـه

الـربَّ الوحيـد، وأن قريتهـم هـي مركـز الكـون لأنـه اختـار بيتـه فيهـا. ولكنـه يعـرف الـ«كُجُـور»[1] بصـورة أعمـق وأقـرب وأكـثر وضوحًـا، لأنـه كان المصاحـب لـه في يومـه منـذ طلـوع الشـمس إلى مغيبهـا، فهـو الـذي يحميه مـن المصاعـب، ويبعـد عنـه الصواعـق، ويضمـن لـه حيـاةً طويلـة، ولأبقـاره وأحفـاده ونسـائه فيـما بعـد، لـذا اختـصرت «أجـاك» المحـاورة بـأن قالـت لـه إنـه حـرٌّ في أن يؤمـن بـ«كُجُـور العـرب» وتعنـي الديـن الإسـلامي، أو لا، ولكنهـا أضافـت جملـةً مهمـةً مـن نفسـها، حـدَّدت موقفـه فيـما بعـد مـن مجمـل الديـن الإسـلامي أو مـا أسـمته «كُجُـور العـرب»:

«إذا آمنت بكجور العرب،

سيقطعون جزءًا كبيرًا من ذكرك.

فإن ذكور العرب قصيرة وناقصة،

لأن كُجُورهم يأخذ نصفها.»

كان الـذي يهمُّـه فعـلًا وغـيَّر مجـرى حياتـه في لقائـه بتلـك المـرأة هـو: ربابتهـا المصاحبـة لهـا، ربابتهـا الجميلـة العجيبـة التي تشـعُّ غوايـة، ربابتها التـي عشـقها مـن أوَّل نظـرة.

قـد عـرف عـن «أجـاك» أشـياءَ كثـيرةً كانـت سـتبدو عنـد غـيره رهيبـةً جـدًّا ومدهشـة، كـما ينظـر إليهـا كلُّ أهـل قريـة «أولاد أحمـد». العجـوز «أجـاك» لا تفعـل شـيئًا ماديًّـا يمكـن الإشـارة إليـه، وهـي أيضًـا لم تكـن مملوكـةً لأيٍّ مـن سـكان القريـة، لم يسـبِها أحدهـم، ولم تكـن أسـيرة حـرب أو غـزوة مـن الغـزوات، وليسـت لاجئـة، أو مـمَّا ملكـت يمـين أحـد المؤمنين بالقريـة. تسـكن وحدهـا، حيـث إنهـا تـأكل وتـشرب وتمتلـك أبقـارًا وأغنامًا مـن عملهـا غـير المـرئي، وهـو خليـطٌ مـن كلِّ شيءٍ غريـب:

فهـي كُجُورِيـة، ويهوديـة، ومسـيحية، ومسـلمة، ولا ديـن لهـا أيضًـا،

(1) الكجـور هـو شـخص تحـلُّ فيـه روح الأجـداد ويقـوم بـدور الوسـيط بـين النـاس وبـين تلـك الـروح.

أو هكذا تمَّ وصفها له فيما بعد. ويُقال إنها ماتت أكثر من مرة في القرية ذاتها، وفي بيتها ذاته، ولا يُستبعد أن تموت مرةً أخرى في أيِّ وقتٍ كان، في البيت ذاته، أو في مكانٍ آخر لا يدري به أحدٌ. يحترمها كلُّ سكان القرية، أو ربما يخافون منها، فالمسافة بين الخوف والاحترام لا يُسبر لها غور، ولا يقيسها قَيَّاس، فقد لا يكون لها وجود. لم يطلب منها القرويون أن تغادرهم، ولم تغادر هي بإرادتها، وكانت تقيم في القرية كما لو كانت القرية ملكًا لها هي وحدها، لم تؤذِ أحدًا، بل دائمًا ما تقوم بمساعدة أهل القرية في العلاج من كثيرٍ من الأمراض، مثل العين والسحر والجنون، وتأخذ مقابل ذلك أبقارًا وذرة وحيوانات أخرى.

لا يهمُّه كلُّ ذلك، ولو أنه علم بتفاصيل أكثر عنها في قادم أيامه في القرية، إلَّا إن ما فعلته رَبابتها به كان غريبًا جدًّا ومُدهشًا، وربما تلك الرَّبابة بالذات ساعدت بطريقةٍ أو بأخرى في أن يبقى بالقرية، حتى بعدما غدر به «جبريل» وباعه لذلك الراعي الذي استغلَّه في العمل كآلةٍ لطحن الذرة، إلى أن أطلقته الرَّبابة ذاتها من المكان نحو أفق حريته؛ نحو الحياة التي كانت دائمًا في انتظاره.

لم يفهم في أيامه الأولى الأغاني التي تغنِّيها «أجاك» باللغة العربية، كما لم يفهم تمامًا الأغنيات التي كانت تغنِّيها بلغة «الدينكا» ولغاتٍ أخرى لقبائل تسكن حول المنطقة. يأتي الرجال وتأتي النساءُ ليستمعن لها في بيتها، حيث إنها لا تغنِّي إلَّا على بنبر قرب باب قُطيتها، في بيتها الذي يقع على بُعد كيلومترٍ واحدٍ تقريبًا جنوب القرية، وهي القُطية التي وُجدتْ فيها من قبل جداتُها، وأمُّها، وكلما انهارت أو شاخت القُطية قام سُكان القرية ببنائها لها مرةً أخرى في عملٍ جماعيٍّ يُسمى بالنفير. يظنُّ البعض أنها هي ذاتها الجدة، وجدة الجدة، والأم أيضًا، والبنت التي ستكون في المستقبل وتقيم في ذات المكان،

وبنتُ البنتِ والسلالة القادمة من نساءٍ غريباتٍ حكيماتٍ ومرعباتٍ سيُقِمْن في القُطية ذاتها. ونحذِّرُ القارئ بأن هذا غير مؤكدٍ، وقد يكون ضربًا من الشذوذ المخيلي، فلا أحد في القرية يعلم علم اليقين مَنْ مِنهُنَّ «أجاك» الطويلة الحالية، وهل كانت الجدات والأمهات السابقات لها طويلاتٍ شاهقاتٍ كأشجار المهوقني كما هي عليه هذه الحفيدة الآن؟!

عندما كان في صُحبة أسرة «جبريل كيري»، داوم على أن يأتي إليها في أوقات فراغه في صُحبة صديقته الصغيرة الطفلة «شوشايا»، للاستماع إلى «ماما أجاك» الطويلة وهي تغنِّي. وتقدِّم هي بدورها لهما بعض الطعام؛ شراب العسل الطازج كما تفعل الجدات عادة. ولكنه كان يقول لها إنه يريد أن يستمع إلى الرَّبابة، الرَّبابة من يريد، هي محبوبته وكلُّ ما يرغب فيه الآن.

فجأةً في يومٍ ما ذات عصرٍ جميل، طلبت منه «أجاك» أن يغنِّي؛ يغنِّي ما يتذكَّره من الأغنيات التي كان يردِّدها أهله. وغنَّى.

غنَّى وهو يبكي بحرقة، ولم يتوقَّف عن الغناء. إلى أن وضعت «أجاك» كفة يدها في فمه، وأوقفت لسانه عن الحركة. صوته جميلٌ جدًّا وحميمٌ وصادقٌ وحلوٌ، ولكنه كان أيضًا متوحشًا وجارحًا في أوقاتٍ كثيرة؛ فخافت عليه من شيءٍ ما في ذلك، لذا أوقفته عن الغناء، أو إنها كانت تريده أن يحتفظ بهذا الكنز الذي اكتشفته هي للتو؛ خشيت أن يستهلكه كلَّه في ذلكَ اليوم، في تلكَ اللحظة بالذات. لكن الغريب في الأمر أنها في أوقاتٍ أخرى طلبت منه أن يغنِّي، فغنَّى لها. إلى أن أصبح لا يبكي أثناء الغناء. لا يثنيه شيءٌ عن التشوُّق إلى الرَّبابةِ، فهي هدفه الأسمى وحبُّه المسحور، وحُلمه وجنونه؛ الرَّبابة التي تزوره في الليل، وتغنِّي له وتتحاور معه، وتتركه يعزف عليها أغنياتٍ جميلاتٍ ومُدهشات. هي الرَّبابة ذاتها التي عندما بلغ الحُلم كانت فتاة ليلته الفاصلة.

كلُّ ما يـدور حـول «أجـاك» وتفعلـه أو يُتَوَهَّـم أنهـا تفعلـه، ومـا شـاهده منهـا وخـبره مـن حُـبٍّ واهتـمام، لا يسـوى شـيئًا أمـام افتنانـه بالرَّبابـة. ويبـدو أن «أجـاك» لاحظـت ذلـك، أو يجـب أن تلاحـظ ذلـك، أو أن ذلـك هـو مـا يجـب عليهـا أن تلاحظـه بالـذات. وفي يـومٍ مـا جـاءت إليـه حيـث يقيـم، قبـل غـروب الشـمس بقليـل، وكان قـد فـرغ مـن عملـه الروتينـيِّ المملِّ المضجـر، وطحـن مـا عليـه أن يطحنـه مـن ذرةٍ قبـل مغيـب الشـمس، وتـمَّ وضـع القيـدِ حـول سـاقيه، وإذا أحـضرت إليـه بنـت الراعـي العشـاء سـيأكل ثـمَّ ينـام.

جلسـت «أجـاك» عنـد بـاب قُطيتـه. ليـس ببعيـدٍ عنهـا كانـت تقـف كلُّ الأسرة التـي تسـتغرب الزيـارة المفاجئـة لـ«أجـاك» الطويلـة. و«أجـاكُ» الطويلـةُ، في العـادة لا تذهـب للآخريـن في بيوتهـم، بـل الآخـرون هـم الذيـن يأتـون إليهـا في قُطيتهـا عندمـا تكـون الحاجـة قـد غلبـت كلَّ حيلهـم واسـتنزفت طاقـات المعالجـة التـي خبرهـا وتوارثهـا القرويـون أبًـا عـن جـد. قالـت لـه دون مقدِّمـات وهـي تجلـس وتنظـر إليـه في عينيـه بمقلتـين صغيرتـين عجوزيـن محمرَّتـين: «تجـرَّبْ!» ومـدَّتْ لـه الرَّبابـة بكفتيهـا الاثنتـين، كـما يُقـدَّمُ القربـانُ لإلـهٍ نُـوبيٍّ في عصـورٍ سـحيقةٍ لا يَـدري عنهـا شـيئًا. لقـد انتظـر كثـيرًا هـذه اللحظـة، سـنوات طويـلات ممطوطـات لزجـات حزينـات. عندمـا لمـس الرَّبابـة أحـسَّ بأنـه امتلـك العـالم في يـده، ولم ينـسَ تلـك اللحظـة حياتـه كلَّهـا. في ذلـك الوقـت كان قـد انتقـل إلى أسرة الراعـي، وهـو يمـرُّ بلحظـاتٍ مـن الحَـزَنِ واليـأس شاسـعات. لقـد حـاول صناعـة الرَّبابـة عـدة مـرات بـذات مواصفاتهـا عنـد «أجـاك»، ولكنـه حطَّمهـا ورماهـا بعيـدًا. كان يحـسُّ بأنهـا مسـخٌ مريـع. واكتفـى بأغنيـاتٍ ينشـدها عنـد الطحـين، وبقيـت الرَّبابـة الأصليـة الحبيبـة الوحيـدة في الحُلـم، التـي هـي ملـك «أجـاك» التـي يحـبُّ أن يناديهـا «مامـا».

لم يبـكِ، لم يرتجـف، كان يمسـك بالكـون كلِّـه في يـده بقـوةٍ ونشـوةٍ وبحـب، ولأنـه يعرفهـا جيِّـدًا وقابلهـا كثـيرًا في أحلامـه، وتغنَّيـا معًـا، ولعبـا وجريـا في الغابـات المجـاورة وغامـرَا، ولأنهـا تركتـه يعـزف عليهـا ويلعـب بأوتارهـا في الحُلـم، فإنـه بمجـرد أن لمسـها عرفتـه وعرفهـا، وضعهـا بالصـورة الصحيحـة تمامًـا، أو وضعـت نفسـها حيثـما تشـتهي. في الحقيقـة التعبـير الأمثـل عـن تلـك اللحظـة إذا شِيءَ لـه أن يصفـه بعـد سـنواتٍ كثـيرات، هـو أنهـما مارسـا الحُـبَّ معًـا. عـزف عليهـا — أو عزفـا — الأغنيـة التـي يحبُّهـا، وطالمـا اسـتمع إليهـا كثـيرًا جـدًّا مـن «أجـاك» بلغـة «الدينـكا»:

«المكانُ الذي

كانتْ تقفُ عليه

حبيبتي

العام الماضي

عندما هطل المطرُ هذا الصيف

أنبتَ عُشبًا غريبًا»

ثـم غنَّيـا أغنيـاتٍ كثـيرات، ألَّفهـا في وقتهـا، ارتجلهـا في الحـين. في تلـك اللحظـة نفسـها، فكَّـر «غـزال» بعمـقٍ في الحُريـة، في حُريتـه الشـخصية، كأنمـا كانـت الرَّبابـة قـد همسـت إليـه بـسرٍّ مـا، كأنمـا قالـت لـه الربابـة:

«حُريتُكَ تخصُّك أنت،

وأنتَ منْ يحقِّقها،

ولا أحدَ سواك.»

أعـاد الرَّبابـةَ إلى «أجـاك»، وَظَـنَّ أنـه قـد وصـل إلى مـا تُلِـحُّ الرَّبابـةُ عـلى توصيلـه إليـه، ولكـن «مامـا أجـاك» الطويلـة قالـت لـه، وفي عينيهـا دمعـاتٍ متحجـراتٍ يتسـاقطن كـما الحـصى عـلى الأرض: «هـي لـكَ خُذهـا،

لم تعُـدْ تخصُّنـي، إنهـا ربابتُـكَ.»

ثُـمَّ نهضـتْ مـن مجلسـها. ألقـت نظـرةً سريعـةً عـلى الأسرةِ الصغـيرةِ الملتفـةِ حولهـا. ابتسـمتْ، أو إنهـا أرادتْ أن تظهـر أسـنانَها ناصعـةَ البيـاض الجميلـة السـاحرة. عـلى الرغـم مـن سـنوات الصعـوط والتوباكـو الكثـيرات التـي عـبرت فمهـا، ظلَّـت الأسـنان كـما خلقلهـا اللـه لهـا أوَّل مـرةٍ في تاريـخ لا يسـتطيع أيٌّ كان تخمينـه، وربمـا يكـون قـد انمحـى مـن دفاتـر الرحمـن نتيجـةً لتكالـب الأزمـان عليـه. لم تلتفـت إلى «غـزال»، أو إلى رَبابتهـا مـرةً أخـرى. مضـت في خطـواتٍ سريعـاتٍ إلى أن تلاشـت في البعيـد البعيـد البعيـد، حيـثُ الظـلام بـدأ يُسـدل ثيابـه السـوداء عـلى الأمكنـة، ويحتضـن الكائنـات في صـدره الشـاسع الرحيـم، عـلى إيقـاع أمطـار ذلـك الصيـف.

ذلـك آخـر يـوم يراهـا فيـه، ولـن يـدري أحـدٌ مـا إذا كانـت هـي أيضًـا لم تـرَه منـذ تلـك اللحظـة إلى اليـوم ، فـلا أحـدَ يـدري حـدود معرفـة «أجـاك» غـير «أجـاك». وقـد حـدث في ذات الليلـة أمـرٌ أخـرُ مهـمٌّ في حيـاة «غـزال»، وهـو أحـد نقـاط التحـوُّل الكثـيرة في حياتـه الغريبـة. في الفصـل القـادم الموسـوم بـ«سِـفْرِ الحُرِّيَّـة»، سـيتمُّ سرد قصـة «غـزال» والراعـي الـذي اشـتراه مـن «جبريـل»، وسـتُحْكَى مـن الأمـورِ أخـرى كثـيرة.

سِفْرُ الحُرِّية

أثنـاء القيـام بعمليـة الطحـن، كان يقـول كلَّ ذلـكَ بكلـمات بلحـنٍ عفـويٍّ معـبِّر، بلغتـه الأم، يغنِّـي بذلـك الحـماس الـذي تعلَّمـه مـن الجـدة «أجـاك»: يقـول إن الطحـين مـؤلم، وإنـه خُلـق للهـو واللعـب كطفـل، وللصيـد والحـرب كرجـلٍ عندمـا يعـبر حفـل البلـوغ، وإن الطحـين الشـاقَّ هـو عمـل كبـار السـنِّ الناضجـين، مـن الأمهـات والصبيـات الـلائي يحتفلـن ببلوغهـنَّ قريبًـا، ويقـول أيضًـا إن «جبريـل» وأهلـه هـم بمثابـة أسرتـه الخاصَّـة، لأنهـم لم يسـتخدموه كماكينـة طحـين، ولأن ذلـكَ عمـلٌ لا يتـشرَّف رجـلٌ بـأن يقـوم بـه، فالرجـل يصطـاد ويحـارب ويـسرِّح الأبقـار ويحميهـا. وفي الأغنيـة أيضًـا يقـرِّر أنـه سـينتقم لنفسـه في يـومٍ مـا، وسـيكون انتقامـه مثـل انتقـام ثـور الجامـوس الـذي أكل الأسـد عجلـه.

قليلٌ من الشرِّ مطلوبٌ للحفاظ على كثيرٍ من الخير. الذي لا شرَّ فيه لا خيرَ فيه. وليس كلُّ الشرِّ شرًّا. الطريق إلى الحرية يمرُّ بأزقَّة العبودية؛ فمن لم يكن عبدًا لا يمكنه أن يصير حُرًّا. فلا يمكن التحرُّر إلَّا من شيءٍ ما. ويفكِّر «غزال» بشدَّة في هذا الشيء منذ أن همستْ إليه الربابةُ بالحرية. عرف أنه في يومٍ ما سيكون لنفسه ومن أجل نفسه، مثله مثل سيده وبقية السكان بقرية «أولاد أحمد» وقريتهم. حيث كان هو الأسير الوحيد المتبقي بها، فبعضهم هرب وبعضهم تمَّ استبداله في الماضي بأسرى من القبيلة لدى «الدينكا» وبعضهم مات.

ليس لأن الراعي العجوز لم يكن رحيمًا، بل إنه كان يحتاج لخدمات «غزال» المتواصلة في كلِّ أغراض الحياة وطوال الوقت، وخاصَّةً الأشغال التي تحتاج لرجلٍ ذكر، فليس لدى الراعي ذكورًا، فقط لديه ابنتان في العاشرة والسابعة من عمريهما، وكانتا مدللتين، وعلى «غزال» أن يقوم بكثير من المهام من أجل الأبقار ومن أجل البنتين وأمِّهما وأبيهما، وأيضًا يعمل مع جميع أفراد الأسرة في الزراعة المحدودة، ولكن أكثر ما يكرهه من عمل هو الطحين باستخدام «المِدحاة»، وخاصَّةً في فترة الخريف عندما تتوقف الطاحونة الوحيدة بالقرية نتيجة لنفاد الجازولين أو الأعطال الصغيرة، حيث يصعب الذهاب إلى المدينة لجلب الوقود أو إحضار صناعيٍّ وقطع غيار، لأن اللواري السفرية تتوقف عن رحلاتها عندما تمتلئ الخيران بالماء وتنعزل قرية «أولاد أحمد» نتيجةً لعدم وجود طُرق معبَّدة منها وإليها، كما أن نزول الأمطار والعواصف الرعدية المشهورة بها المنطقة يجعل الأشخاص يحذرون السفر على ظهور الثيران والحمير أو حتى راجلين، ما عدا في حالة الضرورة القصوى، مثلًا عندما تتعسَّر سيدةٌ في الولادة وتعجز القابلة البلدية عن مساعدتها وتفشل الأدعية والصلوات وتمائم الفقيه، فإن أهلها يحملونها على حمارٍ ويخوضون بها الأوحال والخيران،

ويخاطـرون بحياتهـم في مواجهـة العواصـف الرعديـة إلى أقـرب مركـزٍ صحـيٍّ بعـد مسيرة يـومٍ ونصـف.

ففـي الفصـل المطـير وهـو الصيـف، يسـتخدم المواطنـون «المِدحـاة» وهـي مطاحـنُ يدويـةٌ مصنوعـةٌ مـن الحجـر الجـيري أو الجرانيت وتُسـمى محليًّـا بالـ«مرحاكـة». وكان هــذا العمــل شــاقًّا، حيــث يقــضي «غــزال» سـاعاتٍ طـوالًا في طحـن الـذُّرة، مـمَّا يسـبِّب لـه آلامًـا في مفاصـل ظهـره ويديـه وركبتيـه. لأنـه يجـب عليـه أن يكـون بـاركًا عـلى ركبتيـه ومحنيًـا ظهـره في وضعيـةٍ شـبه موازيـةٍ لـلأرض، حتـى يتمكَّـن مـن تحريـك حجـر الرحـى الصغـير بكفَّتيـه عـلى حـوض الصخـرة الأم، لطحـن الـذرة بـين الحجريـن. لم يتعـوَّد ذلـكَ في قريتـه، حيـث إن أمَّـه هـي التـي كانـت تقـوم بإعـداد الطعـام في المنـزل، ومهَّمتـه كانـت اللعـب وصيـد بعـض الحيوانـات الصغـيرة، مثـل الأرانـب والسـناجب والجـراد أو الأسـماك في بـرك المـاء الراكـدة أو «الخيران» مـع الصبيـة الذيـن في عمـره، وعليـه أيضًـا الاهتـمام بنفسـه. كان يقـوم بذلـكَ في اسـتمتاعٍ ومحبَّـة، كـما أن «جبريـل أدومـة كـيري» لم يكـن يشـغِّله كطاحونـة، بـل لم يكـن يتركـه يعمـل مـا فـوق طاقتـه، وكان يقـوم بمساعدته في أعـمال يقـوم بهـا «جبريـل» نفسـه، أيْ كان يعاملـه كابـنٍ لـه تمامًـا، ومـا كان يضـع القيـد في رجليـه. في الحقيقة لم يـرَ «غـزال» القيـد إلَّا بعـد أن باعـه «جبريـل» إلى الراعـي العجـوز، وكان ينـام مـع الأسرة ويطعـم معهـم ومـمَّا يأكلـون: فهـو يحـبُّ أسرة «جبريـل».

أثنـاء القيـام بعمليـة الطحـن، كان يقـول كلَّ ذلكَ بكلمات بلحـنٍ عفويٍّ معبِّر، بلغتـه الأم، يغنِّـي بذلـك الحـماس الـذي تعلَّمه مـن الجـدة «أجاك»:

يقـول إن الطحـين مـؤلم، وإنـه خُلـق للهـو واللعـب كطفـل، وللصيـد والحـرب كرجـلٍ عندمـا يعـبر حفـل البلـوغ، وإن الطحـين الشـاقَّ هـو عمل كبـار السـنِّ الناضجـين، مـن الأمهـات والصبيـات الـلائي يحتفلـن ببلوغهـنَّ قريبًـا، ويقـول أيضًـا إن «جبريـل» وأهلـه هـم بمثابـة أسرتـه الخاصَّـة،

لأنهـم لم يسـتخدموه كماكينـة طحـين، ولأن ذلـكَ عمـلٌ لا يتـشرَّف رجـلٌ بـأن يقـوم بـه، فالرجـل يصطـاد ويحـارب ويـسرِّح الأبقـار ويحميهـا. وفي الأغنيـة أيضًـا يقـرِّر أنـه سـينتقم لنفسـه في يـومٍ مـا، وسـيكون انتقامـه مثـل انتقـام ثـور الجامـوس الـذي أكل الأسـد عجلـه.

ثـمَّ مـع مـرِّ الأيـام أخـذ يُدخـل في الأغنيـة بعـض الكلـمات العربيـة، حينهـا فقـط اسـتطاع أن يخمِّـن أفـراد الأسرة مـا هـي أغنيـات الطحـين الخاصَّـة بـ«غـزال» التـي ينشـدها بصوتـه الجميـل، عـلى الرغـم مـن الوحشـية التـي بصوتـه أحيانًـا أو في الطريقـة التـي يغنِّـي بهـا، موقَّعـة بصريـر احتـكاك حجـرَيِ الرحـى، وكشـيش درش الـذرة بينهـما، وتعبـير وجهـه الحزيـن. ولكـن الكلـمات العربيـة القليلـة التـي بهـا كانـت عبـارة عـن أسـماء للجامـوس والأسـد، وحجـر الرحـى، وجلـد فـرس البحـر، والقيـد، و«جبريـل»، و«شوشـايا»، والحربـة ذات النصـل الكبـير جـدًّا، وكثـيرًا مـا يذكـر الرَّبابـة التـي يحبُّهـا ويحلُـم بهـا ويشـتهيها، أمَّـا الأفعـال كلُّهـا فكانـت بلغتـه الأم. فقـد كان سـعيدًا مـع «جبريـل» عـلى الرغـم مـن اشـتياقه لأهلـه وأسرتـه وبلـده وأبقـاره، كان يقـول في أغنياتـه أيضًـا: إنـه مُسـتباح هنـا في البيـت بالـذات، بصـورةٍ تامَّـة، وإنـه لا يسـتطيع النـوم قبـل أن يسـتغني سـيده عـن خدماتـه ويضـع القيـد حـول سـاقيه حتـى لا يهـرب، ويغلـق عليـه بـاب الحُجـرة مـن الخـارج. وعليـه أن يسـتيقظ مبكـرًا لإعـداد اللـبن ورعايـة الأبقـار، وربمـا طحـن بعض الـذُّرة لاسـتخدامها في عصيـدة الإفطـار، وإنـه للأسـف لا يسـتطيع أن يذهـب إلَّا نـادرًا إلى «أجـاك» لـيرى الرَّبابـة.

قـضى «غـزال» عـلى هـذا الحـال زمنًـا طويـلًا، ولكنـه كان دائمًـا مـا يحلـم بأهلـه وقريتـه وبيـت أسرتـه وأصدقـاء الطفولـة، ويحلـم بـ«جبريـل» الـذي لم يفكِّـر فيـه كسـيِّدٍ بـل كأب، ويتذكـر الأمَّ «ملكـة الـدار» والصغـيرة «شوشـايا» الجميلـة المشـاغبة، التـي عـرف أنهـا تُوفيـت مـن سـيِّده الراعـي العجـوز، وعـرف أيضًـا أن أسرة «جبريـل» تقيـم في «الخرطـوم»، في مـكان

اسـمه «زقلونـا» يعيـش فيـه الفقـراءُ المعدمـون والوافـدون مـن الأقاليـم البعيـدة. وكان يعـرف جيِّدًا أن أهلـه بحثـوا عنـه كثـيرًا وسـألوا عنـه بعـض الأعـراب الذيـن يقابلونهـم في الأسـواق الكبـيرة المشـتركة، في المُـدن المجـاورة أو القـرى الكبـيرة، وهـي عبـارة عـن مراكـز تجاريـة وخدميـة. ولكنهـم لا يسـتطيعون أخـذه بالقـوة عـن طريـق مهاجمـة القريـة التـي يوجـد بهـا. نعـم، إنهـم قـد يهاجمـون القريـة، وخاصَّـةً بعـد انتشـار الأسـلحة الناريـة الفتاكـة، وتمكُّنهـم مـن اسـتخدامها بواسـطة المليشـيات التـي تعمـل عـلى اسـتقلال الجنـوب. ولكـن لا يعنـي ذلـكَ أنهـم سـيحصلون عليـه بصـورةٍ مؤكَّـدة، فالحـروب بـين أفـراد قبيلتـه «الدينـكا» والعـرب سـجالٌ ولا تتوقـف، والسـبي المتبـادَل أيضًـا لا يتوقَّـف، وقـد شـاهد بـأمِّ عينـه نسـاءً وأطفـالًا مـن العـرب سـباهم «الدينـكا» وأخفوهـم في قراهـم وسـط الأدغـال، وإنهـم يتحدَّثـون لغـة «الدينـكا» كـما يتحـدَّث الآن هـو لغـة العـرب، والنسـاء تزوَّجـن مـن أربابهـن «الدينـكا» والرجـال تزوَّجـوا مـن فتيـات «الدينـكا» أيضًـا، وأنجبـوا أطفـالًا بلـون المانجـو وطـول المهوقنـي. ويحـدث في أحيـانٍ كثـيرةٍ أن يتـمَّ تبـادل المسـبيين، امـرأةً بامـرأة، وطفـلًا بطفـل، ورجـلًا برجـل، أو فديتهـم بالأبقـار أو الأغنـام. وهـو أحيانًـا يحـسُّ بينـه وبـين نفسـه بأنـه أُهمِـل، وبـأن أسرتـه لا تهتـمُّ، أو أنهـا لا ترغـب فيـه، ولكنـه يطـرد تلـكَ الأفـكار ويتفـاءل بالخـلاص، إلى أن همسـت إليـه الرَّبابـة بفكـرة الحُريـة، وبـأن خلاصـه يجـب أن يوجـده هـو نفسـه، هـو بالـذات، ولا يمكـن أن ينتظـر الأسرة أو القبيلـة للأبـد.

كان في ذلـكَ الوقـت في سـنته الخامسـة عندمـا تـمَّ سـبيه، وقـد بلـغ مـن العمـر الثامنـة عـشرة الآن، وفكَّـر في الهـرب بجدِّيَّـة، وهـي المـرة الأولى التـي يفكِّـر فيهـا بالهـرب، وموسـم الأمطـار هـو الموسـم الأكـثر ملاءمـةً لذلـك، نسـبةً لصعوبـة ملاحقتـه عـبر الأحـراش والظـلام والخـيران، كـما إنـه يعـرف الاتجـاه بصـورةٍ جيِّـدة، ويعـرف أيضًـا كيـف يتخلَّـص مـن القيـد. لم يكـن في ظنِّـه أن أمـر القيـد معقَّـد، بـل إنـه في الغالـب كان رمـزًا أو حاجـزًا

نفسيًّا ثقيلًا، أكثر ممَّا هو قيد يمنع الهرب، أو يصعب التخلُّص منه، أو يستحيل، فهو عبارة عن حبل من جلد فرس البحر مشرب بزيت السمسم والقطران لكي يحافظ على مرونته، ويستطيع «غزال» قطعه والتخلص منه في أقلَّ من ساعتين بسكينٍ أو أية آلة حادَّة.

هنالكَ مسألة لا بدَّ من النظر إليها بعين الاعتبار، وهي أن «غزال» على الرغم من وضعه في القيد كلَّ ليلة إلا إنه لم يكن يخاف من القيد ذاته، ولكنه يخاف ممَّا يؤول إليه مصيره إذا تمَّ القبض عليه وهو في حالة هروب، هل سيفعل فيه سيِّده الراعي كما وعد أن يقوم بفعله إذا قبض عليه وهو في حالة هروب؟ هل سيعلِّقه على شجرة المهوقني من رجليه ورأسه إلى الأسفل إلى أن يموت ثمَّ يرميه طعامًا للذئاب؟ أم يقوم بقطع رجليه وربطه قرب حجر رحى الطحين ويستثمره كطاحونةٍ أبديةٍ للقرية كلِّها؟ كما تخيفه فكرة أن تأكله الذئاب والأسود كما حذَّره «جبريل» من قبل وهو في أيامه الأولى. ولكن في ذلكَ اليوم بالذات، يوم قرَّر ألَّا ينتظر منقذًا وأن يتحمل مسئولية حريته بنفسه، وأن يستخدم مخزونه الإنسانيَّ من الشرِّ الكامن فيه من أجل كلِّ الخير لنفسه؛ الشرِّ المعطَّل، حصلت المُعجزة، في ذلك اليوم الذي حصل فيه على حُلم حياته، وهو الربابة الساحرة المسحورة؛ حبيبة الحُلم.

في ذات الليلة بينما كان يحاول التخلُّص من القيد بقطعه بسكِّين الطعام التي سرقها بعدما انصرفت الجدة «أجاك»، وهي ذات السكين التي سيذبح بها سيِّده العجوز الراعي، وربما كلَّ أفراد أسرته، إذا به يسمع صوت إطلاق الرصاص والهُتاف وصيحات الحرب، ولم يكن في حاجةٍ لأن يخمِّن ما يحدث: إن جماعة مسلحة من المليشيات تهاجم القرية الصغيرة؛ قرية «أولاد أحمد»، تهدف إلى سرقة الأبقار والذُّرة، ولأن سكان القرية لم يكونوا مستعدِّين لذلك، فما عليهم إلا أن يلزموا بيوتهم وينتظروا ذهاب المهاجمين، ثمَّ يقوموا بترتيب صفوفهم

والتسلُّح جيِّدًا ووضع خطةٍ سريعةٍ للرد. إن الحرب وعنف المكان ووعورته علمتهم كيف يؤدُّون أعمالهم بالصورة المطلوبة وبالتريُّث المطلوب، فالحياة في مثل هذه الفلوات لا تتحمَّل المتهوِّرين الذين لا يتعلَّمون من تجاربهم في الحياة، ولا يفهمون دروسها اليومية، المندفعين المغفَّلين. عندما لا تكون هنالكَ سُلطة حكومية تحفظ أمن المكان يصبح الحفاظ على الحياة مسئولية المواطنين أنفسهم.

أسرَعَ في قطع القيد، ولكن القيد أقوى وأعند ممَّا تصور، فقد كان يقاوم نصل السكين بشراسة، ولم تستطع المُدية أن تعمل فيه سوى بعض الخدوش الصغيرة جدًّا، ويبدو أن الأمر يحتاج لأسبوعٍ كاملٍ من العمل اليوميِّ للتخلُّص من القيد. أُحبط إحباطًا شديدًا وحزن، فعندما حانت لحظة الخلاص تعقَّد الأمر. صوتُ الرصاص يعلو، ويُسمع بصورةٍ واضحةٍ هُتافٌ بلغة قبائل الجنوب. ويقترب الهتاف مرةً ويبتعد مرارًا. سكانُ القرية صامتون كأن لم يكن هنالكَ أحدٌ فيها، كأنها مقبرةٌ شاسعةٌ يسكنها الموتى. ينتظر المواطنون أن ينتهي المهاجمون المهرِّجون اللصوص من فعلاتهم، وبعد ذلكَ يعرفون كيف يردُّون لهم الصاع صاعين، فمن يهرب بمراحٍ من الأبقار لا يستطيع أن يمضي بعيدًا في وقتٍ قصير، وقتٍ يمكِّنهم من ترتيب أنفسهم وإعداد بنادقهم وسرج خيولهم ولبس تمائمهم وتأبُّط الشر. وإنهم متأكدون، سيدركونهم أينما حلوا، فأثر الأبقار يدلُّ عليهم وأنوف كلابهم الخبيرة الذكية ستقودهم إلى ما يصعب عليهم تحصيله بالعين والخبرة والتنصُّت. فمثل هذه الأحداث اعتادوها وخبروها جيِّدًا. كاد قلبه أن يطير من الفرح، عندما سمع أصوات البعض ينادونه باسمه القديم وهم يطوفون داخل القرية الصغيرة بين قُطياتها ورواكيبها وزرائبها الصغيرة والكبيرة، عبر سُوقها الصغيرة، كانوا يطوفون على ما يبدو بيتًا بيتًا وشارعًا شارعًا، رغم الظلام الدامس. كانوا يستخدمون بطارياتٍ يدويةً ومشاعلَ زيتيةً ليتبيَّنوا طرائق السير وعثرات الدروب.

وصرخ «غـزال» مسـتجيبًا للنـداء لمَّـا سـمع هاتفـين باسـمه خلـف القُطيـة التـي يقبـع فيهـا مبـاشرة، صرخ مناديًـا في حـماس:

- أنا هُنا، أنا هُنا «تابان»، هُنا «تابان» هُنا.

تَـمَّ تحريـره مـن القيـد الجلـديِّ المتـين بمسـاعدة بعـض المحاربـين الذيـن تجمَّعـوا حولـه. ومـن ثـمَّ، خـرج وهـو يـصرخ فرحًـا بحريتـه، ولم يحمـل شيئًا مـن تلـك القريـة سـوى حريتـه والرَّبابـة، وحبَّـه لـلأم «أجـاك» الطويلـة. وتـرك في قُطيتـه جـوار القيـد الحقـير المصنـوع مـن جلـد فـرس البحـر، حقـده وكرهـه أيضًـا لمـن وضعـه في القيـد، ولمـن باعـه، ولمن شغَّله ماكينـة طحـين. ولأن الجنوبيـين والعـرب أيضًـا يعرفـون أن كلَّ شيء يمكـن تسـويته بسـهولة وتداركـه وحلُّـه والرجـوع عنـه، مـا عـدا قتـل النفـس، فـإن المهاجمـين تجنَّبـوا إطـلاق النـار المبـاشر عـلى المنـازل أو حرقهـا. ولأن سُـكان القريـة يعرفـون أن الدفـاع الفـرديَّ غـير المنظـم ضـدَّ مجموعـةٍ مهاجمـةٍ منظمـةٍ قـد يقـود إلى المـوت أو السـبي، فـإن كلَّ واحـدٍ منهـم عمـل بحكمـة الأجـداد:

«العجلة من الشيطان»

«وما ضاع حق وراءه مُطالب»

«أبونقدح[1] يعرف وين يعض أخوه»

لـذا لم تحـدث أيـة صدامـات بـين المجموعتـين، سـوى تلـك التي نشـبت بـين المهاجمـين والـكلاب الشرسـة التـي تضجُّ في رعـبٍ محاولـةً إيقـاظ سـكان القريـة الذيـن لا يريـدون أن يسـتيقظوا في هـذه اللحظـة بالـذات: فـما كانـت الـكلاب تعـرف حكمـة صمـت أصحابهـا، وادعاءهـم الصمـم أو النـوم.

تلـك الليلـة كانـت مظلمـةً مثلهـا مثـل ليـالي الصيـف المطـير، والسُّـحب

(1) السلحفاة.

السـوداء تحجـب كلَّ المحـاولات المسـتميتة لأشـعة النجـوم لإشـعال ليـل القريـة الداكـن بالضـوء. هـو لا يعـرف الأفـراد الذيـن أنقـذوه، ولم يعُـدْ يتذكَّـر أصـوات أفـراد أسرتـه ولا أحـدًا مـن القريـة، كانـوا يَجِـدُّون في المسـير في اتجـاهٍ مـا، ليـس الاتجـاه الـذي كان دائمًـا مـا يظـنُّ أن قريتـه تقـع فيـه، ولم يأخـذوا أبقـارًا أو أيـة حيوانـات، لم يأخـذوا أسرى أو ذُرة، كانـوا يأخذونـه هـو فقـط لا غـير.

وبعـد مسـيرةٍ دامـت أكـثر مـن خمـس سـاعات متواصـلات، وعندمـا أخـذ ضـوء الشـمس يغطِّـي الأرض الطينيـة الحمـراء المعشوشـبة، كانـوا يعـبرون «نهـر العـرب» سـباحةً في اتجـاه الجنـوب. في الشـطِّ الآخـر، عـرف أن الذيـن أنقـذوه، مـن بينهـم أصدقـاء طفولتـه الذيـن تغـيَّرت ملامحهـم مثلـه وأصبحـوا رجـالًا بالغـين، وهـم الآن ينضـوون جميعًـا تحـت إمـرة إحـدى المليشـيات المُسـلَّحة التـي تتبـع المقاتلـين الجنوبيـين. وعـرف أنـه لـن يعـود إلى القريـة، عـلى الأقـل الآن، عليـه أن يتـدرَّب عـلى حمـل السـلاح، وفنـون القتـال مـن كـرٍّ وفـرٍّ ومراوغـة، ويصـير معهـم جُنديًّـا مـن أجـل اسـتقلال الجنـوب عـن الشـمال، وأخـذ الحقـوق الاقتصاديـة والسياسـية والاجتماعيـة لشـعوب الجنـوب، وإقامـة دولـة القانـون والعـدل في السـودان كلِّـه؛ أيْ بفكـرة «السـودان الجديـد» التـي كان لهـا صيـتٌ ومنـاصرون في تلـكَ الأيـام، وخاصَّـةً بـين الشـباب المعجبـين بالقائـد المرحـوم «جُـون قـرن دي مبيـور».

كلُّ هـذه الأفـكار كانـت غريبـة وجديـدة بالنسـبة لـه؛ فكـرة الحـرب وفكـرة الحكـم وفكـرة الدولـة، ومـاذا يعنـي الشـمال ومـاذا يعنـي الجنـوب ومـا هـي الدولـة الموحـدة، ولمـاذا وكيـف؟ ولأوَّل مـرة يعـرف أن هنالـكَ عربًـا غـير العـرب الذيـن يعرفهـم، وأن هنالـكَ قبائـل أخـرى ليسـت «دينـكا» ولا «نويـر» أو «شـلك» أو «لكويـا»، وأن هنالـكَ غربًـا وشرقًـا وشـمالًا وجنوبًـا ووسـطًا و«نوبـة» و«بجـا» و«هوسـا» و«فـور». كان

الأمر غير مفهومٍ لديه وأغرب من الكابوس، ولكنهم جعلوه يفهم، ثم أعطوه بندقيةً أيضًا ليقاتل العدوَّ الذي عرفه للتو، والذي ما كان يدركه أو يميِّزه طوال عمره، بل ما كان يعرف من هو دكتور «جُون قرن دي مبيور»! ذلك الشخص الذي تغنَّى به لاحقًا، بعد سنواتٍ طويلة، في يوم استقلال الجنوب، قائلًا:

«لقد كنتَ الشمعةَ التي،

عندما عمَّ ضوءُها كلَّ مكان،

كَمُلتْ.»

لا أدري ما إذا كُنتُ سأربك القارئ جدًّا أو إلى حدٍّ كبير، إذا ذكرتُ هُنا، دون أية تفاصيل أو تقدماتٍ وحِيَلٍ سردية، أنَّ هذا الرجل الذي اسمه «غزال»، أعاد إلى نفسه اسمه القديم «تابان» فيما بعد، ولو أن اسم «غزال» كان يعجبه أيضًا، لجمال الغزال وسرعته ونحافته. وقد تزوَّج «تابان» من «رشا جبريل أدومة كيري»، ابنة «ملكة الدار»، في مدينة «الخرطوم» بحي «زقلونا» في اليوم الذي حدث فيه انفصال جنوب السودان عن شماله، وإعلانه دولة مستقلة.

تزوَّجا في مدينة «جوبا» عاصمة دولة «جنوب السودان» في 9 يوليو 2011؛ اليومَ نفسه الذي تغنَّيا فيه معًا:

«لقد كنتَ الشمعةَ التي،

عندما عمَّ ضوءُها كلَّ مكان،

كَمُلتْ.»

وأغنياتٍ أخريات ...

جُنُونُ الدِّيكُ

قـرَّر بينـه وبـين نفسـه أنـه إذا تـمَّ علاجـه مـن داء الديـك فلـن يقابلها أبـدًا مـا عـاش عـلى وجـه الأرض، ولا يُريـد أيضًـا أن يراهـا حتـى في يـوم القيامـة. لكـن عليهـا ألَّا تغـادر حجرتـه الآن. يُريدهـا أن تحميـه، هـي الطاقـة الوحيـدة في هـذا الكـون التـي تقـدِّم لـه القـوة اللازمـة لحمايتـه ودعمـه النفـسِّي وتهدئـة أعصابـه، وتعطيـه الأمـل في حيـاةٍ خاليـةٍ مـن الآلام والفقـر، ومنهـا هـي أيضًـا فيـما بعـد. أمَّـا عيناهـا فيسـتطيع أن يتجنَّبهـما. هاتـان العينـان المرعبتـان سـهَّلتا عليـه مسـألة التنجيـس.

لم يكـن «فتـح اللـه فـراج» هـو الحالـة الوحيـدة التـي أصيبـت بـداء الديـك، بـل ظهـر في البـلاد كلِّهـا مـا يُعْـرف بـ«الحالـة الديكيـة»، وهـي أقـرب لمـا يُسـمَّى بـ«جنـون البقـر»، حتـى أطلـق عليـه بعـض الأصحـاء السـاخرين؛ أيْ الذيـن لم يُصابـوا بـه: «جنـون الديـك».

أُصيـب كلُّ الذيـن دخلـوا قبـور النُّوبـة وحصلـوا أو لم يحصلـوا عـلى الذهـب، بمـرض «جنـون الديـك النـوبي». وأصبـح الـصَّرف عـلى علاجـه كبـيرًا جـدًّا، خاصَّـةً بعدمـا ظهـر سَـحرةٌ وفُكيـان وسـاحرات جـاءوا مـن «بَاسُـندة» و«الكُرمـك» و«أبِيغُـو» بالنيـل الأزرق، وادَّعـوا المقـدرة التامَّـة عـلى معالجـة تلـكَ الحـالات الديكيـة المُعقَّـدة، وحـدَّدوا مبلغًـا كبـيرًا لتكلفـة العـلاج، مـع سَـفك دم ديـكٍ أحمـرَ، كلَّ يـوم تقريبًـا، عشـاءً للسـاحر أو السـاحرة، وعمـل بخـور وتمائـم مـن ريشـه ودمـه للمريـض. مـع العلـم بأنـه لم تتـم معالجـة أيـة حالـة، وللأبـد، ولكـن المـرضى يـصرُّون عـلى مواصلـة التـداوي حتـى لا يفقـدوا الأمـل في حيـاة صحيـة خاليـة مـن تدخُّـل الديـك السـافر. وكثـير مـن السـاحرات كُـنَّ يطلـبن بعـض الذهـب، وربمـا قِلـةٌ منهـنَّ مارسـن الجنـس مـع المـرضى. المقصـود هنـا «الجنـس العلاجـي» كـما أطلـق عليـه السـاحرات أنفسـهنَّ منعًـا للبـس في المعـاني، وتجنُّبًـا للظنـون القبيحـة. مثـل تلـكَ السـاحرة التـي أُحـضِرت خصِّيـصى من قريـةٍ عـلى «قَطْـع وَرْقَـيْ» (يعنـي خـور الذهـب بالأمهريـة)، الـذي يقـع فيـما بـين إثيوبيـا والسـودان، يسـمِّيها السُـكان بلغتهـم المحليـة: «أنجروتـا» وتعنـي «السـلام عليكـم» بلغـة «البَرتَـا» الشـائعة في تلـكَ الأمكنـة.

الوضـع الصحِّـيُّ لـ«فتـح اللـه فـراج» بـدأ يـزداد سـوءًا، وعـرف تقريبًـا كلُّ المحيطـين بـه والجـيران والذيـن يتعاملـون تجاريًّـا معـه وقدامـى الأصدقـاء والجـدد أيضًـا، أن «فتـح اللـه فـراج» أصيـب بجنـون الديكـة، وشـاهدوه يتحـدَّث مـع الديـك الـذي لا يرونـه، بـل أخـذ يصـاب بحالـة مـن الذعـر، ويقـوم خلالهـا بتصرُّفـاتٍ غـير لائقـة، مثـل الجـري في الشـوارع

مثـل المجانـين، أو التخلُّـص مـن ملابسـه والبقـاء عاريًـا كـما ولدتـه أمُّـه، أو حـكِّ ظهـره بأظافـره إلى أن يدمـى جلـده، أمَّـا مسـألة النـوم فغـدت مـن المسـتحيلات، حيـث لا يسـتطيع أن يفـرِّق مـا بـين النهـار والليـل. مـمَّا جعـل زوج أختـه يسـتعين بتلـك السـاحرة المشـهورة التـي كانـت تقيـم في قريـة «أنجروتـا» بالنيـل الأزرق، وكان قـد جرَّبهـا مـن قبـل في خدمـةٍ لمسـئولٍ كبـيرٍ في وزارة التربيـة الاتحاديـة كاد أن يفقـد وظيفتـه نتيجـةً للحسـد والغـيرة مـن قبـل بعـض الذيـن يطمعـون في موقعـه الرفيـع، تلـكَ السـاحرة هـي مـن أزال تأثـير الحسـد، بـل حوَّلتـه إلى محبَّـةٍ طاغيـةٍ مـن جانـب أعدائـه وحاسـديه، لدرجـة أنـه أصبـح يخـشى مـن حُـبِّ الآخريـن لـه، وكثـيرًا مـا أحـسَّ بالضيـق مـن المحبَّـة الزائـدة، لأنـه في قـرارة نفسـه يعـرف أنهـا محبَّـةٌ مسـحورةٌ ومصطنعـة، في باطنهـا ليسـت سـوى حسـدٍ مُعـبِّرٍ عـن بالحُـبِّ أو بمـا يشـبه الحُـب، وأصبـح يؤمـن بالحكمـة التـي تقـول: «مـن يكرهـك جنَّبـك شرور محبَّتـه» ولكنـه عـلى كلِّ حـال، سـيبقى في وظيفتـه إلى أن يتوفـاه اللـه، وهـذا مـا أكَّدتـه لـه السـاحرة «أنجروتـا»، التـي أطلقـوا عليهـا اسـم قريتهـا عـلى مـا يبـدو، أو قـد يكـون هـو اسـمها أيضًـا.

«أنجروتا يقول: تحيى وتموت في شغلك!»

الطريقـة المثـلى لطـرد الديـك في ظنِّهـا، بذبـح ديـكٍ يوميًّـا، وتدخـين المريـض والبيـت بريشـه مخلوطًـا مـع أوراق شـجرة «ابونقـوي» ناشـفة طبعًـا، مـع بعـض التمائـم التـي لـن تكشـف عن اسـمها، لـكي تكـون جديرةً بلقـب السـاحرة، وأن يبقـى المريـض في حالـة نجاسـةٍ دائمـة، وهـذا هـو مـا جعـل اسـتخدام الجنـس للمـداواة واجبًـا وطبيعيًّـا، ولا تشـترط السـاحرة أن يحـدث ذلـكَ معهـا هـي بالـذات، ولكـن يمكـن أن تُحضر إليـه أيـة امـرأة أخـرى (مـا عـدا زوجتـه) مثـل تلـكَ النسـاء الـلائي يعملـن مـع الدهابـة في الصحـاري ومواقـع تعديـن الذهـب، جنبًـا إلى جنـب مـع قـدرٍ معقـولٍ مـن

اللوطيين، من أجل إكساب عمال التعدين النجاسة لا غير، مقابل مبلغٍ قليلٍ من المال أو الذهب يُدفع للداعرة أو اللوطي. بالتالي، الساحرة أولى بالشيء، لقربها من المريض، ولمعرفتها بأهمية الفعلة، ولصعوبة إيجاد امرأة تقوم بهذه المهمَّة في «الخرطوم»، حيث إن الحكومة لها حساسيةٌ عاليةٌ من كلِّ ما هو جسديٌّ وجنسي، وتدخل أنفها حتى في الحياة الجنسية العلاجية الطبيعية للبشر، وذلكَ حسب ملاحظة الساحرةِ الطيبةِ «أنجروتا».

بعد الظهور العلنيِّ الأول للديك، قبل شهورٍ كثيرة، لم يظهر مرةً أخرى لأفراد الأسرة أو غيرهم، ما عدا المريض وحده، وهذا ملاحظٌ في كلِّ حالات الأشخاص الآخرين المصابين بجنون الديك، حيث لم يظهر الديك للآخرين غير مرةٍ واحدةٍ، ولكن الساحرة تقول إنها تراه في كلِّ وقت وكلِّ يوم، وهذا أمرٌ مشكوكٌ فيه، وربما تريد «أنجروتا» أن تُوجد لنفسها وضعيةً خاصَّةً، وتقوِّي موقفها السِّحْرى، وتؤكِّد على اختلافها النوعي.

مثل كلِّ مرضى جنون الديك، كان «فتح الله فراج» متمسكًا بها جدًّا، وكان يضع آمالًا عريضة، بل كلَّ آماله فيها، ويظنُّها المنقذ والمنجد له من الديك الشرس اللئيم، ومن حياة الضنك والرعب، وهو على استعداد أن يتنازل لها عن ربع ثروته إذا عالجته، بل نصف ثروته. كان يحسُّ بالأمان عندما تكون قريبةً منه، فهي لا تتحدَّث كثيرًا ولكنها تعمل في صمت، حتى عندما تصيبه بالنجاسة فإنها تصيبه أيضًا بصمتٍ وتأدُّب.

بدا أكثر هدوءًا واتزانًا، كما أخذ يأكل بصورةٍ شبه منتظمة، ولو أنه كره رائحة دخان ريش الديك التي تشبه رائحة النشادر، وتصيبه في أحيانٍ كثيرةٍ بالاختناق والغثيان. قلَّت أوقات الغيبوبة التي تراوده بين حينٍ وآخر، ولكنه يريد التحسُّن الفعليَّ والسريع، يريد أن يعود

لأعمالـه التجاريـة في السـوق، تجـارة العربـات الخـردة والمناقصـات في دلالات الجيـش والشرطـة وغيرهـا مـن السـيارات الحكوميـة، حيـث يحقِّـق منهـا أرباحًـا كبـيرةً تمكِّنـه مـن مضاعفـة أموالـه، ولديـه أيضًـا فريـقٌ متكاملٌ لتعديـن الذهـب مُعـدٌّ بصـورة طيبـة، يبـاشر عملـه بجديـة، عليـه وكيـلٌ محـترمٌ وأمـينٌ جـدًّا يثـق فيـه كثـيرًا. يريـد أن يعـود إلى أشـغاله الكثـيرة، وأن يسـتمتع بحياتـه بصـورة طبيعيـة عاديـة، مثلـه مثـل كلِّ إنسـان عـلى وجـه الأرض، يريـد أن يكـون سـعيدًا، بـل سـعيدًا جـدًّا، والمـال هـو مفتـاح السـعادة في الحيـاة، والفقـر قاتلهـا الأوحـد. ولا يظفـر بذلـكَ إلَّا بعيـدًا عـن الديـك اللعـين وشروره. عليـه أن يثبِّـت رجليـه في السـوق في اسـتثماراتٍ كثـيرةٍ مختلفـةٍ ومتنوعـة، حتـى يكـون في مأمـنٍ مـن الكـوارث التـي تحـدث بـين حـينٍ وآخـر في أحـد المجـالات أو الأنشـطة التجاريـة فتكسـده. لـولا أنـه لا يريـد لابنـه أن يـترك الدراسـة، ويريـده أن يتخـرَّج في كليـة معتـبرة ويحمـل شـهادةً كبـيرةً ترفـع رأس الأسرة بـين الطبقـات الثريـة التـي ينتمـون إليهـا الآن، لسـلَّمه إدارة كلِّ مالـه واسـتثماراته ليديرهـا بنفسـه، فالمـال لا يصونـه غـير صاحبـه، والمـال دون سـيِّده يتيـمٌ ومسـتباح. أمَّـا البنـت فهـو لا يثـق في أنهـا قـد تقـوم بعمـلٍ مفيـدٍ في مجـال المـال والأعـمال والاسـتثمار؛ فهـي مشـغولةٌ جـدًّا بحياتهـا الخاصَّـة مـع زوجهـا، وتترقَّـب إنجـاب الطفـل بـين وقـتٍ وآخـر، وهـي أيضًـا غـير مهتمَّـةٍ بأشـياء قـد تعكِّـر مزاجهـا وتخـرِّب سـكينتها. البنـتُ تعيـش في عالمهـا بعيـدًا عـن كلِّ شيء. ولم يفكِّـر لحظـةً في أن يعطـي «نـصرة» إدارة المـال، فهـو يعـرف أن «نـصرة» مـا زالـت تعيـش عُقـدة أن هـذا المـال ليـس حـلالًا عليهـم، مـا لم يعيـدوا أصلـه لأصحابـه وهـم أبنـاء «جبريـل أدومـة كـيري»، صديقـه المرحـوم، ولم يسـتطع أبـدًا أن يجعلهـا تقتنـع بفكـرة أنـه يدفـع ثمـن هـذا الـثراء مـن صحتـه ولحمـه ودمـه، ولم تقنعهـا فكـرة عقـده مـع الديـك في مغـارة الرجـل الميـت في جبـل «عضـو الكلـب». ألم يطلقـا مثـل هـذه الكذبـات منـذ أن تحصَّـلا عـلى بيـض الديـك؟ فلقـد كذبـا كثـيرًا، ومـا زالا

يكذبان على الجميع، حتى أبناؤهم لا يعرفون حقيقة مصدر المال إلى اليوم. «نصرة» ليست بالشخص المناسب لإدارة المال، «نصرة» لم تتعلم من الفقر أن المال ضروريٌّ، ليس من أجل الحياة الكريمة فحسب، بل من أجل تجنُّب الفقر، ومن لم يكن معدمًا لا يعرف لؤم الفقر. الديك يعطِّل كلَّ مشروعاته، وقد يرميه في بالوعة الحاجة والعوز مرةً أخرى. «عليه لعنتي الخاصَّة.»

- خلصيني منه بسرعة أنا تعبت وتعطلت مصالحي!

الساحرة دائمًا ما تطلب منه التريث:

- الصبر يا «فتح الله فراج» الصبر. ما يدخل في ساعة من الزمن قد لا يخرج في سنوات. الله يقوي إيمانك، الصبر مفتاح الفرج، والمال فيهو الجنون. والسعادة مسألة حظ يا «فتح فراج». والراحة من الله.

الساحرة كانت فيما فوق الخمسين من عُمرها، ربما كانت سمينةً بعض الشيء في شبابها وأكثر طولًا، هي الآن نحيفةٌ ولها زوائد جلدية في كلِّ جسدها، وثديان كبيران متدلِّيان مثل كيسين جلديين فارغين. ظهرها به انحناءةٌ طفيفة، لها كفَّتان ناعمتان وقويتان، تفوح من أنفاسها روائح أقرب لعبق اللبن، وأحيانًا فوح العُشب البريِّ الرطب. ليست طويلة جدًّا، وجهها وسيمٌ وبه نقش بالإبر لا يمكن إحالته لشيءٍ بعينه، شفتاها مطليتان بلونٍ أسودَ دائم، يُصنع من عصارة عُشبةٍ تنمو في الجبال عند بداية الفصول المطيرة، وتلكَ صفةٌ جماليةٌ يتغنَّى بها شُعراء وفنانو الغابات في بلادها. عيناها صغيرتان ونظرها حاد، «فتح الله فراج» لا يستطع أن ينظر إليها في عينيها، كانتا تدخلان فيه الرُّعب، أو تثيرانه بطريقةٍ جنونية، ربما عيناها هما اللتان جعلتا منها ساحرة، أو إن سرَّ سحريتها هو في هاتين العينين. قرَّر بينه وبين نفسه أنه إذا تمَّ علاجه من داء الديك فلن يقابلها أبدًا ما عاش

علـى وجـه الأرض، ولا يُريـد أيضًـا أن يراهـا حتـى في يـوم القيامـة. لكـن عليهـا ألَّا تغـادر حجرتـه الآن. يُريدهـا أن تحميـه، هـي الطاقـة الوحيـدة في هـذا الكـون التـي تقـدِّم لـه القـوة اللازمـة لحمايتـه ودعمـه النفـسِّي وتهدئـة أعصابـه، وتعطيـه الأمـل في حيـاةٍ خاليـةٍ مـن الآلام والفقـر، ومنهـا هـي أيضًـا فيـما بعـد. أمَّـا عيناهـا فيسـتطيع أن يتجنَّبهـما. هاتـان العينـان المرعبتـان سـهَّلتا عليـه مسـألة التنجيـس. فبمجـرَّد نظـرةٍ سريعـةٍ لعينيهـا الغريبتـين بينـما هـي تمتطيـه — مُدَّعيـة بـأن ذلـكَ دون أيِّ اشـتهاء، إنمـا مـن أجـل العـلاج — يحصـل «فتـح اللـه» عـلى نجاسـةٍ عاجلـةٍ تكفيـه ليومـين قادمـين وأكـثر إذا لم يسـتحمَّ ويتوضـأ مـن أجـل الصـلاة التـي يحـاول أن يحافـظ عليهـا مـا أمكـن.

سِفْرُهُمَا

تمنَّى «أحمـد» أن تكون تلـكَ الشـائعة التـي ابتكرتها «مـيرم» صحيحة، ولـو أنـه لم يسـمع بهـا مـن قبـل، ولا يهـمٌّ لسـان النـاس وتقوُّلاتهـم، فإنهـم عـلى كلِّ حـال لم يرحموهـما، ويظنُّـون بهـما الظنـون، ولـو أن الظنـون لم تكـن سـوى عـين الحقيقـة، بـل إنهـما يفعـلان مـا يفـوق ظنـون الظانِّـين وإيهـام الموهومـين وقِيـلِ القائلـين. بـل مـا يجعـل إبليـس نفسـه يقـف مشـدوهًا ومحتـارًا مـن نزقهـما. ولم يـرَ «أحمـد» أو تـرى هـي في ذلـكَ عيبًـا، فهـما عاشـقان ويعرفـان أنهـما سـيتزوَّجان في يـومٍ مـا وملتزمـان ببعضهـما البعـض، ويفعـلان مـا يريـدان في حياتهـما، وهـما حُـرَّان طالمـا كانـا يسـتمتعان بجنونهـما: ومـن لا يعجبـه ذلـكَ فليـشرب مـن مـاء البحـر.

سأل «أحمد زكي» زوجته «ميرم» وهو مندهش، عندما شرحت له كيف إنها أقنعت أمَّها بالزواج منه بتلك السُرعة؛ فلقد أطلقت «ميرم» شائعة أنها حُبلى لكي تتخلَّى أمُّها عن أفكارها المُنحرفة وغير المنطقية فيما يخصُّ الدراسة والجامعة وخُرافات الطبِّ والهندسة:

- وكيف أقنعتِ أمك بأنك حامل؟

قالت ضاحكةً وهي تطلق دخان سيجارتها في وجهه مباشرةً بمتعةٍ مجنونة، وتفعل ذلكَ ليس نتيجةً لعدم الاحترام أو لإغاظته، بل هي إحدى سُبل الغواية التي تستخدمها لجرجرة حبيبها إلى السرير، كأنما أصبح ذلكَ طوطمًا لا يقاوم سحره:

- همستُ لها في الصباح الباكر، قلت ليها الدورة الشهرية ما جات ليها شهرين وأسبوع من وقتها المحدَّد، فجنَّت المسكينة والفار لعب في عبها. وعندما استفرغتُ قربها البيض الذي ابتلعتُه نيئًا مع الحلبة ولبن شجرة العُشر، كانت عيونها أصبحت مثل الجمر حمر وصُغاار، وطارت الجامعات والأحلام من رأسها في لحظات مثل العصافير. وجاتني بعد يومين وكنا بنستمتع بالموسيقى وقالت لي: «سيكون الزواج خلال أسبوع جهزي نفسك!» قلتُ لها وأنا أمسك بطني: «أنا جاهزة يا ماما حبيبتي.» ولم أقل لك، أنت كنتَ في الغُرفة معاي، يوم البلكونة يا «زكي»! عندما أمي دقت الباب ومشيت ليها وتكلمت معاها!

ضحكا بمتعة، لم تنقصها سوى «هترشات» أبيها التي تصلهما بين حينٍ وآخر وهو يحاور ديكه اللعين، وأدعية وطلاسم الساحرة محاولةً تهدئته، وصلاتها بصوتها الجهوريِّ الخشن. فـ«ميرم» أيضًا كانت حزينةً من أجل أبيها، ويتقطَّع قلبها ألمًا عندما تسمع هلوساته، وبينها وبين نفسها تظنُّ أن أباها قد أُصيب بمسٍّ من الجنون أتى به من آبار الذهب، مثله مثل كلِّ الذين أُصيبوا بجنون الديك. وتعرف أن والدها

سيموت قريبًا، كما مات الذين أُصيبوا بنفس المرض من قبله، وكما مات صديقه «جبريل كيري»، والموت خيرٌ له من العذاب الدائم. ففي الموت راحةٌ له مادام علاجه مستحيلًا.

تمنَّى «أحمد» أن تكون تلكَ الشائعة التي ابتكرتها «ميرم» صحيحة، ولو أنه لم يسمع بها من قبل، ولا يهمُّ لسان الناس وتقوُّلاتهم، فإنهم على كلِّ حال لم يرحموهما، ويظنُّون بهما الظنون، ولو أن الظنون لم تكن سوى عين الحقيقة، بل إنهما يفعلان ما يفوق ظنون الظانِّين وإيهام الموهومين وقِيلِ القائلين. بل ما يجعل إبليس نفسه يقف مشدوهًا ومحتارًا من نزقهما. ولم يرَ «أحمد» أو ترى هي في ذلكَ عيبًا، فهما عاشقان ويعرفان أنهما سيتزوَّجان في يومٍ ما وملتزمان ببعضهما البعض، ويفعلان ما يريدان في حياتهما، وهما حُرَّان طالما كانا يستمتعان بجنونهما: ومن لا يعجبه ذلكَ فليشرب من ماء البحر.

يفكِّر «أحمد زكي» بجدية في أن يرحل هو و«ميرم» إلى بيته في أطراف «أم درمان»، وأن تقوم «ميرم» بتأجير شقتها التي وهبها لها والدها في قصره حيث يقيمان، لمستأجرٍ بمبلغٍ ما، ولكن «ميرم» لا ترغب في الرحيل، من أجل والدها، فهي تريد أن تكون قريبةً منه، والشيء الآخر أن «ميرم» تفضِّل الحياة المنعَّمة الرغدة في البيت النظيف الجميل، حيث تتوفَّر كلُّ سبل الحياة، على أن تعيش في تلكَ الصحراء القاحلة دون أية أسباب مقنعة، وعلى «أحمد» أن يقوم بتأجير بيته إذا وجد من يرغب في العيش هنالك. إنها تحبُّ ذلكَ البيت، ولها فيه ذكريات جميلة، وقضت فيه أجمل لحظات عمرها، وهو المكان الذي تعرَّف فيه جسدها للمرة الأولى على نفسه من خلال جسد الآخر، ويعجبها أن تقول إنها تركت عذريتها بين جدرانه، ولكن الذكريات الجميلة وحدها لا تكفي للمغامرة وتصعيب الحياة، فلا يوجد مصدرٌ للماء دائم، كما إن المرحاض الذي اكتمل الآن ليس سوى حفرةٍ في الأرض:

- وليه العذاب يا «أحمد» والشلهتة!

- أحس أننا سنكون أسعد في بيت يخصنا، بيت بنيناه بعرقنا مهما كان بسيطًا وحقيرًا وصغيرًا.

ومراعاةً لمشاعرها وخوفًا من غضبها وحَزَنِها، وحُبًّا وعشقًا وجنونًا بها، لم يقُل لها ما يريد قوله بالفعل؛ أيْ إنهما الآن في بيتٍ لا يعرف مصدر الأموال التي اشتُرِي بها، أهو من دم «جبريل» أم من ماله، أم هو مالٌ حلالٌ وشرعيٌّ من كنزٍ عثر عليه والدها المصاب بالجنون، الذي يصيح في هذه اللحظة مثل ديك الإنجيل.

سِفْرُ الاتِّحَاد

هنالـكَ تفاصيـل كثـيرة، وأمـورٌ جـرت بسرعـة، وغرائـب وعجائـب تحـدث كـما في الأحـلام. ولكـن مـا يميِّـز كلَّ شيءٍ كان الجنـون الممـزوج بالعاطفـة، لم يسـتطِع بقيـة أفـراد الفرقـة التـي تخـصُّ «رشـا» والفرقـة الأخـرى التـي تخـصُّ «غـزال» أن يفرِّقـوا بـين شـيئين مهمَّـين، هـل هـذا العنـاق عنـاق أخويـن افترقـا منـذ بـدء الخليقـة والتقيـا الآن، أم إنهـما عاشـقان شـتيتان تقطَّعـت بهـما سُـبل الوصـل ألـف عـامٍ ونيِّـفٍ والتحـما الآن في شـخصٍ واحـد! هـل يكفـي أسـبوعان للوقـوع في الحُـب؟ لسـتُ أدري، ولكنهـما يكفيـان لـكي يتَّحـد رجـلٌ بامـرأةٍ، وهـذا مؤكَّـد.

حضر «جبريل» قبل خمسةٍ وعشرين عامًا إلى هذه المنطقة من قريته بريف «هجليج» جنوب كردفان، سُمِّيت قرية «أولاد أحمد» على جده «أحمد الجنيد». كان يصطحب ابنته «شوشايا»، وزوجته «ملكة الدار»، وبجيبه حوالي أربعمئةٍ من الجنيهات، نصفها سعر الطفل «غزال» المُستبى الذي باعه لأحد أصدقائه الرعاة، على الرغم من أنه كان يحبُّه جدًّا. ولكن، الفقرُ غَلَّابُ المَحَبَّة.

ليس لديه من متاع الدنيا غير مركوبٍ واحدٍ من جلد البقر، قبيح اللون من تأثير فعائل الأزمنة والأمكنة، ولكنه متينٌ ويصلح للاستخدام إلى ما لا يقل عن خمسين عامًا دون أن يتلف، فهو يرتديه دائمًا، ذلكَ المركوب صاحبَه في كلِّ رحلاته وحوادث حياته الحزينة والسارة، فقد حضر به زواجه من «ملكة الدار»، وذهب به إلى دفن والده وابنته «شوشايا» فيما بعد، ودار به في المدينة لبيع اللحمة، وهو أيضًا كان معه في رحلة البحث عن الذهب وفي أعماق المناجم، وانحشر معه في قبور النُّوبة القدماء، وفي الرحلة إلى مغارة الرجل الميت في جبل «عضو الكلب» مع الخواجة الغامض، وعندما مات كان هذا المركوب يقبع تحت سريره يراقب طلوع الروح في حزن، ويودِّع صاحبه في صمتٍ جلل. والآن تحتفظ به زوجته «ملكة الدار» في مكانٍ أمينٍ داخل بيتها. له جلبابان وطاقية وعمامة قصيرة جدًّا، منقوشة الجوانب بالكروشية، كانت هدية زوجته له قبل زواجه منها بعام، وهي علامة الحُبِّ والاصطفاء، وكانت زوجته أيضًا تمتلك ثوبين، أحدهما على جسدها والآخر في حقيبة الصفيح التي بها كلُّ مدخراتهم، من آنيةٍ صينيةٍ أصليةٍ وملابسَ وحليٍّ نُحاسيةٍ وذهبٍ مغشوشٍ وبعض العقود، والحلق البلديِّ المصنوع من الخرز والودع لها ولطفلتها «شوشايا»، ولها شبشبٌ واحدٌ ترتديه كلما خرجت من المنزل.

كانـت رحلتـه إلى «زقلونـا» ليسـت اختياريـةً كـما سـلف ذكـره، فلقـد أصبحـت القريـة غـير آمنـة، وخـاف مـن التعـرُّض للسـبي أو القتـل في أيـة لحظـةٍ مـن اللحظـات، فليسـت هنالـكَ سـلطاتٌ حكوميـةٌ تقـوم بالحمايـة، وإن الحيـاة نفسـها أصبحـت لا تُطـاق، نتيجـةً للمـوت الجماعـيِّ للأبقـار بأمـراضٍ غـير معروفـة، أو سرقتهـا عـن طريـق اللصـوص القبليـين، أو الجيـوش الحكوميـة والمليشـيات التـي تمـرُّ ليـل نهـار بتلـك الفلـوات البعيـدة عـن العواصـم والمـدن الصغـيرة الأخـرى، فالحيـاة في القريـة إمَّـا آكل وإمَّـا مأكـول، وهـو يريـد أن يعيـش، ليـس كمقاتـلٍ ولكـن كمواطـنٍ عـاديٍّ مـدني.

بالتأكيـد ليـس مـن السـهل عـلى «جبريـل» أن يخمِّـن أنـه في يـومٍ مـا سـيتزوَّج «غـزال» ابنتـه «رشـا جبريـل»، أولًا لأنـه يعلـم علـم اليقـين أن «غـزال» لـن يسـتطيع أن يفلـت مـن قبضـة ذلـكَ الراعـي، ربمـا للأبـد، لأن الراعـي كـما يربـط ويقيِّـد بهائمـه، فقـد قـام بوضـع القيـد حـول رجـلَيْ «غـزال». نعـم، قـد تفديـه أسرتـه أو يتـمُّ اسـتبداله بمخطـوفٍ مـن قبيلـةٍ عربيـة، ولكـن هـذا أيضًـا نـادر، لأنـه يصعـب عـلى أسرتـه أن تعـرف في أيِّ قـرى أو مـدن العـرب يقبـع ابنهـا، وهنالـكَ مئـات القـرى والمجموعـات العربيـة التـي تُغِـير عـلى المجموعـات غـير العربيـة، والعكـس أيضًـا صحيح. والـشيء الآخـر، كيـف يسـتطيع «غـزال» أن يتصـل بأسرتـه في «الخرطـوم»، والخرطـوم كـما يقولـون «كـرش فيـل». كـما إن «غـزال» لم يـرَ «رشـا» في حياتـه؛ هـي أصغـر منـه بأربعـة عـشر عامًـا عـلى الأقـل؛ فلـم تنـمُ تلـكَ البـذرة في قلـب «جبريـل» فقـد كان يحـبُّ «غـزال» كـما يحـبُّ الأب ابنـه، ونحـن لا نـدري مـا إذا كان قـد حلُـم في يـومٍ مـا بينـما هـو في قريـة «أولاد أحمـد»، قبـل أن ينتقـل للخرطـوم، بـأن ابنتـه البِكـر «شوشـايا»، سـيزوِّجها لابنـه «غـزال»، مـن يـدري!

وهـو أيضًـا لا يسـتطيع أن يتخيَّـل الطريقـة التـي سـيلتقي بهـا «غـزال»

بـ«رشـا». قـادت ابنتـه فرقـة موسـيقية — وهـي جماعتهـا المسـماة «تصوُّف» — إلى «جوبـا» قبـل أسـبوعين مـن الاحتفـال بالاسـتقلال، لـكي تشـارك الجنوبيـين فرحتهـم، وهنالـكَ تلتقـي لأوَّل مـرة في حياتهـا بمغـنٍّ جنـوبي، طويـل القامـة وسـيم المحيَّـا اسـمه «تابـان غبريـال»، ويشـترك معهـا في أداء الأوبريـت الـذي ألَّفتـه الأديبـة «إسـتيلا قتيانـو» وأطلقـت عليـه اسـمًا مربـكًا: «قلـب هنـا، جسـم هنـاك، والـزول واحـد». وكانـت لهجتـه العربيـة ليسـت هـي لُغـة «جوبـا» وليسـت عربيـة الوسـط أو الشـمال أو الغـرب، ولكـن لهجـة أبيهـا وأمهـا، ينطـق الكلـمات تمامًـا كـما ينطقهـا أعمامهـا الذيـن يزورونهـم بـين وقـتٍ وآخـر في «الخرطـوم» منذ أن تـوفي والدهـا، فعندمـا سـألته مـن أيـن تعلَّـم اللغـة، قـصَّ لهـا قصَّتـه كُلَّهـا، وحدَّثهـا عـن «جبريـل» و«ملكـة الـدار» و«شوشـايا» الصغـيرة.

«أنا لستُ شوشايا، شوشايا توفيت، أنا أختها الصغرى رشا جبريل.»

هنالـكَ تفاصيـل كثـيرة، وأمـورٌ جـرت بسرعـة، وغرائـب وعجائـب تحـدث كـما في الأحـلام. ولكـن مـا ميَّـز كلَّ شيءٍ كان الجنـون الممـزوج بالعاطفـة، لم يسـتطِع بقيـة أفـراد الفرقـة التـي تخـصُّ «رشـا» والفرقـة الأخـرى التـي تخـصُّ «غـزال» أن يفرِّقـوا بـين شـيئين مهمَّـين، هـل هـذا العنـاق عنـاق أخويـن افترقـا منـذ بـدء الخليقـة والتقيـا الآن، أم إنهـما عاشـقان شـتيتان تقطَّعـت بهـما سُـبل الوصـل ألـف عـامٍ ونيِّـفٍ والتحـما الآن في شـخصٍ واحـد! هـل يكفـي أسـبوعان للوقـوع في الحُـب؟ لسـتُ أدري، ولكنهـما يكفيـان لـكي يتَّحـد رجـلٌ بامـرأةٍ، وهـذا مؤكَّـد.

فبينـما كان الجنـوب ينفصـل عـن الشـمال، كان «غـزال» و«رشـا» يتَّحـدان. في نفـس الوقـت وذات الاحتفـال: نسـتطيع أن نكتـب إنهـا كانـت ليلـة «رشـا» الأولى.

سِفْرُ المَلْحُوظَات

بالطبـع كان هنالـك، مُسَرْنَمًـا، ويتحـدَّث مـع الديـك المجهـول. عـرف الشرطيـون أنـه أحـد ضحايـا داء الديـك، ولكنـه لم يسـتيقظ لـكي يخبرهـم عـن اسـمه وأهلـه أو يـدلي بأيـة معلومـات. كانـوا قـد ألبسـوه جلبابًـا بالقـوة، فمعـروفٌ عـن السـلطات حساسـيتها تجـاه العُـري والأعضـاء الجنسـية غـير المسـتورة جيِّـدًا عـن العـين. أصبـح منظـر المصابـين المُسَرْنَمِـين المصابـين بـداء الديـك، العُـراة، معتـادًا جـدًّا، وهـي الحالـة الصحِّيَّـة المتأخِّـرة جـدًّا؛ أيْ حالـة مـا قبـل المـوت بأيـامٍ قلائـل، والأسـوأ هـو حالـة الـصراخ والهيجـان والهلـع التـي يُصـاب بهـا وهـو مقفـولٌ عليـه في البيـت، ومحاولتـه إيـذاء نفسـه بالـضرب أو الجـروح أو حـكِّ الجلـد المُدمـى بالأظافـر. والسـحرة المعالجـون يهربـون في تلـكَ اللحظـات بالـذات، مـع أخـذ أجورهـم كاملـة، وهـو اسـتحقاقهم عـن الأمـل الـذي يعطونـه للمريـض في أوَّل فـترة مرضـه؛ فمـن يسـتطيع أن يمنـع المـوت غـير اللـه؟ وليسـت لديهـم سـلطة اللـه.

نحـن الآن في 2015/2/23، خمـس سـنوات منـذ وفـاة «جبريـل أدومـة»، حيـث إنـه تـوفي في ينايـر 2010، وسـنتان منـذ أن انتقـل «فتـح اللـه فـراج» إلى الرفيـق الأعـلى في 2012، وأربـع سـنوات منـذ أن تـزوَّج «غـزال» «رشـا» في 2011، و52 سـنة منـذ ميـلادي أنـا كاتـب هـذه الروايـة، حيـث تقـول أمـي إننـي وُلـدتُ في 1963/2/23، و59 عامًـا منذ اسـتقلال السـودان 1956.

إذا نظرنـا نظـرةً سريعـةً لبعـض الأمكنـة والأشـخاص في هـذا السِّـفر الـسرديِّ الـذي يحـكي أزمنـة مـا قبـل التاريـخ، ثـمَّ مـا قبـل اسـتقلال السـودان، وهـي الدولـة الأولى في العـالم والأخـيرة التـي تُسـمَّى وفقًـا للـون بـشرة سُـكانها، وليـس وفقًـا لمـا قدَّمتـه الشـعوب التـي تقيـم في هـذه البقعـة منـذ آلاف السـنوات قبـل ميـلاد «زرادشـت» وملايـين السـنوات مـن ميـلاد السـيد المسـيح «عيـسى» ابـن الإنسـان، لم تُسـمَّ هـذه البـلاد وفقًـا لمـا قدَّمتـه للعـالم مـن حضـارةٍ كانـت هـي النـبراس الأوَّل للإنسـانية، وهـي الحضـارة النوبيـة.

إذا نظرنـا إلى الحـال في أزمنـة وأمكنـة الـسرد وعدنـا إلى «زقلونـا»، نجـد أنهـا تغـيرت بعـض الـشيء، وخاصَّـةً بعـد أن تـمَّ قطـع شـجرة النيـم العملاقـة التـي عـلى مـصرف النفايـات، حيـث رأت حكومـة الولايـة أنهـا بذلـكَ سـتحلُّ مشـكل العمالـة غـير الشرعيـة، مثـل مهنـة الحلاقـة التـي يقـوم بهـا عـم «عبـد الرحيـم خـيري»، وبيـع السـكاكين وسـنِّها وتجليـد الحجابـات والتمائـم، والمقصـود هنـا مـا يقـوم بممارسـته «أونـور» البجاوي، و«الشـحادة» التـي يمارسـها بعـض العُميـان والمـرضى المجذومـين، منهـم «عـلي مُكابسـة»، وبيـع الرغيـف بصـورةٍ غـير صحيـة عـلى طاولـةٍ أو مفروشًـا في جـوالاتٍ عـلى الأرض، وسـيدات الخضـار وبائعـات الشـاي والزلابيـة والكـسرة، وسـتنهي مشـكلة العطالـة بصـورةٍ نهائيـة، حيـث اعتـاد بعـض الذيـن ليـس لديهـم مهـنٌ ومهـارات عمـلٍ محـددة الجلـوس تحـت ظـلِّ النيمـة ولعـب الـورق وتبـادل الحديـث في انتظـار مـن يحتـاج

لعمالةٍ طارئة، لأعمالٍ مثل حفر بئرٍ أو هدم منزل، أو أعمال بناءٍ لا تحتاج إلى مهارة، أو غسيل سيارة، وغيرها من المهن الهامشية التي قد توفِّر لهم بعض المصروفات الأسرية.

ونستطيع أن نرصد الأحداث في «الخرطوم» كما يلي:

قرَّرت حكومة ولاية «الخرطوم»، أسوةً بحكومة ولاية «شمال دارفور» التي أصدر واليها «أبو سيخات» فرمانًا بقطع أشجار حجر قَدُو، وهنَّ سنطاتٌ قديماتٌ معمِّرات، خُلقن قبل أن تُخلق «الفاشر» مدينة السلطان، وكُنَّ مجلس سلاطين «الفور»، وشهدن الحضارات بأعينهنَّ واحتوينها بظلالهنَّ، قطعها الوالي المجاهد ظانًّا أنه بذلكَ يقدِّم خدمةً لله، لأن الشَّجرات العجوزات تقدِّم ظلَّها للعاطلين عن العمل والمفسدين، متجنِّبًا تاريخها العريق، باعتبار أن الاهتمام بالتاريخ غير الإسلاميِّ نوعٌ من الشرك بالله. والقرار الآخر الذي استهدى به والي الخرطوم هو قرار والي ولاية «كسلا»؛ حيث اكتشف الواليان التقيَّان العابدان المجاهدان الرساليَّان نفعنا الله ببركاتهما، أن الطريقة المثلى للتخلص من العطالة والتسوُّل، ومحاربة العمالة غير المقنَّنة العشوائية، وتجمُّعات المفسدين لاعبي الورق، هي قطع الأشجار التي تتمُّ تحت ظلالها الفاسدة تلكَ الأنشطة التي لا ترضي الله ورسوله، وتضرُّ بصحة المواطنين والاقتصاد الوطني. ووفقًا لذلك، تمَّ قطع شجرة النيم العملاقة، التي تنبت على حافة مجرى النفايات العتيق، وتبسط ظلَّها لعشرات الأمتار، ويقبع تحتها أساطين السُّوق، كما تمَّ ذكرهم: دكتور «عم عبد الرحيم خيري» الحلاق، والذي يقوم بإجراء عمليات الخُراجات السطحية وقطع الريشة للأطفال وطهارة الأولاد وعمل الحجامة، و«أونور» الحدَّاد الذي أصبح يُعرف بـ«أونور الثوري» بعد هُتافه الشهير في لوري الشرطة: «أونور يُريد تغيير النزام»، و«بت فضل الله» بائعة الزلابية، و«مكابسة» الأعمى الذي

يبيع الرغيف أيضًا، ويجلس تحتها كذلك عمال اليومية السباكون والبناءون والكهربائيون وحفارو المراحيض المائية، والذابحون، ويُعْتبر «جبريل كيري» هو أول من عمل ذابحًا في سُوق الشجرة بـ«زقلونا».

ولكن بسقوط الشجرة، ظهر سوق الرواكيب، كالنبت الشيطاني، حيث بنى دكتور «عم عبد الرحيم خيري» أول راكوبة في مكان جذع الشجرة الموءودة واستخدمها كعيادةٍ له، وتبعه الآخرون، وعندما جاءت البلدية بصحبة قوات الشرطة بعد أسبوعين وهدمت الرواكيب وحرقت الخيش والقش والعيدان، بنوها مرةً أخرى في الليالي المقمرة في ذات الأمكنة بالطين وبعض الحجارة والطوب اللبن. وكانت هذه هي بذرة سُوق الرواكيب الضخم بـ«زقلونا»، الذي عندما أرادت الحكومة القضاء عليه، لم تستطع، حيث رفض الناس الخروج من الرواكيب من أجل هدمها بواسطة الآليات الثقيلة، وتضامن مع العاملين بالسوق كلُّ المواطنين بزقلونا شرق وغرب، وقالوا لموظَّفي البلدية والشرطيين: «اهدموها على رؤوسنا.» ومع مرور الأيام اكتفت المحلية بتحصيل مبالغ من المال كرسومٍ على البناء العشوائيِّ لسوق الرواكيب.

الشيء الآخر الذي حدث، هو الظهور العلنيُّ لمرضى «جنون الديك» في الشوارع، وأخذ بعضهم يصيح مثل الديكة، وقيل إن ذلكَ يريحهم قليلًا ويبعد عنهم الديك لبعض الوقت، بعدما فشل السحرة والساحرات في الاحتفاظ بالمرضى في بيوتهم أو في مناطقَ معزولة، لأن مريض جنون الديك في أيامه الأخيرة يصبح شاذَّ الأطوار، وبالنظر لحالة «فتح الله فراج» في أيامه الأخيرة قبل موته الذي حدث قبل عامين نستَبِين كلَّ شيء:

أوَّل من افتقد «فتح الله فراج» كانت الساحرة التي تنام معه في ذات الحجرة، حيث إنهما كانا ساهرين لوقتٍ متأخرٍ جدًّا من الليل، وكانت الساحرة متعبةً من جراء ذلك، لذا لم تشعر بـ«فتح الله

فراج» عندما خرج من الحجرة ثمَّ من البيت كله، ولم ينتبه له أفراد الأسرة النائمون في حجراتهم المكيفة الهادئة المريحة الواسعة. عندما استيقظت الساحرة فجأةً ولم تجده، ظنَّت أنه ربما ذهب إلى حجرة زوجته «نصرة» أو لزير الماء الذي يحتفظ به في زاويةٍ من البيت، ولم تتأكد من هروبه إلَّا بعدما أتت «نصرة» لكي «تصَبَّح» عليه، وعندما لم تجده في السرير سألت الساحرة عن مكانه، وحينها فقط عرفتا أن «فتح الله فراج» خرج لمكانٍ ما خارج البيت بملابس النوم. وعندما وجدوا ملابس النوم جميعها في الباب الخارجي، ومن ضمنها الملابس الداخلية، موضوعةً بعناية على عتبة الباب، تيقَّنوا حجم الكارثة. وعلى أثر الجلبة التي يحدثها الارتباك، استيقظ بقية من في المنزل وهبطوا إلى الشوارع يبحثون عنه، واتصلت «نصرة» بالشرطة. بالطبع كان هنالك، مُسَرْنَمًا، ويتحدَّث مع الديك المجهول. عرف الشرطيون أنه أحد ضحايا داء الديك، ولكنه لم يستيقظ لكي يخبرهم عن اسمه وأهله أو يدلي بأية معلومات. كانوا قد ألبسوه جلبابًا بالقوة، فمعروفٌ عن السلطات حساسيتها تجاه العُري والأعضاء الجنسية غير المستورة جيِّدًا عن العين. أصبح منظر المصابين المُسَرْنَمِين المصابين بداء الديك، العُراة، معتادًا جدًّا، وهي الحالة الصحِّيَّة المتأخِّرة جدًّا؛ أيْ حالة ما قبل الموت بأيامٍ قلائل، والأسوأ هو حالة الصراخ والهيجان والهلع التي يُصاب بها وهو مقفولٌ عليه في البيت، ومحاولته إيذاء نفسه بالضرب أو الجروح أو حكِّ الجلد المُدمى بالأظافر. والسحرة المعالجون يهربون في تلكَ اللحظات بالذات، مع أخذ أجورهم كاملة، وهو استحقاقهم عن الأمل الذي يعطونه للمريض في أوَّل فترة مرضه؛ فمن يستطيع أن يمنع الموت غير الله؟ وليست لديهم سلطة الله.

الجدير بالذكر هنا، إنه في نفس لحظة موت «فتح الله فراج»، اختفى الديكُ من منزل صديقه «جبريل» ولم يترك أثرًا، واختفى

نقش صورة الديك في الخاتمين أيضًا، لأنه عندما أرادت «رشا جبريل» استخدام الخاتمين في زواجها كزينةٍ تذكّرها بوالدها، لاحظت أن هنالكَ اختلافًا طفيفًا في مظهر الخاتمين، وعندما أعادت الذاكرة والمخيلة للخلف، في شأن رسم الخاتمين، تذكَّرت أنه كان هنالكَ نقشٌ لديكٍ أو ما يشبه الديك بالخاتمين، والآن لا يُوجد أيُّ نقشٍ بهما، وبدا كأنما تمَّ استبدال الخاتمين بخاتمين آخرين شبيهين بالأوَّلين، أو إنه تمَّ طمسٌ لمعالم النقش عليهما. كان ذلكَ مقلقًا بالتأكيد، ومثيرًا للشكوك، ولكنها نسيت الأمر برمَّته، فموت والدها وفقده لا يعوِّضه خاتمان، أو نقشُ ديكٍ على خاتمين. واستخدمت الخاتمين كما هما، فكانا جميلين وساحرين ومريبين: وضعت واحدًا في إصبع زوجها «تابان»، ووضع «تابان» الآخر في إصبعها هي.

الظاهرة الأخرى، هي ظاهرة التجمعات الشبابية الثورية التي تعمل على التغيير، وتبتدئ بنشاطٍ وتفاؤلٍ وثورية، ثمَّ تحقنها الدولة بعناصرَ من نساء ورجال الأمن ليحوِّلوها إلى أداة مباركةٍ ومصالحةٍ ومجاملاتٍ وطنيةٍ ووسطيةٍ مميتة. وهنا نتحدَّث عن تجربة «رشا جبريل» وفرقة «تصوُّف» التي بدأت كوليدٍ شرعيٍّ لتيارات وسط اليسار، وهي فئة الطلاب والطالبات الذين ليسوا شيوعيين حزبيين، ولكنهم يحملون الأفكار الاشتراكية العامَّة ومناهج التحليل اليسارية، مع من يمكن تسميتهم بالعقلانيين؛ أي الذين يشغِّلون عقولهم مع قدرٍ من عاطفتهم ولا يسلِّمون بشيءٍ دون تمحيص، والصوفيُّ عندهم هو التأويليُّ، وضدُّ ما هو نقليٌّ ونمطي، بالتالي كانت المجموعة انتقائية، و«رشا» هي أمُّها الروحية مؤسِّستها، و«أدومة» مفكرٌ فاعلٌ انتمى إليها عن إعجابٍ ومحبَّة، وأصبح فيها مفكرًا فاعلًا ونشيطًا. والغناء والإنشاد ليسا سوى نشاطين من عدة أنشطةٍ تقوم بها الجماعة. وتصف المجموعة الانحطاط الفكري الذي تعاني منه طليعة

وروّاد البلاد منذ الاستقلال وما قبله في الدويلات العربية الإسلامية بأنه نتاج سيطرة العقلية النقلية العاطفية التي تخاف من المغامرة، وتعمل خارج التاريخ والمكان والزمن. وانضمَّ لـ«تصوُّف» أيضًا في مرحلةٍ ما من حياتها، مَنْ ظنُّوا أن الاسم يشير إلى الصورة التقليدية للتصوُّف في السودان، وليس شيئًا آخر أقرب لحركةٍ عقليةٍ فكريةٍ معقدة، وظنَّه البعض ذا صلة بالدين؛ أيِّ دينٍ كان، ولكن حالما أدرك الكثيرون أنها ضدٌّ فكرة الثبات والوسطية والعاطفية، أنها حركةٌ عقلانيةٌ بحتة، تنطلق من وحدة الكون ومركزية العقل، وهي فكرةٌ ثوريةٌ في الأصل، غادرها المتدينون بعد حين، ودخلها رجال الأمن ونسائه كرسميين ثُقلاء متحشرين في كلِّ شأن، وأخذوا يعملون على تخريب كلِّ شيءٍ في الأفكار والتنظيم، وساقوها نحو الصوفية اليومية، ورمادية الفكرة، حيث اعتبروا الواحدية ما هي إلَّا الوحدانية عينها، وما المقصود بالكون غير الله. أمَّا على مستوى التنظيم، فانفصلت الجماعة الموسيقية عن الفكرية، وأصبحت هنالكَ جماعةٌ سياسيةٌ تناضل من أجل إنهاء السُلطة الأبدية للحاكم الأوحد للبلاد والباقي للأبد بشريعة الفُكيان والسحرة وقوة السلاح. وأخذت الجماعة تبني مؤسساتها منفصلة، وهي مُخْتَرَقَةٌ بصورةٍ تامَّةٍ من قبل السُّلطة نفسها. لذا كان هنالكَ ميلادٌ ثانٍ وثالثٌ لـ«تصوُّف» في محاولاتٍ دائمةٍ لتجنُّب جواسيس السُلطة المتلوِّنين مثل الحرباء، والعمل في مؤسسةٍ تخلو من أرنبات أنوفهم.

بعدما تزوَّجت «رشا جبريل»، من المغني الجنوبي «تابان غبريال»، وانفصالها عاطفيًّا عن «أدومة» وسفرها المتواصل للجنوب، أصبح اهتمامها الأكبر بالجانب الموسيقي، بل أصبح عملها ومشروعها في الحياة هو الموسيقى، وهي أيضًا أداتها للتغيير. تقول «رشا»: «هي وسيلتي للاعتقاد، وأداتي الفكرية في نفس الوقت.»

هل قلنا إنها انفصلت عاطفيًّا عن «أدومة»؟ ربما يكون ذلكَ صحيحًا، ولكن «أدومة» لم ينفصل عنها عاطفيًّا، أو يمكن القول إنه بدأ يحبُّها فعلًا، أو ما شابه ذلك، لأن مسألة الحُبِّ مسألةٌ شائكةٌ لا يمكن البتُّ فيها بسهولة. قال «أدومة» لها إنه مندهشٌ من طريقة زواجها من «تابان غبريال»، وهو لا يمكن أن يتصوَّر أن يحدث زواجٌ بهذه البساطة مع شخصٍ لم تعرفه من قبل، فقط سمعت به من أمِّها وأبيها، وفور أن تقابله تتزوَّجه مباشرةً! ماذا يُسمَّى هذا النُوع بالذات من الجنون؟ من المُلاحَظ أن «أدومة» له لسانٌ طلقٌ في حالة التنظير في من يصلح ومن لا يصلح للزواج، أمَّا هو فلا يتقدَّم خطوةً واحدةً صوبه. قالت له ذات مرةٍ وقد التقيا في ندوةٍ بمدينة «أم درمان»، وقد أبدى لها فكرته تلك:

- أنتَ أحيانًا تبدو متناقضًا جدًّا؟ ألسنا نحن جميعًا شخصًا واحدًا، أليس كلُّ هذا الكون عبارةً عن ذات الشيء! وكنا دائمًا معًا وسنظلُّ معًا للأبد؟

ردَّ إليها محاولًا تقليدها في استخدام الفصحى، ولا يخلو ردُّه من سخرية:

- بلا ... ولكن!

قالت له:

- اعتبر «غبريال» هو أنتَ بكلِّ الخبرة التي بيننا، بس باسم تاني وهيئة تانية. لقد كنَّا واحدًا!

قال لها ضاحكًا:

- انت بتحبي العساكر، «السر» كان عسكري برضو.

قالت له متفلسفة:

- كلنا عساكر وكلنا مدنيون.

قال مراوغًا:

- هي مجرَّد ملحوظة.

أعجبتها فكرة أنه بدأ يغير، فكرة ذوبان جبل الجليد الذي بقلبه، وتحطيم فكرة أنه لا يهتمُّ ولا يتأثَّر ولا يحزن ولا يندم على ما فات، ويعشق بعقله أكثر ممَّا يعشق بقلبه، وأنه العاشق العاقل المتوازن، وأنه الذي يعرف ما يريد وكيف يريد ويستطيع أنْ ... وتلكَ الكذبات الأخريات التي يطلقها على نفسه ويصدِّقها هو أولًا وأخيرًا، ويطالب الآخرين بتصديقها. وهي أيضًا تحبُّه، إذا كان الحُبُّ يعني أشياءَ وحالاتٍ كثيرةً مختلفةً، وليست له ذات المعاني، وهي أيضًا لا تحبُّه، إذا كان للحُبِّ معنًى واحدٌ فقط، وهي لا تعرف هذا «المعنى الواحد الفقط»!

همس لها في أذنها:

- أنا بحبك.

قالت له ضاحكة:

- أنا أعرف.

قال وهو يحاول أن يبدو جادًّا جدًّا:

- أنا أقصد ما أقول.

قالت له:

- أنا الآن أحب «غبريال» فقط، وهو يكفيني تمامًا. وأظنُّ أنه الرجل الصحيح، بالقلب الصحيح، في الوقت الصحيح.

وأضافت وهي تنظر في عمق عينيه بمتعةٍ خاصَّةٍ، لترى تأثير كلماتها في عينيه:

- وللأبد!

قـال، وقـد بـدا متورِّطًا في اعترافـه، ويرغـب في تسـجيل بعـض التراجـع لحفـظ مـاء الوجـه:

- فقط أحببتُ أن أقولها لكِ كملحوظةٍ ليس إلَّا.

إذا لم تنتقـم المـرأةُ لنفسـها الآن وفي اللحظـة ذاتِهـا، والمـكان ذاتِـه، فإنهـا سـتردُّ الصـاع صاعـين قريبًـا جـدًّا: فـلا تَنَـمْ وبابُـك مفتـوح.

سِفْرُ أَمَانِي

في ذلكَ اليوم لم يكن هنالكَ أحد، لذا طلب منها ألَّا تلعب في الجهة التي على النهر، بل عليها دائمًا أن تكون خلف مرقده؛ أيْ فيما وراء شجرة السُّنط. البنت دائمًا ما تعمل بما يطلبه منها، وهذا ما يحبُّه فيها؛ لذا انهمكت الطفلة في اللعب على الرمال بالأصداف والقواقع الميتة، إلى أن انتبهت فجأةً لامرأةٍ جميلةٍ موفورة الصحة عارية، لها ثديان كبيران، وشعرٌ أسودُ مبتلٌّ مسدلٌ على صدرها وكتفيها وظهرها. كانت المرأة تخرج من ماء النهر وتمشي في ثباتٍ ناحية جدِّها الذي يبدو عليه أنه لا يشعر بوجودها، ووقفت البنتُ مندهشةً ولم تستطع أن تنبس ببنت شفة، وتركت ما بيدها من صدفٍ ومحارٍ وأخذت تحملق في المرأة الغريبة التي تخرج من النهر مبتلة الشعر وتمضي نحو جدِّها ...

لِـمَ نَظَـر أفـراد أسرة «نـصرة» لأمـر الـثراء الفجـائيِّ الـذي حـدث لهـا دون أسـئلة، واعتـبروا أن الأمـر عـاديٌّ جـدًّا، وأن المـالَ الـذي أصابتـه ابنتهـم «نـصرة» مكتـوبٌ منـذ الأزل في لوحهـا المحفـوظ؟ وهـو حتمـيٌّ ويخصُّهـا بصـورةٍ نهائيـةٍ وتامَّـة؛ أيْ إن قـدر «نـصرة» هـو الـثراء! لفهـم هـذا علينـا أن نرجـع قليـلًا لحادثـةٍ وقعـت لـ«نـصرة» وهـي في الرابعـة مـن عمرهـا، في القريـة التـي وُلـدت بهـا عـلى النيـل الأزرق جنـوب مدينـة «الخرطـوم».

كانـت هـي الصُغـرى في أسرةٍ بهـا أربـع أولاد وبنـتٌ أخـرى إلى جانبهـا، ومنـذ سـنواتها الأولى كانـت تقيـم «نـصرة» في منـزل جدِّهـا وجدَّتهـا العجوزيـن، فهـما يحبَّانهـا، وهـي تقـدِّم لهـما بعـض الخدمـات الصغـيرة التـي في مسـتوى عمرهـا. في الحقيقـة، كان أكـثر مـا يعجبهـما فيهـا هـو مقدرتهـا عـلى الثرثـرة وتسـليتهما بالمؤانسـة ونقـل أخبـار القريـة إليهـما طازجـة، وعندمـا لا تكـون هنالـكَ أخبـار، فإنهـا تؤلِّـف لهـما أخبـارًا قـد لا تشـبه الأخبـار الحقيقيـة، لأنـه لا يمكـن تصديقهـا لإمعانهـا في الخيـال، ولكنهـا كانـت تسـلِّي العجوزيـن وتجعلهـما فخوريـن بخصوبـة خيـال حفيدتهـما. والمهمـة الأخـرى التـي تقـوم بهـا «نـصرة» الصغـيرة هـي أخـذ جدِّهـا الأعمـى في مشـواره الأسـبوعيِّ كلَّ يـوم ثلاثـاءٍ إلى شـاطئ النيـل الأزرق. فَقَـدَ جدُّهـا بـصره منـذ سـنوات شـبابه، ويظـنُّ الذيـن لا يعرفونـه جيِّـدًا ولم يـروه عندمـا كان مُبـصرًا أنـه وُلـد أعمـى، ليبقـى في بيتـه ويصنـع الحبـال وينسـجها عـلى «عناقريـب» القريـة كُلِّهـا، والعناقريب كلمـة نوبيـة تعنـي السراير المحليَّـة المصنوعـة مـن الخشـب والحبـال، التـي يسـتخدمها أهـل القريـة للنـوم.

لـدى الجـدِّ عنقريـبٌ قديـمٌ، مصنـوعٌ مـن مطـارق شـجرة السـدر، يُسـمَّى «الهبـابي»، وهـو مربـوطٌ بصـورةٍ دائمـة — مـا عـدا في فـترة الفيضـان — مـع سـاق شـجرة سُـنط عملاقـة، يُطلقـون عليهـا «سُـنطة النسـاج»، وذلـكَ وفقًـا للقـب الجـدِّ المشـهور بـه. الشـجرة تنمـو عـلى

رمال الشاطئ، وفي موسم الأمطار تبدو كما لو كانت تنبت في وسط النهر، حيث يغمرها ماء الفيضان إلى ما دون الهامة بقليل، وتكون حينها بيتًا آمنًا للبجعات المهاجرات، وعصافير «أم عُويدات» ذات الريش الملوَّن الجميل. من السهل إطلاق عنقريب الجدِّ من ساق السُنطة، وغالبًا ما يفعل ذلكَ بنفسه بمجرَّد أن يلمس أيَّ جزءٍ من العنقريب، فإنه يتحسَّس موضع العقدة التي صنعها بيده في آخر مرة ويطلقها، ويحمل العنقريب وخلفه حفيدته إلى أقرب نقطةٍ للماء، ويضطجع عليه بينما تلعب البنت الصغيرة بالمحار وبعض حشرات الشاطئ الصغيرة. ولأن موقع الشجرة شبه مهجور، فإن الجد دائمًا ما يحاول أن تكون البنت قريبةً منه، ولا يدعُها تدخل الماء وحدها، إلَّا إذا كان هنالكَ أحد سكان القرية، والذين يعرفهم جميعًا ويعرفونه ويأمنهم على البنت.

في ذلكَ اليوم لم يكن هنالكَ أحد، لذا طلب منها ألَّا تلعب في الجهة التي على النهر، بل عليها دائمًا أن تكون خلف مرقده؛ أيْ فيما وراء شجرة السُّنط. البنت دائمًا ما تعمل بما يطلبه منها، وهذا ما يحبُّه فيها؛ لذا انهمكت الطفلة في اللعب على الرمال بالأصداف والقواقع الميتة، إلى أن انتبهت فجأةً لامرأةٍ جميلةٍ موفورة الصحة عارية، لها ثديان كبيران، وشعرٌ أسودُ مبتلٌّ مسدلٌ على صدرها وكتفيها وظهرها. كانت المرأة تخرج من ماء النهر وتمشي في ثباتٍ ناحية جدِّها الذي يبدو عليه أنه لا يشعر بوجودها، ووقفت البنتُ مندهشةً ولم تستطع أن تنبس ببنت شفة، وتركت ما بيدها من صدفٍ ومحارٍ وأخذت تحملق في المرأة الغريبة التي تخرج من النهر مبتلة الشعر وتمضي نحو جدِّها، إلى أن وصلت المرأة إلى مرقد الجد، انحنت عليه فسقطت بعض ضفائرها المبتلة على وجهه، قالت له كلماتٍ قليلاتٍ لم تسمعها البنت. جلس الجدُّ على العنقريب، ضمَّته إلى صدرها لوقتٍ قليلٍ

ثـمَّ دفعـت حلمـة ثديهـا الأيـسر نحـو فمـه، وبحنـوٍّ بالـغٍ أخـذت ترضعـه. وكان الجـدُّ يرضـع مثـل الطفـل، وهـو يلـفُّ سـاعديه الطويلـين حـول ظهـر المـرأة. ثـمَّ اسـتبدلت الثـدي الأيمـن بالأيـسر. ثـمَّ أخـذ يرضـع مـرةً أخـرى إلى إن شـبع تمامًـا وأطلـق سـاعديه مـن جسـد المـرأة، ورقـد عـلى العنقريـب شـبه مغمًـى عليـه. في تلـكَ الحظـة أشـارت المـرأة للطفلـة بـأن تـأتي، فجـرت «نـصرة» نحوهـا دون خـوف. حملقـت «نـصرة» في وجههـا وسـألتها بـبراءة:

- انتِ منو Er neete؟

قالت وهي تضمُّها إليها في حنانٍ دافق:

- أنا أماني Ay amani - tenen.

سألت الطفلة:

- أماني منو Amani ny؟

فلـم تجـب المـرأةُ، ولكنهـا قبَّلـت الطفلـة في خدَّيهـا، ثـمَّ قدَّمـت لهـا ثديهـا الأيمـن فرضعـت فيـه بثبـاتٍ كـما رضـع الجـد، ثـمَّ مـدَّت إليهـا الأيـسر فرضعـت أيضًـا، مـن ثـمَّ تركتهـما المـرأة وذهبـت نحـو النهـر، وأخـذت تخـوض فيـه إلى أن ابتلعهـا المـاء تمامًـا واختفـت عـن نظـر الطفلـة، ولم تلتفـت للخلـف، لـتردَّ تحيـة الـوداع التـي تلـوِّح بهـا الطفلـة الصغـيرة مشـيعةً بابتسـامةٍ مـلء شـفتيها.

وانتـشر الخـبر في القريـة عـن ظهـور «أمـاني»؛ أيْ «الملكـة» بالنوبيـة، وأنهـا أرضعـت الجـدَّ النسَّـاج الأعمـى وحفيدتـه «نـصرة»، فلـم يشـكَّ أحـدٌ أبـدًا في صـدق الحـدث، فظهـور «الملكـة» أو «أمـاني» أو «الجـدة» كـما يسـميها البعـض، يحـدث بـين وقـتٍ وآخـر، ولـو أنـه لم يرَهـا أحـدٌ مـن الأحيـاء الآن، ولكنهـم يتناقلـون حكايـة ظهورهـا مـن جيـلٍ لجيـل، ومـن عـصرٍ لعـصر، وكانـت في كلِّ الحكايـات الماضيـة عنهـا لا تفعـل شـيئًا، أو

لم ينتظرها من شاهدها لتفعل ما تريد، والكثيرون الذين رأوها في عصورٍ غابراتٍ كانوا يهربون بمجرَّد ظهورها خارجةً من ماء النهر، يسرعون لبيوتهم وهم مصابون بالحمَّى من الرعب. ولكن يؤمن الجميع بأنها لا تضرُّ أحدًا، بل إنها الخير ذاته، فمن رآها سيسعد في يومٍ ما، أمَّا من أرضعته فإمَّا أن يصبح من المُعمِّرين مع الاحتفاظ بصحةٍ جيِّدةٍ خاليةٍ من الأمراض وصرف الدهر، وإمَّا أن يصيب ثروةً كبيرةً مذهلةً في حياته بعد فقر وعوز.

وفعلًا، عاش الجدُّ إلى أن نسي الناس كم كان عمره، وعندما انتقل للرفيق الأعلى كان قويَّ البنية وبإمكانه أن يعيش مدى الدهر. ولو أنه كان يفضِّل الثروة الكبيرة المذهلة، مع العمر المناسب. أمَّا بالنسبة لـ«نصرة» مع مرور السنوات، فإنها ما عادت تذكر تفاصيل تلكَ الحادثة جيِّدًا نسبةً لصغر سنِّها في وقت حدوث الحادثة، ولكن الآخرين يذكِّرونها بها؛ الذين كانوا أكبر سنًّا وأقوى ذاكرة. فأمَّا الجد، تجنُّبًا للعين والحسد، فإنه كان كتومًا جدًّا، طوال حياته المديدة، كلُّ الذي أخبر به الآخرين عن تلكَ الحادثة أن «لبنها كان مثل الهواء، تحسُّه في بطنك فقط، ولا طعم له في الفم.»

وعندما بدأت تعرف رمي الودع وضرب الرمل، لم يستغرب الناس أيضًا، فهي «رضيعة الجدة أماني» والناس ينتظرون منها الكثير. وعندما أصابت ثروتها وهي في أواخر الأربعينيات من العمر، ولو أنها لم تخبر أحدًا عن مصدر الثروة، فهي لم تربط ذلكَ بأية قصةٍ خرافيةٍ أو أسطورةٍ أو أعجوبةٍ حصلت لها. لم يكن حدث الرضاعة على قوته وفرادته وجديته ذا تأثيرٍ فعليٍّ على معتقدها بشأن المال الذي تنعم فيه الآن، ويتعذَّب لأجله زوجها «فتح الله فراج»، ولم يكن أيضًا يجعلها تتسامح مع فكرة أن هذا المال من أجلها، بل عقدة أنهما استوليا على مالٍ كانت أحقَّ به أسرةُ «جبريل كيري»، تقضُّ

مضجعها، ولو أنها تبني لأسرته بيتًا جميلًا وتدفع لهم مالًا سخيًّا بصورةٍ متواصلة، وعندما تزوَّجت «رشا جبريل» من «تابان»، قامت بأخذ الأسرتين إلى الجنوب متكفلةً بكامل التذاكر والإقامة والمصروفات اليومية، وقدَّمت للعروسين هديةً عبارةً عن بيتٍ صغيرٍ في حي «الملكية» بجوبا، ومبلغًا من المال يكفيهما للعيش سنتين على الأقل، وأهدت «رشا» حلقتين من الذهب كبيرتين، وكانت تشعر بالخجل لأن الحلقتين كانتا تقريبًا نصف بيضة ذهب أهدتها التوأم للطفل «فراج»، وفعلت الكثير الذي يصعب ذكره من أجل الأسرة، إلا إنها لم تكمل المبلغ الذي تظنُّ أنه يخصُّهم بعد.

أمَّا الناس الذين يعرفون «نصرة» مُنذ وقتٍ بعيدٍ وشهدوا طفولتها أو سمعوا بقصَّتها من ثقات، فيقولون إنَّ ثراءها كان مُتوقَّعًا. ويزيد ما حصلت عليه من ثراءٍ إيمانَهم بالجدة الملكة التي تعيش في الماء، حيث يُشتقُّ اسمها «أمن» منه أيضًا. بل إن بعض العجولات والعجولين أصبحوا يتردَّدون ليل نهار على تلكَ البُقعة من النهر، ويجلسون الساعات الطوال مترقِّبين ظهور الملكة الجدة «أماني» أن تأتي وترضعهم، فإنهم لن يهربوا منها كما هرب الذين سبقوهم: الجميع يريد من الجدة إمَّا طول العمر وإمَّا الثراء، والغالبية تفضِّل الثراء، فما فائدة عمرٍ طويلٍ مع عوزٍ وفقرٍ ومسغبة؟ ومن يسترق السمع يستطيع أن يسمع فجر كلِّ يوم ثلاثاء (وهو يومٌ أصبح علامة الانتظار الموحَّد للذين لا يمكنهم الحضور اليومي للشاطئ نتيجةً لمشغوليات الحياة) ذلكَ النداء الذي اتفق عليه جميع المنتظرات والمنتظرين البائسين والبائسات على شاطئ النهر: «يووو أماني يووو».

سِفْرُ السَّرْد

الرغبـة في الكتابـة مُلحـةٌ مثلهـا مثـل الحاجـة لتدخـين سـيجارةٍ ملحاحةٍ وثقيلـة. ولكـن مـا الفائـدة التـي تُرجـى مـن كتابـة روايـةٍ كاملـةٍ عـن أفـرادٍ أصيبـوا بمـرضٍ غريـبٍ سُـمِّي بـ«داء الديـك النـوبي»، وماتـوا جميعًـا، ثـمَّ لم يُصَـب غيرهـم ممـن دخلـوا ذات القبـور فيـما بعـد وسرقـوا الذهـب. مـا المُدهـش في سرد عَيِّنـة هـذه الوقائـع؟ أليسـت مثلهـا مثـل غيرهـا مـن الأشـياء التـي تبـدو غريبـةً في الحيـاة، وتُعْـبر وتُنـسى، ثـمَّ لا يذكرهـا أحـد! ومـا الحكمـة؟!

عندما سمع «أدومة» أن «فتح الله فراج» أُصيب بداء الديك الذي انتشر فجأةً كوباء الطاعون بين الدَّهَابَة، ثمَّ انتهى فجأةً في بحر أربع سنواتٍ بموت جميع من أُصيب به، خطرت له فكرة أن يكتب روايةً مستوحيًا فيها هذا الحدث الغريب، مستهديًا بفكرة الجدة «فرجينيا وولف» تلكَ الروائية الإنجليزية الغريبة؛ أن كلَّ الموضوعات تصلح أن تكون رواية. ولكن ما يحيِّر بالفعل، أن الموضوع على الرغم من غرابته إلا إنه واقعيٌّ وحدث بالفعل، ولأشخاص بأعينهم، جُلُّهم قد مات الآن، وهذا بالطبع يفسد فكرة السرد، كعملٍ في الخيال، أداةً وموضوعًا، لأن نقل صورة الواقع، مثل رسم شجرةٍ هي في الواقع أكمل وأجمل وأعمق ممَّا ستكون عليه وهي منقولةٌ بواسطة شخصٍ فنانٍ أو غير فنان، ما لم تُصهر في أتون الخيال لتصبح فنًّا، به ملامح الشجرة المتخيَّلة وطاقة الفن.

يُوجد جانبٌ مخفيٌّ عن «أدومة»، وهو حقيقة أو وهم العقد الذي أُبرم بين «فتح الله فراج» والديك، فإن «فتح الله» لم يحدِّث به غير زوجته «نصرة»، و«نصرة» وفقًا لطبيعتها المتشكِّكة لم تصدِّقه واعتبرت ذلكَ جزءًا من أعراض مرض جنون الديك اختصَّ زوجها بهذه الأوهام منه، حيث لم يتحدَّث أيٌّ من المرضى عن هذا العقد علانية. لو سمع «أدومة» بهذا الجزء من الحكاية، لكان الأمر اختلف وبدأ في كتابة روايته مباشرة، لأنه سيربط ما بين عقد الديك وعقد في التراث والمخيلة لبعض الشعوب الأوربية؛ عقد أبرمه مثقفٌ عصاميٌّ مع الشيطان، اسم الرجل «دكتور فاوست» واسم الشيطان «مفستو»، وقد كتب الحكاية أديبان معروفان وهما الألمانيان «توماس مان» (1875-1955) و«ولفجانج فون جوته» (1749-1832)، وهي في الأصل حكايةٌ تراثيةٌ دينيةٌ كتبها قدِّيس له خيالٌ ثريٌّ، أحَبَّ أن يحذِّر من الوثوق في الشيطان والتعامل معه، وأن يخيف أتباعه البُسطاء المؤمنين،

مـن مغبَّـة ذلـك. «أدومـة» يعـرف القصَّتـين وقرأهـما في عـامٍ واحـد.

إذن لا جنـاح عـلى «أدومــة» أن يكتــب هــو أيضًــا ذات الأســطورة بالإخـراج الـسرديِّ الـذي يريـده ويـراه ويفضِّلـه، وخاصَّـةً إنـه سيسـتفيد مـن حـدثٍ محليٍّ واقعـيٍّ كمحفِّـزٍ للتأليـف واسـتثارة الأخيلـة. فـما الكتابة كـما قيـل سـوى تنـاص، إمَّـا مـع نصـوص، إمَّـا مـع الواقـع، إمَّـا مـع الخيـال نفسـه، وفي أحيـانٍ كثـيرةٍ تنـاصٌّ مـع تحقيقـات الكاتـب ذاتـه.

والمعلومـة الأخـرى المفيـدة أيضًـا بالنسـبة لـ«أدومـة» كمؤلـفٍ لروايـةٍ تتحـدَّث عـن جنـون الديكـة ويفتقدهـا هـو، أنـه لم يعـرف أن «فتـح اللـه فـراج» قـد انتقـل بعـد موتـه مبـاشرةً إلى موقـعٍ للملـوك بجزيـرة «نـاوا»، وهــو موقـعٌ يسـمِّيه العارفـون «جزيـرة الـروح»، والذيـن لا يفقهـون في الـسرِّ يطلقـون عليـه «جزيـرة السـحاحير»، وهـو في الأصـل مجمَّـع ملـوك النيـل الذيـن أثـروا الحيـاة معرفيًّـا وحضاريًّـا وإنسـانيًّا، بـل ودينيًّـا أيضًـا، ثـمَّ أقامـوا في هـذه الجزيـرة كجنـةٍ مؤقتـةٍ محجوبـةٍ عـن الأحيـاء، ولكـن الأحيـاء بالنسـبة لهـم مكشـوفون ومفضحـون.

في سـبيل بحـث الجـدود المنشِـئين عـن الصـورة الماديـة للـرب، عـثروا عـلى الشـيطان، وعرفـوا أنـه الشـيطان منـذ اللحظـة التـي عـثروا عليـه فيهـا، ولـو أنهـم مـا كانـوا يعرفـون مـا الفـرق بـين الـربِّ والشـيطان (أوَّل مـن اتنبـه لتلـك الجدليـة «زرتشـت Zoroaster» الكـردي - 1400 ق. م.) إلا إن الشـيطان مـا كان يحتـاج لأيـة مقارنـات لـكي يُـدرى كنهـه، فاتخـذه طلائعهـم نبراسًـا للطريـق نحـو اللـه، فهداهـم الشـيطان إلى المعرفـة، وأفـشى إليهـم بـسرِّ الحضـارة، وقـدَّم لهـم خارطـةً لبنـاء الجنـة المؤقتـة في الجزيـرة «نـاوا» والأهرامـات رمـزًا للخلـود وهـي تشـير برأسـها نحـو الأعـلى، فظنُّـوا أنـه يهديهـم بتلـك الرمزيـة لمقـام الـربِّ الـذي كان في تصوُّرهـم ليـس سـوى قـوةٍ مطلقـة، ويمكنهـا أن تحـلَّ في أيٍّ مـن مظاهـر الكـون والطبيعـة، مثـل البـشر والشـجر والحيوانـات، والشـمس أو القمـر،

والنهار أو الليل، الميتين، أو حتى في كلمات اللغة، وذلكَ قبل أن يحدِّد لهم الشيطان موقعه في السماء. لقد كان عندهم الربُّ قبل ذلكَ في كلِّ مكانٍ وزمانٍ وشيءٍ وحدث، لذا قد اتخذوا كثيرًا من الأشياء آلهةً لهم، لأنها كُلُّها ذات الشيء الذي لا يعرفونه ماديًّا، ولكنهم يجدونه حيثما كان وكانوا. ثمَّ قال لهم الشيطان: «إنه في السماء».

يستطيع «أدومة» أن يربط بين هذا وذاك، وحتى ما لا يدريه ويخبره، فالمعرفة التي تكمن في الخيال أكثر قوةً ممَّا هي في العلم. إذن بإمكان «أدومة» أن ينشئ نصَّه حتى لو لم يدرك ما غاب عنه من معرفة، أو إنه يدركها عندما يتَّخذ مقعد الباحث الأكاديميِّ والصحفيِّ والمتحري الشرطيِّ في آنٍ واحد. فالرواية هي بحثٌ سرديٌّ تخيُّليٌّ في المقام الأول والأخير. وسيذكر «إيميل زولا» الفرنسيَّ عندما شاء أن يكتب عملًا عن الموتى، فاستحضر التابوت في غرفته ليوحي إليه بالموت. و«أدومة» نفسه عندما كتب «الطواحين» قرأ كتبًا وأبحاثًا عن الفنِّ التشكيليِّ وحياة التشكيليين الكبار، وخاصَّةً «كاندنسكي» الذي يعجبه أكثر. الطريق إلى كتابة روايةٍ عن جنون الديك النُّوبي، قد يمرُّ عبر بوابة أسرة المرحوم «فتح الله فراج»، أو أيٍّ من المرضى المرحومين الذين فقدوا حيواتهم الدنيا بصورةٍ غريبةٍ وغير مفهومة، بعد أن صاحوا مثل الديَكة التي فاجأها الصباح.

الرغبة في الكتابة مُلحةٌ مثلها مثل الحاجة لتدخين سيجارةٍ ملحاحةٍ وثقيلة. ولكن ما الفائدة التي تُرجى من كتابة روايةٍ كاملةٍ عن أفرادٍ أصيبوا بمرضٍ غريبٍ سُمِّي بـ«داء الديك النوبي»، وماتوا جميعًا، ثمَّ لم يُصَب غيرهم ممن دخلوا ذات القبور فيما بعد وسرقوا الذهب. ما المُدهش في سرد عَيِّنة هذه الوقائع؟ أليست مثلها مثل غيرها من الأشياء التي تبدو غريبةً في الحياة، وتُعْبر وتُنسى، ثمَّ لا يذكرها أحد! وما الحكمة؟!

تذكَّر حادثةً أُطلق عليها «لعنة الفراعنة»، حدثت قبل سنواتٍ كثيرةٍ لفريق الآثار بقيادة العالم البريطاني «هوارد كارتر» الذي اكتشف مقبرة «توت عنخ آمون» سنة 1922، حيث إن كلَّ أفراد الفريق قضوا نحبهم في ظروفٍ مختلفة، وكانت عاديةً جدًّا ولا غرابة فيها، ولكن الغرابة كانت في أنهم ماتوا بصورةٍ طبيعيةٍ كما يموت كلُّ البشر الذين لم يدخلوا المقبرة، ولكن جميعهم مات في بحر سنتين بالتمام، وكان هذا هو المُدهش في الأمر. هل هنالكَ ما يمكن أن يكون «لعنة النوبة»؟ أم إن لعنة الفراعنة ذاتها مجرَّد أكذوبة أطلقها لصوص القبور مستفيدين من نصوصٍ مرعبةٍ مشهورةٍ كانت مكتوبةً في بردي قرب جثامين الملوك، لكي ينفردوا بسرقات الكنوز والقبور الفرعونية وحدهم، ويبتعد عنهم لصوصٌ غير مهرةٍ يخافون الموت واللعنات الفرعونية القاتلة، كما صوَّرها لهم اللصوص المحترفون؟

نصوصٌ مثل: «سيضربُ الموتُ بجناحيه السامين على كلِّ من يعكِّر صفو الملك.» وغيرها من الكتابات القديمة التي تُدخل الرعبَ في نفوس اللصوص الذين يسرقون من أجل أن يعيشوا في استمتاعٍ لأطول وقتٍ ممكنٍ في الحياة الدُّنيا الجميلة، وليس لكي يضرب الموتُ بجناحيه السامين عليهم ويرسلهم للآخرة الغامضة التي لا يعرفون عنها الكثير سوى بعض الظنون.

كانت الأفكار تدور وتجول في رأسه، وهو لا يعرف: هل يلبِّي حاجة روحه للكتابة، أم إن الموضوع لا يستحق، وهو ليس سوى لعناتٍ نوباويات حزينات؟

ثم خطرت له فكرةٌ أخرى أكثر واقعية: لِمَ لا يكتب عن قرى الدهابة والأثر الاجتماعيِّ الأخلاقيِّ والاقتصاديِّ والصحِّيِّ على سكان المناطق التي يتمُّ فيها التعدين العشوائي؟ حيث انتشرت أنواع السرطان المختلفة نتيجةً لاستخدام الزئبق ومادة السيانيد الكيميائية

القاتلة في عملية التعدين، وهما مادَّتان تمَّ التأكُّد من علاقتهما بالسرطان وبعض الأمراض المزمنة الأخرى، كما إن المجتمعات الجديدة التي تشكَّلت نتيجةً لتجمعات العمال جديرةٌ بالبحث السردي، لأن أخلاقًا جديدةً ولغةً جديدةً تشكَّلت في تلكَ الأمكنة. وقد وصلته بعض الحكايات الغريبة والمُدهشة جدًّا عن هذه المجتمعات، ولكن لكي يكتب عن تلكَ المناطق لا بدَّ من التجربة الحية المحفِّزة للأخيلة. هو يذكر أن الروائيَّ «عيسى الحلو» قال ذات مرةٍ في حوارٍ صحفي: «إن الكاتب يكتب جيِّدًا عن المكان الذي يعرفه معرفةً حقَّة.» فهو يثق في الأستاذ «عيسى الحلو» ويعتبره شيخه في السرد، بالتالي يصدِّق ما يقوله ويعتقده ذلكَ العجوز الذي ظلَّ دائمًا على «مرجيحة الطفولة». هل سيسافر إلى الصحراء النوبية ليرى ويسمع ويشمَّ ويحسَّ ويفعل ويجرِّب، ليأتي ويكتب عما يعرفه جيِّدًا وفقًا لوصية أستاذه «عيسى الحلو»؟ أم سيكتفي ببحثٍ ميدانيٍّ من خلال الأفراد الذين مرُّوا بهذه التجربة وهم يعيشون الآن في «الخرطوم» ولم يصابوا بداء الديك؛ أيْ نجوا من الموت؟ إذا كان هنالكَ مثل هؤلاء البشر! لأنه في الأربع سنوات السابقات مات تقريبًا كلُّ من دخل قبرًا للملوك النوبة. إذن بإمكانه أن يقابل الآخرين الذين لم يلجوا القبور، وعادوا وأقاموا عند أهليهم في المدن. على سبيل المثال ذلكَ الرجل الشهير بقصص الذهب: «أونور سدنا». الذي استمع إليه مرةً في إذاعة «إف إم 100» في لقاءٍ مع المذيعة المعروفة «لمياء متوكل»، وجده يحكي بحماسٍ أقرب للرعب، الشيء الذي جعل كثيرًا من المغامرين يذهبون لقرى الذهب حُبًّا في المغامرة ومشاهدة عجائب وغرائب الحياة هنالك، كما صوَّرها «أونور سدنا»، ولو في زياراتٍ قصيرة. ولكنهم كما عرف من بعضهم صدُّوا محبطين، فلم يروا الفرس الذهبيَّ ولا الشياطين التائهة في الصحراء، ولم يشاهدوا قبرًا نوبيًّا ولا أرطالًا من الذهب، كلُّ الذي وجدوه هو كمٌّ هائلٌ من الشباب يهيم على وجهه في الصحاري في غاية الإحباط

والفلس وحرقان الروح، وبعضهم أُصيب بالجنون، ليس تأثرًا بالثراء الفاحش الفجائيّ وأرطال الذهب المتناثرة هنا وهنالكَ مثل الحجارة الجيرية، بل نتيجةً للإحباط وصعوبة الحصول على الذهب، وسوء ظروف المعيشة، وحرارة الجو، واستغلال التجار والشركات الكبيرة لمجهود الشابات والشباب الباحثين عن الثراء السريع ومباهج الحياة. لا أظنُّه سيحتاج للذهاب إلى هنالك، فالمياه ملوثةٌ بالموادِّ الكيميائية المستخدمة في عملية التعدين، وهي المياه ذاتها المستخدمة في الاستحمام وصُنع الأطعمة. والمعيشة في الأصقاع النائية الصحراوية القاسية، ذات تكلفةٍ عاليةٍ جدًّا، دعكَ من الثلاثي الكريه: الذُّبابُ والخُراءُ والعَفَنْ!

- بلاش رواية بلاش كلام فارغ.

انتهر نفسَه في غضب، مزَّق بعض أوراقٍ كانت تقبع أمامه قد كتب فيها ملحوظاتٍ وتخطيطًا عن الرواية التي كان يودُّ كتابتها، لاكَ بعضها في فمه وبصقه على الأرض سريعًا، لولا إنه توقَّف عن التدخين والصعوط وشُرب العَرَقِ لفعل واحدًا من الأفعال الثلاثة. أخذ جوَّاله ونقر على أرقامٍ يحفظها جيِّدًا، لتأتيه الاستجابةُ من الجانبِ الآخر بالترحيب، فيرد:

- كيفك؟
- تمام.
- ممكن نتقابل؟
- متين؟
- اليوم!
- أنا غير موجودة في «الخرطوم»، لي أسبوع في جبال النُوبة، في حملة ضد شلل الأطفال في المناطق التي لم تصلها وزارة الصحة للتطعيم، الحملة منطلقة من جنوب النيل الأزرق. مالك تذكرني الليلة إن شا الله خير؟

- لا، خير، تصلي بالسلامة.

- شكرا سأتصل بك عند عودتي، عندما أحضر من «جوبا»، لأنني سأذهب «جوبا» أولًا، سأقضي أسبوعًا مع «تابان»، سأشتري ليك قميص أفريقي جميل!

- شكرًا لك.

- إلى اللقاء.

أتى صوتُ أمِّه إليه من وسط الحوش، كانت تطلب من أبيه أن يلحق بها لحجرة «أدومة» ليريا ما حلَّ به، فهو يتحدَّث بصوتٍ عالٍ، وليس ذلكَ من طبيعته. وضع في فمه ابتسامةً كبيرةً لاستقبالهما، هو يعرف كم يقلقان عليه، فهو الابن الوحيد لهما، ودائمًا ما يضعانه تحت الرعاية الزائدة ويراقبانه، وعلى الرغم من كبر سنه، إلا إنهما يعاملانه مثل طفلٍ في حجمٍ كبير.

- شنو الأوراق المُشرَّطة دي؟

سأله والده وهو يشير إلى الأرض لأوراقٍ مُمزَّقةٍ مبعثرةٍ بعضها مأكول.

- معليش شوية أوراق.

قامت الأمُّ بجمعها، وتفحُّصها. قرأت بعض الكلمات والأسطر جهرًا، قالت له مبتسمة:

- رواية! ح تكتب رواية تانية؟

قال وهو يحافظ على ابتسامته:

- كنت عايز رواية، ولكن تركت الموضوع.

قالت له وهي تضع يدها في رأسه:

- لا، اكتبها، ابدأ الآن، لا تتوقف، استمر.

كاد والده أن يضحك وهو يرى إلحاح الأمِّ على كتابة الرواية. قال لها:

- سيكتبها عندما تجيه الشياطين من وادي السرد، شياطين الحكايات.

قالت الأمُّ وهي تضع رأس ولدها بين كفَّيها:

- اكتبها الآن ... ابدأ الآن ... قل لي سأبدأ.

قال لها وهو يمسك بيديها ويضعهما على المنضدة ويظلُّ ممسكًا بهما، وينظر إليهما في إشفاق:

- ح أفكِّر يا أمي مريم.

عندما خرج الوالدان، تمشَّى قليلًا في الغُرفة، ثمَّ عاد وجلس على المقعد، أخذ قلم الحبر الجاف، تناول ورقةً بيضاء، وبدأ يكتب:

«الجثةُ ترقد على السرير، ويلتفُّ حولها أفراد الأسرة المحزونون، وقلةٌ من الأصدقاء، وأقرباء زوجته «نصرة». في حقيقة الأمر لم يكن «فتح الله فراج» هنالك، لم تكن تلكَ الجثة المسجاة الآن على فراش الموت، الملفوفة بالكتان الأبيض، التي تفوح منها رائحة عطر السيد «علي الميرغني»، هي جثته. طالما لم يجرؤ أحد أفراد الأسرة أو المعزين على معرفة ما تحت القناع الشبيه بـ«فتح الله فراج»؛ فكانوا في عجلة من أمرهم لمواراته الثرى، وهي أيضًا ليست من عاداتهم أن يتأكدوا من أن ما تحت القناع ليس سوى مادةٍ ثقيلة، لا اسم ولا معنى ولا توصيف لها ...»

عبد العزيز بركة ساكن

2015/5/11

سالفلدن

الفهرس

إهداء................................ **5**

سِفْرُ المُلُوك................................ 13

سِفْرُ الفُرْسَان................................ 21

سِفْرُ الدِّيك................................ 31

إِرَادَةُ الْبَقَاء................................ 43

خُلُقُ الْمَال................................ 63

حِكَايَةُ الْبِنْتِ وَالْوَلَد................................ 75

صَائِدُ الْبَيْض................................ 93

حِكَايَةُ الْبِنْتِ وَالْأُم................................ 105

أُونُورْ يُرِيدْ تَغْيِيرْ النِّزَام................................ 129

الْمَالُ وَالْبَنُونَ وَالدِّيك................................ 143

سُلْطَانَةُ الْجِنِّ وَالْإِنْس................................ 157

الْبَيْضَةُ الْحَجَرِيَّة................................ 171

الْأُمُّ وَالْابْن................................ 179

مِنِفِسْتُو الدِّيكِ النُّوبِيِّ................................ 191

الْعَرُوسَان................................ 199

الْخَاطِبَات................................ 205

الْعَرُوس................................ 209

رَشَا جِبْرِيل................................ 215

حِكَايَةُ السِّر................................ 225

سِفْرُ الْبَيْت................................ 235

الدِّيكُ يَتَمَظْهَر................................ 247

سِفْرُ صَاحِبَةِ الرَّبَابَة................................ 255

سِفْرُ الحُرِّية................................ 265

جُنُونُ الدِّيك................................ 277

سِفْرُهُمَا 285
سِفْرُ الاتِّحَاد 291
سِفْرُ المَلْحُوظَات 297
سِفْرُ أَمَانِي 307
سِفْرُ السَّرْد 315

Willows House
منشورات
ويلوز هاوس